الدكتور
جمال مصطفى عبد الحميد

إتحاف الأحباب
بقصص سورة الكهف
وعبر أولي الألباب

الجزء الثاني

إتحاف الأحباب
بقصص سورة الكهف
وعبر أولى الألباب

تاليف
الدكتور
جمال مصطفى عبد الحميد
مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين جامعة الأزهر
القاهرة

الطبعة الأولى

الجزء الثانى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الناشر
مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون ٩١٩٧٢٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى صحبه ومن والاه ، صلاة وسلاما يليقان بمقام كرم الله ، وبمقام من على جميع البشر قد اصطفاه ، وبمقام أمة ، هى خير أمم الله .

وبعـــد

فبعد أن صدر الجزء الأول من كتابنا :

اتحاف الأحباب

بقصص سورة الكهف

وعبر أولى الألباب

بتوفيق الله تعالى وتيسيره ، والذى اشتمل على تمهيد لسورة الكهف ، متضمنا تسعة أمور ، لابد من ذكرها ، وعلى تفسير قصتين ، من قصص هذه السورة ، واستخراج العبر منهما ، وهما :

١ ـ قصة أصحاب الكهف .

٢ ـ وقصة صاحب الجنتين .

يسرنا بفضل الله تعالى أن نصدر الجزء الثانى ، من هذا الكتاب ، متضمنا تفسير القصتين الباقيتين ، واستخراج العبر منهما ، وهما :

١ ـ قصة موسى والخضر ، عليهما السلام .

٢ ـ قصة ذى القرنين .

واننـا اذ نقـدم هـذا الكتاب لأحبابنا وأخواننا ، طلاب العـلم ، والدعـاة المخلصين ، لنسـأل الله عـز وجل أن يجعـل ابتغاء مرضـاته هو ، هو الدافـع لتأليفـه ، وطبعـه ، وأن ينفـع به صاحبه ، ووالديه ، وأسـاتذته ، وكل من بلغـه ، آمـين .

ابو محمـد

دكتور / جمـال مصـطفى

تحريرا فى ليلة الثلاثاء ٢٤ من جمادى الثانية ١٤١٢ هـ

٣١ من ديسمبر ١٩٩١ م

قصة موسى والخضر

عليهما السلام

نص القصـــة

من القــرآن والســنة

النص القرآنى

هذه هى القصة الثالثة من سورة الكهف ، وتبدأ من الآية (٦٠) الى الآية (٨٢) ، ونستطيع أن نقسم آياتها الى أربعة مشاهد ، كالآتى :

المشهد الأول
طلب العلم
وتحمل المشاق فى سبيله

قال تعالى : « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا (٦٠) فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢) قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا (٦٣) قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا (٦٤) فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥) » .

المشهد الثانى
(من آداب المتعلم)

قال تعالى : « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت منه رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معى صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠) » .

المشهد الثالث

موسى لم يستطع صبرا

قال تعالى : « فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا (٧٢) قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا (٧٣) فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئا نكرا (٧٤) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا (٧٦) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٧٧) قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨) » .

المشهد الرابع

الفرق بين الحكمة الالهية والحكمة الانسانية

قال تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا (٨٢) » .

القصة من السنة

وردت هذه القصة فى السنة فى مصادر متعددة ، ونحن هنا نقتطفها من أصح كتب السنة ، حيث أخرجها البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بروايات متعددة ، ومن هذه الروايات ما رواه البخارى بسنده عن طريق سفيان بن عينية عن سعيد بن جبير ، قال : « قلت لابن عباس : ان نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله(١) ، حدثنى أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ان موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه ، اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه : ان لى عبدا بمجمع البحرين ، هو أعلم منك ، قال موسى : يارب : فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا(٢) فتجعله فى مكتل ، فحيثما فقدت الحوت

---

(١) قال ابن حجر : يقال انه ابن امرأة كعب الأحبار ، وقيل ابن أخيه ، وهو تابعى صدوق ، وقال أيضا : وقوله (كذب) وقوله (عدو الله) محمولان على ارادة المبالغة فى الزجر والتنفير عن تصديق تلك المقالة ، وقال محمد فؤاد عبد الباقى فى تعليقه على صحيح مسلم : (وكان ذلك فى حال غضب ابن عباس ، لشدة انكاره ، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا تراد بها حقائقها) .

(٢) جاء فى الرواية التالية لهذه الرواية مباشرة : (خذ نونا ميتا ، حيث ينفخ فيه الروح) ، وجاء فى رواية لمسلم (تزود حوتا مالحا) ، وعليها علق ابن حجر بقوله : (ويستفاد من رواية مسلم أن الحوت كان ميتا ، لأنه لا يملح وهو حى ، ومنه تعلم الحكمة فى تخصيص الحوت دون غيره من الحيوانات ، لأن غيره لا يؤكل ميتا ، ولا يراد الجراد لأنه قد يفقد وجوده) .

فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ، ثم انطلق ، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون ، حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل(٣) ، فخرج منه فسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، (بكسر الجيم وسكون الراء ،) فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما(٤) ، حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذى أمر الله به ، فقال له فتاه ، أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت ، وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى ولفتاه عجبا ، فقال

---

(٣) وردت عدة روايات وبعضها صحيح السند تنص على أن الحوت قد حيى ، لأنه أصابه ماء عين عند الصخرة يقال لها عين الحياة ، لا يصيب من مائها ميت الا حيى ، وعن ذلك قال ابن حجر : انه مدرج فى الحديث ، ومأخوذ عن قتادة ، ووهب بن منبه وغيرهما ممن كان يحدث بالاسرائيليات (فتح البارى : كتاب التفسير : ٢٦٨/٨) .

(٤) قال ابن حجر : قال الداودى : هذه الرواية وهم ، وكأن سفيان ابن عيينة فهم أن الفتى لم يخبر موسى الا بعد يوم وليلة ، بل المراد أن ابتداءها من يوم خرجا لطلبه ، ويوضح ذلك ما فى رواية ابن اسحاق عند مسلم : « فلما تجاوزا قال لفتاه : (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ، قال : ولم يصبه نصب حتى تجاوزا » ، وفى رواية سفيان المذكورة : « ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به » . فتح البارى : ٢٦٩/٨ .

موسى : ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ، قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة(٥) ، فاذا رجل مسجى ثوبا ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر ، وأنى بأرضك السلام ، قال : أنا موسى ، قال موسى بنى اسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال : انك لن تستطيع معى صبرا ، يا موسى : انى على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله ، علمك الله ، لا أعلمه ، فقال موسى : ستجدنى ان شاء الله صابرا ، ولا أعصى لك أمرا ، فقال له الخضر : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوه بغير نول - بفتح الأول وسكون الثانى - فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول ، عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا أمرا ، قال : ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : (لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، قال : وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانا(٦) ، قال وجاء عصفور فوقع على

---

(٥) فى الرواية التى بعد هذه الرواية (فوجدا خضرا على طنفسة خضراء على كبد البحر) ، والطنفسة فرش صغير ، بكسر الطاء والفاء ، بينهما نون ساكنة ، وبضم الطاء والفاء ، وبكسر الطاء ، وبفتح الفاء ، لغات ، قال ابن حجر : (ولا مغايرة بين الروايتين ، فان المراد أنهما لما انتهيا الى الصخرة تتبعاه ، الى أن وجداه فى الجزيرة) . الفتح : ٢٦٩/٨ .

(٦) وفى الرواية التالية لهذه الرواية زيادة : (والوسطى شرطا ، والثالثة عمدا) .

حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل اذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده ، فاقتلعه بيده فقتله(٧) ، فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا ، قال : ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : وهذه أشد من الأولى ، قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا ، حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ـ قال : مائل ـ فقام الخضر فأقامه بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ، لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال : هذا فراق بينى وبينك ـ الى قوله (**ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا**) ، قال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر ، حتى يقص الله علينا من خبرهما »(٨) .

***

---

(٧) وفى بعض الروايات : (فقطعه) ، وفى بعضها : فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، قال ابن حجر : (ويجمع بينهما بأنه ذبحه ثم اقتلع رأسه ،) ، وفى رواية أخرى عند الطبرى : (فأخذ صخرة فثلغ رأسه) والأول أصح ، ويمكن أن يكون ضرب رأسه بالصخرة ، ثم ذبحه ، وقطع رأسه) . الفتح : ٢٧٢/٨ .

(٨) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب التفسير ، فى تفسير سورة الكهف ، ومسلم فى كتاب الفضائل ، باب : من فضائل الخضر عليه السلام .

تمهيـــــد

بين يدى قصـــة موسى والـخضــر

تمهيد بين يدى تفسير القصة

وقبل أن نبدأ تفسير آيات القصة ينبغى علينا تسليط الضوء على بعض الأمور المتعلقة بها وبأشخاصها ، موسى ، وفتاه ، والخضر ، عليهم جميعا سلام الله ٠٠٠ ، وتنحصر هذه الأمور التمهيدية فيما يأتى :

أولا : موسى :

١ ـ من هو ؟ وهل هو رسول بنى اسرائيل أو غيره ؟

٢ ـ ولماذا أنكر اليهود أن يكون موسى صاحب الخضر ، هو موسى رسولهم صاحب التوراة ؟

ثانيا : فتى موسى : من هو ؟

ثالثا : الخضر :

١ ـ ما اسمه ؟ وما سبب تسميته بذلك ؟

٢ ـ وهل هو نبى أو ولى ؟

٣ ـ وهل هو حى الى الآن ؟ أو مات ؟

رابعا : سبب التقاء موسى والخضر ٠

خامسا : زمان القصة ، متى كانت ؟

سادسا : مكان القصة (مجمع البحرين) ٠

سابعا : مناسبة آيات القصة لما قبلها من الآيات ٠

فنقول وبالله التوفيق :

أولا : موسى عليه السلام

١ ـ هو موسى بن عمران ، كليم الله ، ورسوله الى بنى اسرائيل ، المنزل عليه التوراة ، المؤيد بالكثير من المعجزات ، الذى أرسله الله وأخاه هرون الى فرعون مصر ، والدليل على ذلك الأحاديث التى لا حصر لها ، والتى وردت فى مصادر متعددة ، من كتب

السنة ، وعلى رأسها صحيحا البخارى ومسلم ، والتى ذكرنا منها ذلك الحديث الذى يرويه سعيد بن جبير ، حيث قال : قلت لابن عباس ان نوفا البكالى زعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، ثم ساق حديثه عن رسول الله ﷺ فى ذلك .

وأيضا فان اطلاق اسم موسى هكذا يدل على أنه رسول بنى اسرائيل ، فالقرآن والسنة حينما يرد فيهما ذكر عن موسى هكذا مطلقا ، فان الذهن لا ينصرف الا الى موسى رسول بنى اسرائيل

قال القفال فيما ينقله عنه الفخر الرازى : « ان الله تعالى ما ذكر موسى فى كتابه الا وأراد به صاحب التوراة ، فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ، ولو كان المراد شخصا آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز ، وازالة الشبهة ، كما أنه لما كان المشهور فى العرف من أبى حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين ، فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلا سواه لقيدناه ، مثل أن نقول : قال أبو حنيفة الدينورى »(٩) .

هذا هو قول علماء الاسلام ، أما جمهور اليهود ، فقد ذهبوا الى أن موسى صاحب الخضر ليس هو رسولهم صاحب التوراة ، وانما هو موسى آخر ، وهو موسى بن ميشا بن يعقوب ، وذلك أن يوسف ابن يعقوب عليهما السلام كان له ولدان أفرائيم وميشا ، فولد أفرائيم نون ، وولد نون يوشع بن نون ، وهو صاحب موسى ، وولى عهده ، بعد موته ، أما ميشا فقد ولد له موسى ، ويزعم أهل التوراة أنه صاحب الخضر ، وليس هو صاحب التوراة ، الذى أرسل اليهم .

---

(٩) تفسير الفخر الرازى : ١٤٣/٢١ .

٢ ـ السبب فى انكار اليهود أن يكون المقصود هو موسى رسولهم :

وانما أنكر أهل الكتاب أن يكون موسى صاحب الخضر هو موسى رسولهم ، الذى أنزل الله عليه التوراة لانكارهم أن يتعلم رسول فاضل ، على يد غير رسول مفضول ، وهذا منهم حمية جاهلية ، لا زالت متغلغلة فى قلوبهم الى الآن ، حيث يدعون أنهم شعب الله المختار ، والا فان الواقع حدثنا أن كثيرا من العلماء الفضلاء يأخذون علوما على يد من هم أقل منهم علما وفضلا ، لأن الأقل قد برع فى ناحية لم يحط بها خبرا ذلك الفاضل ، ولنرجع الى حديث القصة نفسها ، حيث نجد الخضر نفسه يقول : (**يا موسى انى على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله ، علمك الله ، لا أعلمه**) .

قال الآلوسى : « لا نبالى بانكارهم ، بعد جواز الوقوع عقلا ، واخبار الله تعالى به ورسوله ﷺ ، فالآية ظاهرة فى ذلك ، ويقرب من هذا الانكار انكار النصارى تكلم عيسى عليه السلام فى المهد »(١٠) .

ثانيا : فتى موسى عليه السلام

ذهب أكثر العلماء الى أنه يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف ابن يعقوب عليهم السلام ، ووصف بالفتوة لأنه كان شابا قويا فى مقتبل العمر ، فالفتى : الشاب من كل شىء ، ولذلك لما كان الخدم فى معظم الأحوال أكثر ما يكونون شبابا ، فانه يطلق على الذكر منهم فتى ، وقد حبب الشرع هذا الاطلاق عليهم ، حيث جاء فى الحديث : « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى »(١١) ، وقد

---

(١٠) تفسير الآلوسى (روح المعانى) : ١٥/٣١٠ .

(١١) أخرجه البخارى فى كتاب العتق ، باب : كراهية التطاول على الرقيق ، ومسلم فى كتاب الألفاظ ، باب : ١٥ .

يكون وصف بذلك لخدمته لموسى فى هذا السفر ، واتباعه اياه ، أو لأنه كان يأخذ العلم منه ٠

وذهب بعضهم الى أنه أخو يوشع بن نون ، وعلى أى حال فان تعيينه هنا لا تتوقف عليه العبرة من القصة ، وتحديد شخصه بصورة أكثر من هذا لا يفيد بشىء ٠

ثالثا : العبد الصالح

١ - اسمه وسبب تسميته :

جاء فى السنة فى بيان قصة هذا العبد الصالح الذى علمه الله من لدنه علما أنه الخضر ، قيل واسم الخضر بليا بن ملكان ، وقيل غير ذلك ، وانما سمى الخضر بهذا الاسم لأنه - كما قال ﷺ - : « جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز من تحته خضراء »(١٢) ، والمراد بالفروة وجه الأرض ٠

٢ - هل هو نبى أو ولى ؟

ذهب بعض العلماء الى أن الخضر نبى ، بينما ذهب آخرون - قال عنهم ابن تيمية أنهم أكثر العلماء(١٣) - الى أنه لم يكن نبيا ٠

وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره حجج من قال بنبوته ، وضعفها جميعها ، يقول رحمه الله :

« واحتجوا عليه بوجوه :

الأول : أنه تعالى قال : (**آتيناه رحمة من عندنا**) والرحمة

---

(١٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب : حديث الخضر مع موسى ٠

(١٣) انظر فتاوى ابن تيمية : ٣٣٧/٤ ٠

هى النبوة ، بدليل قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك »(١٤) ، وقوله تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك »(١٥) ، والمراد من هذه الرحمة النبوة ، ولقائل أن يقول : نسلم أن النبوة رحمة ، أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة .

الحجة الثانية : قوله تعالى : (وعلمناه من لدنا علما) ، وهذا يقتضى أنه تعالى علمه ، لا بواسطة تعليم معلم ، ولا ارشاد مرشد ، وكل من علمه الله بواسطة البشر ، وجب أن يكون نبيا ، يعلم الأمور بالوحى من الله ، وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله ، وذلك لا يدل على النبوة .

الحجة الثالثة : أن موسى عليه السلام قال : (هل أتبعك على أن تعلمنى) ؟ والنبى لا يتبع غير النبى فى التعليم ، وهذا أيضا ضعيف ، لأن النبى لا يتبع غير النبى فى العلوم التى باعتبارها صار نبيا ، أما فى غير تلك العلوم فلا .

الحجة الرابعة : أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى ، حيث قال له : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) ، وأما موسى فانه أظهر التواضع له ، حيث قال : (ولا أعصى لك أمرا) ، وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى ، ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق النبى ، وهذا أيضا ضعيف ،لأنه يجوز أن يكون غير النبى فوق النبى فى علوم لا تتوقف نبوته عليها ، فلم قلتم ان ذلك لا يجوز ؟ فان قالوا لأنه يوجب التنفير ، قلنا : فارسال موسى الى التعلم منه بعد انزال الله عليه التوراة ، وتكليمه بغير واسطة يوجب التنفير ، فان قالوا : ان هذا لا يوجب التنفير ، فكذا القول فيما ذكروه .

---

(١٤) سورة الخرف آية : ٣٢ .
(١٥) سورة القصص آية : ٨٦ .

الحجـة الخامسـة : احتج الأصم على نبوته بقوله فى أثناء القصة (وما فعلتـه عن أمـرى) ومعنـاه : فعلته بوحى الله ، وهو يدل على النبوة ، وهـذا أيضـا دليل ضعيف ، وضعفه ظاهر .

الحجـة السادسـة : ما روى أن موسى عليـه السلام لمـا وصـل اليـه قال : السـلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا نبى بنى اسرائيل ، فقال موسى عليـه السلام : من عـرفك هـذا ؟ قال : الذى بعثك الى .

قـالوا : وهـذا يدل على أنه انما عـرف ذلك بالوحى ، والوحى لا يكون الا مع النبـوة .

ولقـائل أن يقول : لم لا يجـوز أن يكون ذلك من باب الكـرامات والالهـامات ؟ »(١٦) .

مـا نـراه راجحـا :-

وانى فى هـذه المسـألة أميـل الى رأى من قال بعـدم نبوته ، لعدم نص صـريح فى ذلك من قـرآن أو سـنة من جهـة ، ولعـدم وجـاهة الأدلة التى ذكـرها من قال بنبوته من ناحيـة أخـرى ، ولذلك وجدنا الفخر الرازى يفندها بكل يسـر وسهـولة ، ولعـل أقـوى ما يستدل به هؤلاء على نبوته أمـران :

١ - **الأمـر الأول :** أن مـوسى النبى تعـلم على يديه ، فدل ذلك على نبوته ، والا فكيف يأخذ النبى علمـا ممن هو أدنى منـه ؟

٢ - **الأمـر الثـانى :** أن الخضـر لمـا فعـل أمـورا عجيبـة أنكـرها موسى ، ولم يستطـع عليها صـبرا ، أوضح له فى نهـاية الأمـر الحكمة من ذلك ثم قال له (**وما فعلتـه عن أمـرى**) أى أنه فعل ذلك بأمر من الله ، ولا يكون ذلك الا بوحى ، فدل ذلك على نبوته.

---

(١٦) مفاتيح الغيب : ١٤٨/٢١ ، ١٤٩ .

أما الأمـر الأول فقد رددنا عليـه قريبا جـدا ، حينمـا تعـرضنا لانكار اليهـود أن يكون المقصود من موسى صاحب الخضر ، هو مـوسى رسولهم الذى أنزل الله عليـه التوراة ، فلا داعى لاعادته ، وبذلك يتضح أن ما ظنوه دليـلا يشهد لهم ، أو هى من بيت العنكبوت كما يدل واقع الناس ، حيث نرى كثيرا من العلماء الذين برعوا فى العديد من العلوم ، يذهبـون الى من هم أقـل منهم علمـا وفضـلا ، ليتعلموا على أيديهم نوعا من العـلوم برعوا فيـه ، قال الشوكانى : « وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضـر أفضـل من موسى ، فقد يأخذ الفاضـل عن الفاضـل ، وقد يأخذ الفاضـل عن المفضـول ، اذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمـه الآخـر »(١٧) .

أمـا الأمـر الثانى : فأنـا لا نخالفهم فى أن ما فعله الخضـر ما فعـله الا بوحى من الله ، ولكن مفهوم الوحى أوسـع وأعم من قصره على النبـوة ، ألا ترى الى قوله تعـالى « **وأوحى ربـك إلى النحـل أن اتخـذى من الجبـال بيـوتا** »(١٨) فان المعنى هنـا ـ كما هو واضح ـ الهمهـا ، والى قوله تعـالى « **وإذ أوحيت إلى الحـواريين أن آمنـوا بى وبرسـولى** »(١٩) فان المقصود به هنـا الأمر .

واستشهد القرطبى لهـذا المعنى فى هـذه الآية بقول العجاج :

*** وحى لهـا القـرار فاسـتقرت ***

أى أمـرها بالقرار فاستقرت ، وبقول أبى عبيـدة : أوحيت بمعنى أمـرت(٢٠) .

---

(١٧) الفتح القدير : ٢٩٩/٣ .
(١٨) النحـل : ٦٨ .
(١٩) المـائدة : ١١١ .
(٢٠) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) : ٣٦٣/٦ .

وأيضا فان الله تعالى يقول مخاطبا موسى : « **إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن أقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له** »(٢١) .

قال الفخر الرازى : عن أم موسى « فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحى الواصل الى الأنبياء ، وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة ، بل عند الشافعى رحمه الله ، لا تمكن من تزويج نفسها ، فكيف تصلح للنبوة ، ويدل عليه قوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** »(٢٢) ، وهذا صريح فى الباب وأيضا فالوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة ، قال تعالى « **وأوحى ربك إلى النحل** »(١٨) ، وقال : « **وإذ أوحيت إلى الحواريين** »(١٩) ، ثم ذكر الرازى أقوال العلماء فى كيفية هذا الوحى الى أم موسى ، التى منها أنها رؤيا رأتها ، ومنها أنه الهام وقع فى قلبها ، ترتب عليه عزيمة جازمة ، ومنها أن الله تعالى أخبرها ذلك عن طريق بعض الأنبياء فى زمانها ، ومنها أن الله تعالى لعله بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة ، كما بعث الى مريم فى قوله « **فتمثل لها بشرا سويا** »(٢٣) .

من هذا كله يظهر لنا بكل وضوح أن الوحى لا يقتصر معناه على النبوة ، وأن من أوحى الله تعالى اليه بشىء لا يترتب عليه أن يصير نبيا ، ومما يدل على ذلك أيضا ذلك الحديث الذى ينص على أن رجلا ذهب ليزور صديقا له فأرسل الله اليه ملكا على الطريق ليخبره بمحبة الله له ، لأنه لم يزر صديقه هذا الا من أجل محبته فى

---

(٢١) طه : ٣٨ ، ٣٩ .
(٢٢) يوسف ١٠٩ ، والنحل : ٤٣ .
(٢٣) تفسير الفخر الرازى : ٥١/٢٢ ، ٥٤ ، والآية من سورة مريم : ١٧

الله تعالى ، حيث يقول له الملك « فانى رسوول الله اليك ، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيك »(٢٤) فهل صار هذا الرجل نبيا لأن الله أوحى له ذلك عن طريق ملك من ملائكته ؟

وعلى ذلك فاننا نقول : ان ما فعله الخضر انما هو بوحى من الله، لبلوغ الخضر مرتبة عظيمة فى الدين ، حتى صار وليا صالحا ، والله يتولى الصالحين ، ولكن ذلك لا يستلزم نبوته ، قال الماوردي : « الخضر لم يكن نبيا ، لأن النبى هو الداعى ، والخضر كان مطلوبا، ولم يكن داعيا طالبا »(٢٥) .

ومما يدل على أن الخضر لم يكن نبيا : قوله هو لموسى « يا موسى انى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله ، علمك الله ، لا أعلمه » ، فلو كان نبيا لكان عنده ذلك العلم الذي عند موسى ، لأن العلم الذى عند موسى هو الذى يعطى للأنبياء ، أما الذى عند الخضر ، فلايشترط له النبوة ، بل يكتفى فيه بالولاية ، ولا يقال لماذا لم يعطه الله موسى ؟ نقول : قد يعطى المفضول شيئا لم يعط للفاضل ، وهذا واضح فى شأن رسولنا محمد ﷺ فلقد أعطى الله بعض الأنبياء بعض الخصائص التى لم يمنحها الله له ، ومع ذلك فهو سيدهم جميعا وامامهم ، لأن مجموع ما أغطيه أفضل وأعظم مما أعطوا جميعا .

وقد يقول البعض ان الخضر قد فعل أشياء عظيمة متعلقة بالآخرين حتى وصلت الى ازهاق نفس غلام ، ولا يفعل ذلك الا نبى فكيف تقولون انه ولى ؟ أقول يجاب على هذا بما ذكرناه آنفا عن أم موسى: حينما ألقت بموسى فى اليم بعد أن ولدته ، لقد كان موسى وليدا بعكس

---

(٢٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر ، باب فضل الحب فى الله.
(٢٥) تفسير الماوردي : ٤٩٥/٢ .

هذا الغلام ، فهل هذا يعنى نبوة أم موسى ، وقد قال تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** »(٢٦) ..

وقد يقول قائل اذا كنتم تدعون أن الخضر ليس نبيا ، وانما هو ولى ، فما قولكم فيمن يقتل أشخاصا ، ويرتكب ما خالف الشرع ، ويدعى أنه ولى كالخضر ، يوحى الله اليه كما أوحى اليه ، ويقذف فى قلبه ما كان يقذف فى قلبه ؟ .

نقول : ان من ارتكب أى شىء مخالف لشرع الله يؤاخذ به ، ولا يلتفت لدعوى الولاية ، أو القول بالالهام ، ونحو ذلك ، واذا كان الخضر قد فعل أشياء فى ظاهرها مخالفة للشرع فما كان ذلك الا بوحى ولحكمة .

ويغلب على الظن أن الخضر حينما كان يفعل مثل هذه الأفعال كان الله تعالى يعمى عنه الأعين ، فلا يبصره الناظرون ، كملائكة الله تعالى الموكلين ، بقبض روح المحتضر ، والذين يقول عنهم « **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** »(*) .

يقول الحافظ ابن حجر : وفى رواية أبى العالية : « فخرق السفينة ، فلم يره أحد الا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين ذلك »(٢٧) .

ويقول العلامة الآلوسى : « والظاهر أن أهل السفينة لم يروه ، لما باشر خرقها ، والا لما مكنوه ، وقد نص على ذلك القارى »(٢٨) .

---

(٢٦) يوسف : ١٠٩ والنحل : ٤٣ .

(*) الواقعة : ٨٥ .

(٢٧) فتح البارى : ٢٧٢/٨ .

(٢٨) روح المعاني : ٣٣٧/١٥ .

وعلى ذلك فان من يشاهد وهو يفعل فعـلا مخالفا لشرع الله تعالى، فانه يؤاخـذ به ، ويقام عليـه الحـد ، ولا يلتفت لمـا يدعيـه من الولاية أو الالهـام ، أو العلم اللدنى ، ونحـو ذلـك، وسيأتى فى العبر المستفادة من هـذه القصة زيادة توضيح لذلك ان شـاء الله تعـالى ٠

امـا كيف كان يعلم الخضر هـذا العلم اللدنى ، فذاك ما سنوضحه ان شـاء الله تعـالى ، عند تفسير قوله تعـالي **(وعلمناه من لدنا علما)** ٠

٣ ـ هـل الخضر حى الى الآن أو مـات ؟

وفى هـذا الموضوع يثير بعض العلمـاء قضية ، كثر فيهـا الكلام وطـال ، ولم ينتـه الى الآن ، ألا وهى حياة الخضر ، فلقد ذهب البعض الى أنه حى الى الآن لم يمـت ، وذهب المحققون ـ كالبخـارى ، وابن تيميـة ، وابن القيم ، وابن كثير ، وغـيرهم ـ الى أنه قد مـات ، واستدلوا على ذلك بأدلة متعـددة ، منهـا :

١ ـ أن اثـارة هـذه القضية بدعـة ، حيث لم يرد لها ذكر فى القرآن ، أو فى السنة الصحيحة ، رغم أن حيـاة الخضر لو كانت قائمـة لكانت من القضايا العجيبـة ، التى تستحق أن تذكر ، وقـد ذكـر سبحانه عز وجـل من استحياه ألف سـنة الا خمسين عاما ، وجعله آية ، فكيف لا يذكر عز وجل من استحياه أضعاف ذلك ٠

٢ ـ أن غاية ما يتمسك بـه فى حياته حكايات منقولة ، يخبر الرجـل بهـا أنه رأى الخضر ، فهـل للخضر عـلامة يعرفه بهـا من رآه ؟ وكثير من زاعمى رؤيتـه يغتر بقوله أنا الخضر ، ومعـلوم أنه لا يجـوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعـالى ، فمن أين للرائى أن المخبر له صـادق لا يكذب ؟ ٠

٣ ـ أن الخضر فارق موسى بن عمـران كليم الرحمن ولم يصـاحبه ، وقـال لـه (هـذا فراق بيني وبينك) فكيف يرضى لنفسه بمفارقة

مثـل موسى عليه السلام ، ثم يجتمع بجهلة العبـاد الخارجين عن الشريعـة الذين لا يحضرون جمعـة ولا جماعة ، ولا مجلس علم ، وكل منهم يقول : قال لى الخضر ، أوصـانى الخضر ، فيا عجبـا له ، يفـارق الكليم ، ويدور على صـحبة جاهل ، لا يصـحبه الا شـيطان رجيم ، سبحانك هـذا بهتان عظيم .

٤ - أن الأمـة أجمعت على أن الذى يقـول (أنـا الخضر) لو قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول كذا وكذا لم يلتفت اليـه ، ولم يحتج به فى الدين ، ولا مخلص للقائل بحيـاته عن ذلك الا أن يقول : انه لم يأت الى الرسـول عليـه الصلاة والسلام ، ولا بايعـه ، أو يقول انه لم يرسـل اليـه ، وفى هذا من الكفر ما فيـه (٢٩) .

٥ - أن الرسـول ﷺ قال فى آخـر حيـاته :

« أرأيتكم ليلتكم هـذه ، فان رأس مائة سـنة منهـا لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحـد » (٣٠) .

أمـا جواب من أثبت حيـاته بأنه كان حينئـذ على وجـه البحـر ، فهـذا ممـا لا يقنـع ، لأن رسـول الله ﷺ أراد جميـع البشر الموجـودين فى هـذه اللحظة ، سـواء أكانوا يعيشون فى الأرض ، أم فى البحـر ، والا فمـا ردهم لـو أنـه صـادف سـاعة قـول الرسـول ﷺ هـذا الحـديث وجود قوم يصطادون فى البحر ، أو مسافرين عليه ، فهل يكتب لهم الخلود الى يوم القيامة ؟

وبعضهم قال عن هـذا الحـديث ان الخضر مخصوص منـه ، كما خص ابليس بالاتفـاق ونرد عليهم بأنه قد ثبت بالأدلة خصوص ابليس منه ، فأين الأدلة التى تخص الخضر منـه ، انه لا يوجـد دليـل واحـد فى القـرآن أو فى السنة يخصـه من هذا الحديث .

---

(٢٩) انظر تفسير الآلوسى : ١٥/٣٢١ .
(٣٠) أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، باب السمر فى العلم .

٦ - ومن أدلة موت الخضر أيضا قوله تعالى (**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**) (الأنبياء) .

فهذا نص صريح فى عدم خلود من ولد قبل الرسول ﷺ .

٧ - لو كان الخضر حيا ما قصر فى الحضور الى النبى ﷺ ومبايعته واتباعه ، لما فى ذلك من الشرف الذى لا يدانيه شرف ، بل لما فى ذلك من الوجوب عليه ، ولكننا لم نعثر على حديث صحيح فى ذلك .

قال ابن حجر : « ولم يأت فى خبر صحيح أنه جاء الى النبى ﷺ ، ولا قاتل معه ، وقد قال يوم بدر « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض »(٣١) فلو كان الخضر موجودا لم يصح هذا النفى ، وقال ﷺ : « رحم الله موسى ، لوددنا لو كان صبر ، حتى يقص علينا من خبرهما »(٣٢) فلو كان الخضر موجودا لما حسن هذا التمنى ، ولأحضره بين يديه ، وأراه العجائب ، وكان أدعى لايمان الكفرة ، لاسيما أهل الكتاب »(٣٣) .

قال ابن تيمية : والصواب الذى عليه المحققون أنه ميت ، وأنه لم يدرك الاسلام ولو كان موجودا فى زمن النبى ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به ، ويجاهد معه ، كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ، ولكان يكون فى مكة والمدينة، ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم ، واعانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم ، ولم يكن مختفيا عن خير أمة أخرجت للناس ، وهو

---

(٣١) أخرجه مسلم فى كتا بالجهاد ، باب الامداد بالملائكة فى بدر
(٣٢) سبق تخريجه فى أول القصة .
(٣٣) فتح البارى : ٥٠١/٦ .

قد كان بين المشركين ، ولم يحتجب عنهم ، الى أن يقول : « واذا كان الخضر حيا دائما ، فكيف لم يذكر النبى ﷺ ذلك قط ، ولا أخبر به أمته ، ولا خلفاؤه الراشدون » .

وقول القائل : « انه نقيب الأولياء : فيقال له من ولاه النقابة ، وأفضل الأولياء أصحاب محمد ﷺ ، وليس فيهم ، وعامة ما يحكى فى هذا الباب من الحكايات بعضها كذب ، وبعضها مبنى على ظن رجل ، مثل شخص رأى رجلا ظن أنه الخضر ، وقال انه الخضر ، كما أن الرافضة ترى شخصا تظن أنه الامام المنتظر المعصوم ، أو تدعى ذلك ، وروى عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال - وقد ذكر له الخضر - من أحالك على غائب فما أنصفك وما ألقى هذا على ألسنة الناس الا الشيطان » (٣٤) .

وحول هذا المعنى يقول الحافظ ابن حجر : « وأخرج النقاش أخبارا كثيرة تدل على بقائه ، لا تقوم بشىء منها حجة ، قاله ابن عطية ، قال : ولو كان باقيا لكان له فى ابتداء الاسلام ظهور ، ولم يثبت شىء من ذلك » (٣٥) .

وبذلك نرى أن الخضر مات كما يموت أى بشر ، والقول بحياته الى الآن قول مبتدع ، لا أصل له فى قرآن أو سنة ، بل القرآن والسنة يبطلانه .

٤ - سبب التقاء موسى والخضر

يؤخذ من الحديث الذى سقناه بعد كتابة النص القرآنى لهذه

---

(٣٤) مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٠٠/٢٧ ، ١٠٢ ط الحرمين بحدائق القبة .

(٣٥) فتح البارى : ٥٠٠/٦ .

القصـــة أن سـبب ذلك اللقــاء هو أن موسى لـمـا قام خطيبـا فى بنى اسرائيل وأعجب الناس بوعظـه وعلمه ، وسأله أحـدهم من أعلم الناس؟ فقـال أنا ، ولم يرد العلم الى الله تعـالى عتب الله عليـه وأخبره أنه يوجـد فى الناس من هو أعلم منـه فى بعض العلوم ، فأراد موسى أن يشـاهده ويتعلم منـه هذا الذى خص به ، فدله الله عليـه ، فكان هـذا اللقـــاء .

٥ ـ متى كانت القصـــة ؟

وكانت هـذه القصة فى زمن التيـه قبل فتح ديار الجبارين ، أمـا مـا ذكره ابن جرير الطبرى وابن أبى حـاتم من طريق العوفى عن ابن عباس بأن ذلك كان فى مصر بعـد أن ظهـر موسى وقومه على مصر ، واستقرت بهم البلد فهو ضعيف .

فعطية العوفى هذا قد ضعفه كثير من أئمـة الجرح والتعديل(٣٦) ولذلك وعن هـذه الروايات يقول ابن عطيـة بقوله : « مـا يرى قـط أن موسى عليـه السـلام أنزل قومه بمصر الا فى هـذا الكلام ، ومـا أراه يصح ، بل المتظافـر أن موسى عليـه السلام توفى فى أرض التيـه قبـل فتح ديـار الجبـارين » ، وعلق الآلوسى على كلام ابن عطية هذا بقوله: « هو الأقـرب الى القبول عنـدى »(٣٧) .

٦ ـ مكان لقـاء موسى بالخضر (مجمـــع البحـرين)

ذكـرت الآيات والأحاديث أن مكان لقـاء موسى بالخضر كان عنـد مجمع البحـرين ، ولم تذكر النصوص أكثر من ذلك ، وعلى هـذا فقـد تعـددت أقوال المفسرين فى تحديد البحرين هذين ، فرأينـا بعضـهم

---

(٣٦) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى .
(٣٧) تفسير الآلوسي : ٣١٣/١٥ .

ينص على أنهما بحرا فارس والروم (أى البحر الأبيض المتوسط) ، ويحدد ابن عطية ذلك المكان بين هذين البحرين فيقول : « وهو ذراع يخرج من البحر المحيط ، من شمال الى جنوب، فى أرض فارس ، من وراء أذربيجان ، فالركن الذى لاجتماع البحرين مما يلى بر الشام هو مجتمع البحرين ، على هذا القول »(٣٨) ، كما رأينا بعضا آخر يقول ان مجمع البحرين عند طنجة ، يعنى فى أقصى بلاد المغرب العربى ، حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه ، وقيل نهر الأردن والقلزم ، وقيل عند مصب نهر الأردن فى بحيرة طبرية ، الى غير ذلك من الأقوال .

ويرجح السيد قطب عليه رحمة الله أن المراد بالبحرين هما البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وأن مجمع بينهما هو البحيرات المرة ، فى منطقة فايد ، وبحيرة التمساح بالقرب من الاسماعيلية ، أو فى مكان قريب من السويس ، يقول رحمه الله : « والأرجح ـ والله أعلم ـ أن البحرين بحر الروم وبحر القلزم ، أى البحر الأبيض والبحر الأحمر ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر ، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى اسرائيل بعد خروجهم من مصر »(٣٩) .

أما ما يذكره البعض من أن المراد بالبحرين موسى والخضر ، لأنهما بحران فى العلم فمن بدع التفاسير ، التى يضرب بها عرض الحائط ، وعن هذا القول يعلق الآلوسى بقوله « وهو تأويل صوفى ، والسياق ينبو عنه »(٤٠) وعلى أى حال ، فالقرآن والسنة لا يهتمان بمثل

---

(٣٨) البحر المحيط ١٤٤/٦ .
(٣٩) ظلال القرآن : ٢٢٧٨/٤ .
(٤٠) تفسير الآلوسي : ٣١٢/١٥ .

هذه الجزئيات التى لا فائدة من ذكرها ، بل السكوت عنها أولى من تضييع الوقت فيها ، ولذلك يقول الفخر الرازى رحمه الله : « وليس فى اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين ، فان صح بالخبر الصحيح شىء فذاك ، والا فالأولى السكوت عنه »(٤١) .

ويقول السيد قطب ـ رحمه الله ـ « ونعتقد أن لعرضها فى القرآن على النحو الذى عرضت به دون زيادة ، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء حكمة خاصة ، فنقف نحن عند النص القرآنى نتملاه »(٤٢)

٧ ـ مناسبة آيات القصة لما قبلها

بتدبرنا لآيات هذه القصة والآيات التى قبلها نستطيع أن نربط بينها بأكثر من وجه:

أولا : فبعد أن ذكر الله تعالى فى هذه السورة قصة أصحاب الكهف ، وأتبعها بمثل للرجلين ، شرع فى الحديث عن قصة ثالثة لها شديد اتصال بهاتين القصتين .

أما صلتها بقصة أصحاب الكهف فان مقصود اليهود من سؤال الرسول ﷺ عنهم هو اختبار نبوته ، فان كان عالما بشأنهم فهو نبى ، والا فهو كاذب متقول ، فجاءت هذه القصة لتبين لهم أن النبوة لا تستلزم الالمام التام بكل شىء ، والاحاطة الكاملة بما حدث ويحدث فى الوجود ، فها هو نبيكم موسى عليه السلام يذهب الى الخضر ليتعلم منه ، ويقول له : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ؟ فهل دل ذلك على أن موسى ليس بنبى ؟

أما صلة القصة بمثل الرجلين : والذى ضربه الله لكفار قريش ،

---

(٤١) تفسير الفخر الرازى : ١٤٥/٢١ .
(٤٢) ظلال القرآن : ٢٢٧٨/٤ .

الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، بكثرة الأموال والبنين ، وزينة الحياة الدنيا ، حتى يكون عبرة لهم ، فى أن التواضع عاقبته حميدة ، وأن التكبر والغرور لا يعقبه الا الحرمان والخسران ، أقول : صلة القصة بهذا المثل وطيدة ، حيث ان كلا منهما يدل على أن التواضع أفضل من التكبر ، فها هو موسى مع علمه الغزير ، وعلو شأنه ، ورفعة قدره عند ربه ، لما علم أن الخضر عنده علم ، ليس موجودا لديه ، ذهب اليه ، طالبا منه أن يعلمه مما علمه الله .

ثانيا : لما أرسل اليهود بهذه الأسئلة ، التى كانت سببا فى نزول السورة ، حيث سألوا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، وكان أمرهم عجبا ، وعن رجل طواف ، بلغ مشرق الأرض ومغربها ، وبسط سلطانه عليها ، ولما أنزل الله الرد على أسئلتهم ، حيث ذكر قصة أصحاب الكهف ، وأراد أن يذكر قصة ذلك الملك الذى سألوا عنه ، لما كان الأمر كذلك : أراد الله أن يلفت نظر اليهود الى ما هو أهم من قصة ذى القرنين ، ويوبخهم بطريق التعريض والتلميح ، وذلك بتقديم قصة موسى نبيهم مع الخضر ، عليهما السلام ، وكأنه يقول لهم ، ان الأولى بكم أن تحدثوا الناس عن السفر من أجل العلم ، لا عن السفر من أجل السلطان والملك ، وان كان ذلك الملك عادلا رحيما .

وكأنه يقول لهم أيضا : انكم ـ أمة اليهود ـ ما يشغل بالكم ، الا الملك والسلطان ، واستغلاله فى اذلال الشعوب ونشر الفساد ، فلذلك سألتم عن قصة ذلك الملك وسلطانه ، ولم تسألوا عن قصة تتعلق بالعلم والعلماء ، حتى لو كانت حاصلة لرسولكم .

ثالثا : ترتبط هذه القصة بقصة أصحاب الكهف فى تفويض الأمور الغيبية لله تعالى ، وذلك واضح فى قصة الفتية ، حيث يقول الله عنهم **(قل ربى أعلم بعدتهم)** ويقول **(قل الله أعلم بما لبثوا**

له غيب السموات والأرض) أما قصة موسى والخضر فكلها غيب فى غيب من أولها الى آخرها ، فقبل أن تحدث صحبة موسى للخضر يقول الله تعالى (**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**) وفى نهاية الرحلة ، وساعة الفراق يقول الخضر لموسى (**وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا**) .

يقول السيد قطب -عليه رحمة الله - « وهكذا ترتبط - فى سياق السورة - قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله ، الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل ، الذى يقصر عنه البشر ، الواقفون وراء الأستار لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار الا بمقدار »(٤٣) .

رابعا : لما ذكر الله تعالى طرفا من قصة آدم ، حيث أمر ملائكته بالسجود له ، فامتثلوا الا ابليس ، خانه تفكيره ، وغلب عليه طبعه - حيث كان من الجن - فأبى واستكبر وكان من الكافرين، ناسب أن يذكر الله قصة أخرى على النقيض من ذلك ، حيث تمثل قمة التواضع لأهل الفضل ، والعرفان بقدرهم وشأنهم ، وتحمل المشاق من أجل التشرف بالأخذ عنهم ، فكانت قصة موسى والخضر.

خامسا : مشاهد هذه القصة وآياتها تشارك الآيات السابقة - بل واللاحقة فى الأغراض العامة ، التى من أجلها أنزلت السورة ، والتى تدور على ثلاثة محاور أساسية ، تكلمنا عنها بالتفصيل فى مقدمة هذا الكتاب ، ألا وهى :

---

(٤٣) فى ظلال القرآن : ٤ /٢٢٨٢ .

١ ـ تصحيح العقيـدة . ٢ ـ تصحيح النظر والفكر .

٣ ـ تصحيح القيم والموازين .

ودونك آيات القصـة ، فاقرأها بتدبر وتأمـل ، وعلى سبيل المثال فمـا قتـل الخضر هـذا الغلام الذى قتله الا لأنه كان كافرا ، وخشى أن ينعكس كفـره على ايمـان أبويه ، فيرهقهما طغيانا وكفرا ، ومـا فعـل الخضر كل الذى فعـله الا لأن نظـره كان صائبا ، وفكره كان ثاقبـا ، لأنـه من عنـد من قال فى حقـه (**وعلمنـاه من لدنـا علمـا**) ، وفى نهـاية المطـاف يقول (**ومـا فعلتـه عن أمـرى**) أى ليس عن جهـل ولكنه عن علم تام ، واحاطة كاملة بأطراف كل موضـوع ، لمـا أوحـاه الله الى من حكمـة كل فعـل .

وسيتضح لك ـ أخى القـارىء ـ ان شـاء الله بعد التفسير التحليلى لهـذه القصـة واستخراج العبر منهـا ، مـا به يحصل لك عـلم اليقين ، من أن هـذه القصـة تشارك الآيات السابقة واللاحقة فى تلك الأغـراض التى ضمنها الله هـذه السورة ، لتكون هـدى ورحمة لقوم يؤمنون .

وبعـــــد

فلقـد وصلنا الآن الى تفسير آيات هذه القصـة ، فالى مشاهدها ـ المثيرة والعجيبـة ـ أستصحبك أخى القارىء ، راجيـا من الله عز وجل أن يصحبنى واياك فيهـا ، بتوفيقـه والانتفاع بعبرها ، وأن يجعلها لنـا هـدى ورحمة ، فانا به وبقرآنه مؤمنون .

التف

المشـــهد الأول

طلب العـــلم وتحمـل المشـــاق فى سـبيله

قال تعـالى: « وإذ قال موسى لفتـاه لا أبـرح حتى أبلغ مجمـع البحـرين أو أمضى حقبـا (٦٠) فلمـا بلغـا مجمـع بينهمـا نسـيا حوتهما فاتخـذ سبيله فى البحـر سربا (٦١) فلمـا جاوزا قـال لفتـاه آتنـا غـداءنا لقـد لقينـا من سـفرنا هـذا نصبا (٦٢) قال أرأيت إذ أوينـا إلى الصـخرة فإنى نسـيت الحـوت ومـا أنسـانيه إلا الشيطان أن أذكـره واتخـذ سـبيله فى البحـر عجبـا (٦٣) قال ذلك مـا كنـا نبـغ ، فارتـدا على آثارهمـا قصصـا (٦٤) فوجـدا عبـدا من عبـادنا آتينـاه رحمـة من عنـدنا وعلمنـاه من لدنا علما (٦٥) »•

معـانى المفردات وأسرار التراكيب

هـذا هو المشهد الأول من هـذه القصة والذى يبين لنـا ضرورة تحمل الصـعاب ، وتكلف المشاق فى سبيل العلم ، فبعـد أن أعـلم الله موسى عليـه السلام بأن هنـاك من هو أعلم منـه فى بعض العلوم ، ولم يذكر له مكانه بالتحديد ، وانمـا اكتفى سبحانه بجعل أمـارة تدل عليه ، ألا وهى فقـد الحوت ، الذى يأخـذه موسى فى سفره ، فحيثما فقـده فليعلم أن العبـد الصـالح فى هذا المكان ، بعـد أن أعلم الله موسى بذلك أجمع موسى عزمه ، وصمم على لقـاء هذا العـالم مهما كلفه من مشاق ، ولو امتد ذلك الى سنين طوال ، قال تعـالى (**وإذ قال موسى لفتـاه لا أبـرح حتى أبلغ مجمع البحـرين أو أمضى حقبـا**) •

وقوله تعالى (اذ) ظـرف لمـا مضى من الزمان وهو مفعول بـه لفعـل محذوف ، والتقدير : واذكر وقت أن قال موسى لفتـاه ، وليس المراد ذكر الوقت مجردا ، وانمـا ذكر ما وقع فيـه من موسي وفتـاه ،

وقد تقدم أن المراد من موسى هو رسول الله صاحب التوراة ، كما تقدم الحديث عن فتاه هذا ، فلا داعى للاعادة ، وانما سمى فتى لأنه كان يخدمه ويتبعه ، أو لأنه كان تلميذا له يأخذ عنه العلم ، والتليمذ يسمى فتى ، ولو كان شيخا .

وقوله (لا أبرح) اما من الفعل برح الناقص الذى هو من أخوات كان الذى يحتاج الى خبر ، والذى هو بمعنى زال ومضارعه يزال ، واما من برح التام ، الذى لا يحتاج الى خبر ، والذى بمعنى زال ومضارعه يزول ، فان كان من الناقص الذى يحتاج الى خبر فالتقدير: لاأبرح سائرا حتى أبلغ مجمع البحرين ، أى لا أزال سائرا ، وحذف الخبر لدلالة الحال والكلام اللاحق عليه ، أما الحال فهو حال سفر، أما الكلام اللاحق وهو (حتى أبلغ مجمع البحرين) فهو غاية تقتضى ما يؤدى اليها . .

وان كان من (برح) التام ، الذى لا يحتاج الى خبر ، فان المعنى : لا أترك ما أنا عليه من السفر وتحمل المشاق ، حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقوله (مجمع البحرين) أى المكان الذى يكون فيه كل من البحرين قريبا من الآخر ، أو ملتقاهما ، وقد تحدثنا عنه فى التمهيد لهذه القصة وذكرنا اختلاف العلماء فى تحديده كما ذكرنا أن الله تعالى أبهمه هنا لعدم وجود فائدة من ذكره .

يقال للموضع . مجمع - بفتح الميمين - ومجمع ، بفتح الميم الأولى وكسر الثانية ، مثل مطلع ومطلع .

والبحر : الماء الكثير ، ملحا كان أو عذبا ، وهو خلاف البر ، وشاهد العذب قول ابن مقبل :

ونحن منعنا البحر أن يشربوا به

وقد كان منكم ماؤه بمكان

وقد أجمع أهل اللغة على أن اليم هو البحر ، وقد قال تعالى (**فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم**) (*) أى فى نيل مصر العذب ، وسمى البحر بحرا لعمقه واتساعه وانشقاقه فى الأرض ، فالبحر فى اللغة هو الشق ، بفتح الشين ، ومنه قيل للناقة التى كانوا يشقون فى أذنها شقا ، ويتركونها لآلهتهم بحيرة ، قال تعالى : « **ما جعل الله من بحيرة ...** » (١) الآية .

ثم عبر موسى عليه السلام عن قوة عزيمته من أجل لقاء هذا العالم بقوله : (أو أمضى حقبا .) والحقب - بضم القاف وسكونها - مدة من الزمان ، حددها جمهور غفير من العلماء بأنها ثمانون سنة ، وبعضهم قال أكثر من ذلك ، وقيل الحقب السنة ، وقيل سبعون سنة ، وقيل وقت غير محدد ،وعلى أية حال فان موسى عليه السلام قصد من هذا القول أنه لن يهدأ له بال ، أو يقر له قرار الا اذا التقى بهذا العابد العالم ، مهما كلفه ذلك من مشقة ، ومهما طال به السفر ، أو امتد به الزمان .

وفى اعلان موسى عن عزيمته تلك ، ومخاطبته فتاه عنها شحذ لعزيمة ذلك الفتى أيضا ، حتى تتحد العزيمتان ، فلا يفكر ذلك الفتى فى الرجوع قبل عثورهما على المراد .

وبعد أن أعلن موسى عن عزيمته تلك ، وأخذ هو وفتاه فى السير ، سارا مدة يوم وليلة حتى أتيا صخرة - **يوجد ذلك**

(*) القصص : ٧ .

(١) المائدة : ١٠٣ ، وانظر لسان العرب (بحر) .

العبد الصالح قريبا منها - فوضعا رءوسهما وناما ، واضطرب الحوت أثناء مكثهما هنالك ، وعرف الفتى ما حدث من فقد الحوت ، الا أنه نسى أن يخبر موسى بذلك لما استيقظ ، واستمرا فى سيرهما ، حتى غشيهما التعب وآن وقت الغداء فطلب موسى من فتاه أن يؤتيه به ، فأخبره الفتى بما حدث ، وفى ذلك يقول تعالى **(فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما واتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ... الخ) .**

فالفاء فى قوله (فلما بلغا مجمع بينهما) فاء الفصيحة ، حيث توجد قبله جملة محذوفة ، والتقدير : فسارا يمشيان الى مجمع البحرين ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، والضمير فى قوله (بينهما) يعود على البحرين ، أى سار موسى وفتاه حتى تحقق له ما أراد ، وذهب بعضهم الى أن الضمير يعود على موسى والخضر ، أى فلما بلغا المكان الذى سيجتمع فيه موسى بالخضر ، لأن الخضر كان يسكن هذا المكان ، أو قريبا منه .

وقوله تعالى (نسيا حوتهما) ، النسيان ضد الذكر ، وقد مضى الحديث عنه فى قوله تعالى (واذكر ربك إذا نسيت) ، والحوت : السمك ، وهو معروف ، وقيل ما عظم منه ، والجمع حيتان ، وأحوات ، والمحاوتة المراوغة ، فلعله سمى بذلك لمراوغته وهو حى .

وظاهر الآية أن النسيان قد وقع لكل من موسى وفتاه ، وان كان نسيان أحدهما يختلف عن نسيان الآخر ، فنسيان موسى عبارة عن انشغاله عن تفقد حال الحوت ، هل هو موجود فى المكتل أو فقد حيث كان فقده أمارة لمكان الخضر ، ونسيان الفتي مراد به انشغاله عن اخبار موسي بفقد الحوت ، حيث أحس

الفتى باضطراب الحوت ، وسريان الحياة فيه ، وشاهده وهو ينزل فى البحر ، حيث اتخذ طريقا له فيه ، ولكنه لم يشأ ايقاظ موسى من نومه ، كراهة مضايقته ، وعزم على اخباره بذلك حينما يستيقظ ، ولكنه لما استيقظ نسى أن يخبره بذلك . كما جاء فى رواية البخارى : « إذ تضرب الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى اذا استيقظ نسى أن يخبره »(٢) .

وقد ذكرنا قول الحافظ ابن حجر فى ذلك ، أثناء ايتائنا بالقصة من السنة ، فليراجع الهامش هناك (فى صفحة ٢٨٤) .

وقوله (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) : الضمير يعود على الحوت ، والسبيل الطريق ، يذكر ويؤنث ، فمثال التذكير قوله تعالى : « **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا** »(٣) ، ومثال التانيث قوله تعالى (قل هذه سبيلى)(*) ، ويجمع جمع قلة على (أسبل) اذا أنث ، بفتح الأول وسكون الثانى وضم الثالث ، وعلى (أسبله) اذا ذكر ، بفتح الأول ، وسكون الثاني ، وكسر الثالث(٤) .

والسرب : يطلق فى اللغة على عدة معان ، فيطلق على القناة الجوفاء التى يسير فيها الماء الى البستان ، ويطلق على الحفير تحت الأرض ، ويطلق على الطريق ، فاذا نظرنا الى هذه المعانى اللغوية ، وضممنا اليها ماجاء فى حديث البخارى ومسلم والذى ذكرناه فى صدر هذه القصة ، حيث جاء فيه (**فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وامسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار**

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الكهف .
(٣) الأعراف : ١٤٦ .
(٤) أنظر لسان العرب : (سبل) .
(*) يوسف .

عليه مثل الطاق) اذا فعلنا ذلك وجدنا أن معنى الآية : أن الحوت لما طفر فى البحر شق له فى مائه طريقا ، وكان هذا الطريق له كالقناه الجوفاء للماء الذى يسير فيها الى البستان ، فسربا هنا يراد به الطريق المجوف ، الذى لا يستطيع الحوت أن يحيد عنه ، كما يؤخذ من طرق الحديث السابق فى نفس المصدر ، (فكان للحوت سربا ، ولموسى ولفتاه عجبا) وقد ذهب جمهور العلماء الى أن موضع سلوك الحوت فى البحر بقى فارغا ، لم ينطبق عليه الماء ، وقال قتادة : صار ماء جامدا .

وقيل فى ذلك أقوال أخرى ..

وعلى أى حال فيجب أن لا يخرج المعنى عما ورد فى الحديث فى أن الماء صار على الحوت كالطاق ، أى كالبناء المقوس ، وكأنه قنطرة .

وقوله (سربا) مفعول ثان لـ (اتخذ) ، وقوله (فى البحر) حال منه أو من السبيل ، ويجوز أن يكون متعلقا بـ (اتخذ) .

وما يرويه البعض فى كيفية وسبب حياة الحوت بعد أن كان ميتا حيث أصابه ماء عين كانت عند الصخرة ، يقال لها عين الحياة ، لأن ماءها لا يصيب ميتا الا حيى ، وغير ذلك فهو من الاسرائيليات التى تحدث بها الرواة ، الذين تأثروا بثقافة أهل الكتاب ، ولم يأخذوها عن الرسول ﷺ ، ولذلك فانها لا تقبل ، ولو أتت بسند صحيح .

ولما حان وقت الرحيل من عند الصخرة ، وأراد الله أن يتم لقاء موسى بالخضر ، رحل موسى وفتاه ثم سلط الله عليهما الجوع ، حتى يتذكرا الحوت الذى فقداه ، وكان فقده علامة تدلهما علي مكان الخضر ، وفي ذلك يقول تعالى : **(فلما**

جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ... الخ) .

وقوله (جاوزا) أى خلفا المكان الذى فيه مجمع البحرين، فالمفعول به محذوف للعلم به من سياق الكلام .

وقوله (آتنا غداءنا) أى أخرج لنا من مكتلك الذى معك طعام الغداء ، وهو الذى يؤكل أول النهار ، بخلاف العشاء ، وجمع غداء أغدية .

وقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) جملة تعليلية لطلب الغداء . أى أنه ما طلب الغداء الا من أجل هذا النصب الذى لحقهما فى سفرهما هذا . والسفر : خلاف الحضر ، وهو مشتق - كما قال ابن منظور - من انسفرت الابل ، اذا ذهبت فى الأرض، لما فى السفر من الذهاب والمجىء ، وقوم أسفار ، وسفار ، بضم السين وتشديد الفاء ، وسافرة ، وسفر ، بفتح السين ، وتسكين الفاء ، وقد يكون هذا الأخير للواحد أيضا ، وأسافر جمع الجمع والسفر بفتح فسكون جمع سافر ، والمسافرون جمع مسافر .

وقال الأزهرى : سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ماكان خافيا منهم(٥) .

والنصب : الاعياء والتعب ، واسم الاشارة (هذا) يعود على السفر الذى هما فيه ، ولكنه يعود على جزء منه فقط ، وهو ماكان بعد مفارقتهما للصخرة التى أويا اليها ، أما قبل

---

(٥) لسان العرب (سفر) .

ذلك فلم يلحقهما تعب ، ولم يصابا باعياء ، والدليل على ذلك ماجاء فى صحيح البخارى فى تفسير سورة الكهف : « ولم **يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذى أمر الله به ..** » .

ثم ذكر الله ردالفتى على موسى لما طلب منه احضار الطعام ، **فقال : (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ... الآية)** .

والرؤية فى قوله (أرأيت) يراد بها المشاهدة التامة ، والمعرفة الكاملة ، والاستفهام هنا للتعجيب ، أراد الفتى أن يعجب موسى عليه السلام مما اعتراه من نسيان ما حدث للحوت ، حيث عادت له الحياة ، وقفز فى البحر ، وذلك من الأمور الغريبة التى تعلق بالذهن ، ولا تنسى ، لاسيما وأن موسى نبهه مقدما على أنه سيفقد الحوت فعليه أن يذكر له ذلك وقت حدوثه ، ورغم ذلك فقد نسى ، ولذلك فقد عجبه من نسيانه ذكر ذلك له ، وهذا أسلوب شائع فى كلام الناس ، يقول الرجل لصاحبه اذاحدث له أمر جلل : أرأيت ما وقع بى ؟ يريد تهويل ما نابه وأصابه ، وتعجيب صاحبه من ذاك الخطب ، حيث لم يعهد وقوع ذلك ، لا أن يستخبره عما حل به . وحذف مفعول (أرأيت) لدلالة قوله تعالى (فإنى نسيت الحوت) عليه ، والتقدير أرأيت ما دهانى ؟

وقوله (إذ أوينا إلى الصخرة) أى وقت أن لجأنا الى الصخرة وأقمنا عندها ، والصخرة بسكون الخاء وفتحها : الحجر العظيم الصلب ، وتجمع على صخر ، وصخر ، بفتح الصاد وسكون الخاء وفتحها ، وصخور ، وصخورة ، بضم الصاد والخاء منهما ، وصخرة : بكسر الصاد وفتح الخاء ، وصخرآت ، بفتحهما .

وانما ذكر الفتى الاواء الى الصخرة ، لا الى مجمع البحرين ؛ مع أنه قد تقدم ذكره مرتين :

١ - للتحديد الدقيق للمكان الذى فقد فيه الحوت ، أما مجمع البحرين فهو موضع متسع ، فذكره لا يعين على الوصول للمراد بسرعة ، كذكر الصخرة ٠

٢ - وأيضا فان الفتى أراد أن يمهد لعذره ، فى عدم تذكير موسى بفقد الحوت ، حيث ان اللجوء الى الصخرة ، والنوم عندها من الأسباب التى قد تساعد على النسيان ٠

وقوله (فإنى نسيت الحوت) فيه تأكيد لتعجيب موسى مما دهى الفتى ٠ والمراد بنسيان الحوت ليس نسيان ذاته ، ولكن نسيان ذكر ما حدث له لموسى ٠

وكان مقتضى رد الفتى على طلب موسى الغداء أن يقول له : فانى نسيته بالضمير ولكنه عدل عن ذلك الى قوله فانى نسيت الحوت بالاسم الظاهر : لأن ما ذكره فيه حصول للجواب مع زيادة ، ألا وهى ادخال السرور على موسى عليه السلام ، فلقد قال له فى بداية الرحلة « لا أكلفك الا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، فقال : ما كلفت كثيرا ٠ »(٦) ٠

ثم بين فتى موسى سبب هذا النسيان بقوله (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) ، والشيطان معروف ، وكل انسان - كما جاء فى الحديث - له قرين من الجن ، يوسوس له ، بما يصرفه عن ذكر الله ، وبما يوقعه فى معصية مولاه ، وكل عات متمرد ، من الجن والانس والدواب يقال له شيطان ، قال تعالى :

---

(٦) البخارى ، تفسير سورة الكهف ٠

« شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا »(٧) ٠

والشيطان : ان كانت نونه أصلية فهو على وزن فيعال ، من الشطن ، بفتح الشين ، وتسكين الطاء ، بمعنى البعد ، لبعده عن رحمة الله تعالى ، وعن الخير ، وان كانت النون زائدة فهو على وزن فعلان ، من شاط يشيط ، اذا هلك واحترق ، أو من استشاط غضبا اذا احتد فى غضبه ٠

قال ابن منظور : « فان جعلته فيعالا من قولهم تشيطن الرجل صرفته ، وان جعلته من شيط - بفتح الشين وضم الياء لم تصرفه ، لأنه فعلان ٠ »(٨) ٠

وقال عمر النسفى : « وفى اشتقاقه عشرة أقاويل : أحدها أنه من الشطون وهو البعد ، ومعناه المبعد من الرحمة ، والثانى أنه من قولهم شاط يشيط أى هلك ، ومعناه الهالك فى الدارين ، والثالث أنه من قولهم شيط الشىء ، أى أحرقه ، واستشاط غضبا أى احترق ، ومعناه المحرق فى الدنيا بنار الفرقة ، وغدا بنار الحرقة والعقوبة ، والرابع أنه من قولهم فرس شطون أى جموح رموح ، ومعناه العصى الأبى ، والخامس أنه من الشطن ، وهو الحبل الطويل المديد ، ومعناه المتمادى فى الطغيان ، الممتد الى العصيان ، والسادس أنه من قولهم فرس شيطان ، أى مرح نشيط ، فمعناه المتكبر المترفع ، والسابع أن الشيطان هو العاتى المتمرد من كل جنس ، والثامن أنه من قولهم شيط اللحم ، أى دخنه ، ولم ينضجه ، ومعناه أنه مفسد كل شىء ،

---

(٧) الأنعام : ١١٢ ٠
(٨) لسان العرب :شيط ٠

ومابـه صلاح أى شىء ، والتاسع أنـه من قولهم فـرس مشياط أى ممتلىء سمنا ، ومعناه أنه ممتلىء خبثا ونكرا ، وشررا ومكرا ، والعاشر أنه من قولهم شاط أى بطل ، ومعناه أنه الباطل عمله ، الخائب أمله . »(٩) .

وقوله (أن أذكره) فى تأويل مصدر ، بدل اشتمال من المفعول الثانى فى (أنسانيه) والتقدير : وما أنسانى ذكره لك الا الشيطان .

وقد يقول قائل ان عودة الحياة للحوت ، وقفزه فى البحر من الأحوال التى لا تنسى ، فكيف أنساه الشيطان ذلك ؟ والجواب :

١ - أن ذلك مما سبق به قلم القدر ، حيث تمكن الشيطان من شغل الفتى بأمور أخرى ، كالتفكر فى أمر أهله وبلده ، وغير ذلك .

٢ - أو أن ذلك النسيان كان تأديبا للفتى ، حيث قال له موسى : لا أكلفك الا أن تخبرنى حيث يفارقك الحوت ، فاستسهل الفتى الأمر ، ولم يقل ان شاء الله ، ولكنه قال : ما كلفت كثيرا .

٣ - أو أن ذلك النسيان كان عتابا لموسى عليه السلام ، حيث اعتمد عليه اعتمادا كليا فى العلم بفقد الحوت ، فلم يدر بذلك ، الى أن أصابه التعب وحل به الرهق .

وفى اسناد النسيان الى الشيطان حسن أدب ، لأنه السبب فيه حيث شغله بالوساوس ، والفكر فى أمور أخرى ، وان كان

---

(٩) التيسير فى علم التفسير ، لعمر النسفى ، من تحقيقنا : ١/٦٦ .

المؤثر الحقيقى فى ذلك النسيان هو الله تعالى حيث اقتضت حكمته ذلك .

وقوله (واتخذ سبيله فى البحر عجبا ،) من تتمة كلام الفتى عن الحوت ، وما ذكر قبل هذه الجملة من قوله : (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه قدم على المعطوف للاعتناء بالاعتذار ، والتقدير فانى نسيت الحوت واتخذ سبيله فى البحر عجبا .

والفعل (اتخذ) يحتاج الى مفعولين ، أولهما (سبيل) والثانى (عجبا) أي واتخذ سبيله سبيلا عجبا ، وقوله (فى البحر ،) حال من المفعول الأول ، أو الثانى ، ويجوز أن يكون هو المفعول الثانى ، وحينئذ يكون (عجبا) صفة لمصدر محذوف ، والتقدير اتخاذا عجبا ، حيث كان مسلكه الذى سار فيه كالقنطرة عليه ، وهو ما ذكر أولا بقوله (سربا) أو يكون حينئذ أيضا مفعولا مطلقا لفعل محذوف ، والتقدير أعجب منه عجبا .

وقال بعضهم أن جملة (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) من كلام الله عن الحوت ، وذهب آخرون الى أن كلام الفتى قد تم عند قوله (واتخذ سبيله فى البحر) ، ثم قال موسى (عجبا ،) ولكن ما ذكرناه أولا من أن هذه الجملة من كلام الفتى هو الراجح لدلالة سياق الآيات عليه ، حيث حكى الله عن موسى بعد ذلك مباشرة (قال ذلك ماكنا نبغ) .

قال الآلوسى : « وفى ذكر السبيل ، ثم اضافته الى ضمير الحوت ، ثم جعل الظرف حالا من المضاف : تنبيه اجمالي على أن المفعول الثاني من جنس الأمور الغريبة وفيه تشويق للمفعول

الثانى ، وتكرر مفيد للتأكيد المناسب للمقام ، فهذا التركيب فى افادة المراد أوفى لحق البلاغة ، من أن يقال : واتخذ فى البحر سبيلا عجبا »(١٠) ٠

ثمذكر الله تعالى ماقال موسى عندما سمع هذا الكلام من فتاه فقال : (قال ذلك ماكنا نبغ ،) أى قال موسى : ان هذا الذى حدث من فقد الحوت واتخاذه فى البحر سبيلا عجبا هو ما كنا ننتظره ، حيث جعل الله فقده علامة على وجود العبد الصالح فى المكان الذى يفقد فيه ، فـ (ما) موصولة ، والعائد محذوف ، والتقدير نبغيه ، وقوله (نبغ ،) معناه نطلب ، من بغى الشىء يبغيه بغاء ، وبغى ، وبغاية ، بضم الباء وفتح الغين فى كل ذلك بمعنى طلبه طلبا ، سواء أكان فى الخير أم فى الشر ، والاسم : البغية ، والبغية ، بتسكين الغين فيهما ، وضم الباء وكسرها ، أى الحاجة المبغية ، وجعلهما ثعلب أحد أئمة اللغة مصدرين للفعل بغى ٠

وقوله (نبغ) أصله نبغى بالياء ، قال أبو حيان « وهى قراءة أبى عمرو والكسائى ونافع - فى الوصل - أما الوقف فالأكثر فيه طرح الياء ، اتباعا لرسم المصحف ، وأثبتها فى الحالين ابن كثير ٠ »(١١) ٠

وعن حذف هذه الياء يقول الفخر الرازى : « حذفت الياء طلبا للتخفيف ، لدلالة الكسرة عليه ، وكان القياس أن لا يحذف ، لأنهم انما حذفوا الياء فى الأسماء ، وهذا فعل ، الا أنه قد

---

(١٠) تفسير الألوسى : ٣١٨/١٥ ٠
(١١) البحر المحيط : ١٤٦/٦ ٠

يجوز ـ على ضعف القياس ـ حذفها ، لأنها تحذف مع الساكن الذى يكون بعدها ، كقولك ما نبغى اليوم ، فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضا مع غير الساكن »(١٢) ٠

وبمجرد أن أخبر الفتى موسى بفقد الحوت اذا به يأخذ فتاه وعلى جناح السرعة يطيران الى حيث كانا ، قال تعالى : « **فارتدا على آثارهما قصصا** » ٠٠

فالارتداد : الرجوع ، ومنه المرتد ، والآثار جمع أثر ، وهو ما بقى من رسم الشئ ، ويطلق على بقية الشئ أيضا ، ويجمع على أثور أيضا ، بضم الهمزة ، والقصص مصدر قص الأثر يقصه قصا وقصصا ، أى تتبعه ، وعلى ذلك يكون معنى قوله (فارتدا على آثارهما قصصا) أى فرجعا من الطريق الذى سلكاه يقصان أى يتتبعان أثر أقدامهما فى ذلك الطريق حتى يصلا الى هذه الصخرة التى فقد عندها الحوت ٠

وقوله (قصصا) مفعول مطلق لفعل محذوف ، والتقدير يقصان قصصا ، أو للفعل (فارتدا) ، لأن معناه فاقتصا على آثارهما ، ويجوز أن يكون حالا مؤولا بالوصف ، أى مقتصين ٠

وحينما وصلا الى مكان الصخرة ، وتتبعا طريق الحوت فى البحر اذا بهما يجدان العبد الصالح ، قال تعالى : « **فوجدا عبداً من عبادنا ٠٠٠ الآية** » ٠٠

والعبد فى اللغة : الانسان ، حرا كان أو رقيقا ، والعبودية فى الأصل الخضوع والطاعة والتذلل ، فالانسان سمى عبدا لأنه مربوب لله عز وجل ٠

---

(١٢) مفاتيح الغيب : ١٤٧/٢١ ٠

فالله تعالى هو رب العباد جميعا ، يملكهم ويتولى أمورهم البدنية والروحية ، والعبد المملوك خلاف الحر ، والأنثى عبدة ، وجمع عبد : عباد ، وعبيد ، وأعبد ، وعبد ، بضم الأول والثانى ، وعبدان - بكسر العين وضمها ، وتسكين الباء ، وعبدان ، بكسر العين والباء وتشديدها ، ويجمع أعبد على أعابد ، فهو جمع الجمع .

قال الأزهرى : « اجتمع العامة على تفرقة مابين عباد الله والمماليك ، فقالوا هذا عبد من عباد الله ، وهؤلاء عبيد مماليك ، قال : ولا يقال عبد يعبد عبادة الا لمن يعبد الله ، ومن عبد دونه الها فهو من الخاسرين ، قال : وأما عبد خدم مولاه فلا يقال عبده ، قال الليث : ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت »(١٣) ، والاسم العبودة والعبودية .

وهذا العبد هو الخضر ، كما وضحته الأحاديث ، ولم يذكر باسمه صريحا وانما ذكر بصفة العبودية للتنصيص على علو مقامه عند ربه ، ورفعة شأنه ، وسمو منزلته فى الدين ، ذلك أن الوصف بالعبودية من أعظم الصفات التى يوصف بها انسان، ولذلك وجدنا القرآن فى أكثر من موضع يتحدث عن سيد الأولين والآخرين بهذه الصفة « **سبحان الذى أسرى بعبده** »(١٤) « **فأوحى إلى عبده ما أوحى** »(١٥) فاذا أضفنا الى ذلك التفخيم المستفاد من التنكير فى قوله (عبدا) ، والتشريف المستفاد من الاضافة الى ضمير التعظيم فى قوله : (من عبادنا) علمنا مكانة

---

(١٣) لسان العرب (عبد) .
(١٤) الاسراء : ١ .
(١٥) النجم : ١٠ .

الخضـــر عنـد ربـه ، وسـمو قـدره فى طـاعة مـولاه ، والتـذلل والخضـوع لله الواحـد القهـار ، المـلك الديان .

ثم ذكـر الله تعـالى بعـض صـفات هـذا العبـد الصـالح ، والتى أنعـم الله بهـا عليـه فقـال « **آتينـاه رحمـة من عندنا وعلمنـاه من لدنـا علمـاً** » .

وقـد فسـر البعض الرحمـة هنـا بالنبـوة ، وهـذا يعنى القـول بنبـوة الخضـر ، وقـد وضحنا بالأدلة المتعـددة عدم نبوته ، وأنه ولى وليس بنبى ، والرحمـة وان استعملت أحيـانا فى القـرآن بمعنى النبوة فى جـانب الرسـول ﷺ ، الا أنهـا فى اللغـة أشـمل وأعـم من قصرها على النبـوة ، وعلى ذلك ، فـلا موجب لقصرها هنـا على النبـوة ، بـل يـراد بهـا الرزق الحـلال ، وعـدم الاحتيـاج الى النـاس ، والاحسـان اليـه ، وامـداده بكل ما يحتـاج اليـه فى دينـه ودنيـاه .

والعـلم الذى خصه الله بـه هـو العـلم ببواطن الأمـور ، والاطلاع على الحـكم الخفيـة .

والتنوين فى (رحمـة) وفى (علمـا) للتعظيم والتفخيـم ، فقـد أعطـاه الله رحمـة عظيمـة ، وعلمـه علمـا لا يقف على عظمته مخـلوق ، ولا يقـدر قـدره الا الخـالق الكريم عـز وجـل ، فهى رحمة خاصـة ، ولـذا وصفها بقـوله (من عندنا) وهـو عـلم خـاص ، حيث أسـنده الله عـز وجـل الى نفسـه بقـوله (علمنـاه) وبقـوله (من لدنـا) .

و (لـدن) فى لغـة العـرب : ظـرف زمـانى ومكانى ، بمعنى عنـد ، الا أنـه أقـرب مكانا من (عنـد) ، وأخـص منـه ، فـان (عنـد) تقـع على المكان وغيـره ، تقـول : لى عنـد فـلان مـال ، أى فى ذمتـه ، ولا يقـال ذلك فى (لـدن) (١٦) .

---

(١٦) أنظر لسان العـرب (لادن) .

و (من) فى (من عندنا) و (من لدنا) ابتدائية ، تفيد التشريف ، أى آتيناه رحمة ، وعلمناه علما صادرين من مكان القرب والشرف الالهى ، فلا تعطى تلك الرحمة ، ولا يمنح ذلك العلم الا للمصطفين الأخيار .

فاذا أضفنا الى ذلك ما نلاحظه فى التعبير القرآنى فى جانب العلم من اختيار (علمناه) بدلا من آتيناه ، و (من لدنا) بدلا من عندنا ، ومن تقديم (من لدنا) على (علما) أدركنا عظمة هذا العلم ، وعلمنا شديد اختصاصه به تعالى ، بحيث لا يقف على عظمته الا اللطيف الخبير ، ولا يمنحه الا الكريم الوهاب ، فكأنه قيل : علمناه علما عظيم القدر ، جليل النفع ، يختص بنا ، لا بغيرنا ، فلا يمكن تحصيل شئ منه الا بعظيم توفيقنا ، وكريم فضلنا .

وحول هذا المعنى يقول الآلوسى عن سبب التعبير بـ (لدنا) بدلا من عندنا « قيل لأن العلم من أخص صفاته الذاتية ، وقد قالوا : ان القدرة لا تتعلق بشىء ، مالم تتعلق الارادة ، وهى لا تتعلق مالم يتعلق العلم ، فالشىء يعلم أولا ، فيراد ، فيتعلق به القدرة فيوجد . »(١٧) .

وهنا يبرز تساؤل فى غاية الأهمية ، ألا وهو : كيف علم الله الخضر هذا العلم اللدنى ؟

ونجيب على ذلك قائلين :

لا مانع من أن يرسل الله اليه ملكا ، فيكلمه ، ويسمع منه

---

(١٧) روح المعاني : ١٥/٣٣٠ .

ما يراد تعليمه ، أو يقذف هذا الملك فى قلبه هذا العلم ، من غير أن يسمع كلاما ، بحيث يحصل - مع هذا القذف - الجزم التام بأن هذا العلم من عند الله ، لا من عند غيره .

وفى ذلك يقول الآلوسى : « وهذا التعليم يحتمل أن يكون بواسطة الوحى المسموع ، بلسان الملك ، وأن يكون بواسطة الوحى الحاصل ، باشارة الملك ، من غير بيان بالكلام ، ويسمى بالنفث ، والالهام - على بعض ما تشير اليه عبارات القوم - من هذا النوع . »(١٧) .

وعلى أى حال فان هذا التعليم بطريق الوحى لا يستلزم نبوة من يوحى اليه بذلك العلم .

قال الفخر الرازى : « احتج الأصم على نبوته بقوله فى أثناء القصة (وما فعلته عن أمرى) ، ومعناه : فعلته بوحى الله ، وهذا يدل على النبوة ، وهذا أيضا دليل ضعيف ، وضعفه ظاهر »(١٨) .

وقد عالجنا هذه النقطة فى التمهيد لهذه القصة ، بما يغنى عن اعادة التدليل مرة أخرى ، على أن وحى الله لانسان عن طريق ملك أو غيره لا يستلزم النبوة ، فليرجع اليه من يشاء .

المعنى العام لآيات المشهد الأول

من الآية (٦٠) الى الآية (٦٥)

هذه هى القصة الثالثة فى هذه السورة ، والتى تحكى لنا

---

(١٧) روح المعانى : ١٥/٣٣٠ .
(١٨) مفاتيح الغيب : ٢١/١٤٩ .

حلقة من سيرة موسى عليه السلام ، هذه الحلقة لا توجد فى موضع آخر من القرآن الكريم ، حيث تمثل لنا رحلة من رحلات موسى فى حياته ، ذلك الرسول المعدود فى عداد أولى العزم من الرسل ، فبعد أن كان يظن أنه أعلم من الأرض فى كل العلوم ، بين الله خطأ ظنه ، وقال له بل ان لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك فى نوع من العلوم ، فطلب الى الله أن يجعل له علامة يعرف بها مكانه ، فأمره أن يأخذ حوتا ميتا مملوحا ، وحيثما فقده فذلك موضع العبد الصالح .

وبمجرد أن قال له ربه ذلك اذا به - وهو من أولى العزم - يشمر عن ساعدى الجد ، ويجمع عزيمته ، ويستنهض كل همته من أجل لقاء هذا العبد ، ليتعلم على يديه مما علمه الله ، حيث يعلن أنه لن يهدأ له بال ، أو يقر له قرار ، أو يتوقف عن السفر ، حتى يلقاه مهما كلفه من مشقة ، أو لحق به من رهق ، أو غشيه من تعب ونصب ، ولو امتد به ذلك سنوات طوالا ، أو قرونا عجافا ، وهو باعلانه هذه العزيمة أمام فتاه انما يريد شحذ عزيمته أيضا ، حتى تتحد العزيمتان ، وكأن القلبين قلب واحد فى الصاحبين .

ويأخذ موسى فتاه فى السفر طلبا للعلم ، يسيران ويسيران ، حتى اذا طال بهما السفر وأرادا أن يناما اذا بهما يلمحان صخرة عظيمة ، فيستريحان عندها ، وينام موسى بمجرد وضع رأسه على تلك الصخرة ، واذا بالحوت المملوح تدب فيه الحياة فجأة ، وحاول الفتى امساكه ، ولكنه عبثا لا يستطيع ، انه قد قفز فى البحر ، ولا يملك الفتى الا مشاهدته فى حسرة وذهول ، حوت ميت مملوح تدب فيه الحياة ويقفز فى البحر ! ان هذا لشىء عجاب ، ويزداد الأمر عجبا حينما يشاهد هذا الحوت وقد صار الماء عليه كالقنطرة وأصبح طريقه الذى يعوم فيه قناة

مجوفة ، لا يستطيع الخروج منها ، كل ذلك والفتى فى دهشة وذهول ، أأوقظ موسى لأخبره وليشاهد معى العجب ، لا داعى الآن ، دعه ولا تزعجه ، فاذا قام من نومه أخبرته ، هكذا قال الفتى لنفسه ، ولكن عندما قام موسى من نومه نسى أن يخبره بفقد الحوت ، وهو الذى وصاه بذلك ، لأن فى فقده أمارة الوصول الى المطلوب ونسى موسى أن يسأله عنه ، واذا برحلة العلم تتحرك ، وبقافلة طلب المعرفة والنور تسير ، ولكن السير لم يطل ، لقد سلط الله عليهما النصب والرهق ، انهما فى حاجة الى استراحة ، وتناول لطعام الغداء ، ويطلب موسى من فتاه الغداء ، واذا بالفتى يتذكر ما دهاه هناك عند الصخرة ، حينما فقد الحوت ، ونسى أن يخبر موسى بفقده ، انه يخاطب موسى وهو فى غاية العجب ، أرأيت يانبى الله ما دهانى عند الصخرة التى كنا عندها ، ونمنا عليها ، لقد فقدت الحوت هناك حيث عادت اليه الحياة وقفز فى البحر متخذا له طريقا هو غاية الغرابة والعجب ، حيث أطبق الماء عليه ، وصار له كالطاق ، ونسيت أن أذكر لك هذا ، وما تسبب فى هذا النسيان الا الشيطان الرجيم ، حيث شغلنى بوسوسته فى التفكر فى مفارقة الأهل والوطن ، واذا بموسى تظهر عليه علامات الفرح والسرور ، انه قاب قوسين أو أدنى من مطلوبه ، فقال فرحا مستبشرا : ذلك ما كنا نطلبه وما سفرنا وتعبنا الا من أجل هذا ، وعلى الفور اذا بهما يرجعان من حيث أتيا من عند الصخرة ، يتتبعان أثر أقدامهما ، أثرا تلو أثر ، حتى لا يضلا الطريق ، وتفوت عليهم هذه الفرصة التى لو فاتت فربما لا تتكرر ، واذا بهما يصلان الى مكان الصخرة وعلى قرب منها وفى البحر إذا بهما يلمحان هذا العبد الصالح فيتقدم منه موسى

عليه السلام ، بكل أحترام وتواضع ، ويلقى عليه السلام ، ويخبره بانه نبى بنى اسرائيل ، ثم يدور حوار بين موسى عليه السلام ، وبين هذا العبد الذى أكرمه الله تعالى ، حيث خصه برحمة عظيمة ، وبعلم عظيم لا يعلم عظمته الا الله ، ولا يمن به الا الكريم الوهاب ، ذو الطول والاحسان ، أما ماذا دار فى هذا الحوار ؟ فذاك ما تجيب عليه آيات المشهد الثانى ، الذى سنتعرض له بالتفصيل انشاء الله بعد بيان :

العبر المستفادة من المشهد الأول

من الآية (٦٠) الى الآية (٦٥)

يعطينا هذا المشهد من قصة موسى مع الخضر ، عدة دلالات وعبر ، نختار منها مايلى :

أولا : تهدف هذه القصة ـ فيما تهدف اليه ـ الى بيان فضل العلم ، ذلك أن :

١ ـ العلم هو الفارق بين الانسان والحيوان ، ولذلك قال تعالى : فيمن لم ينتفع بقلبه أو عينيه ، أو سمعه « **أولئك كالأنعام بل هم أضل** »(١٩) ، وأثر عن الحسن البصرى أنه قال : (لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم) .

٢ ـ وبالعلم استحق آدم أن يسجد له الملائكة كلهم أجمعون .

٣ ـ وبالعلم يدرك الانسان عواقب الأمور ، فيقى نفسه من المحظور ، قال تعالى : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** »(٢٠)

---

(١٩) الأعراف آية : ١٧٩ .
(٢٠) فاطر آية : ٢٨ .

٤ - وبالعلم ينشغل الانسان بعظائم الأمور ، قال معاذ بن جبل رضى الله عنه : « تعلموا العلم ، فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة »(٢١) .

٥ - وبالعلم ينال الانسان أرفع الدرجات ، قال تعالى : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** »(٢٢) .

٦ - وبالعلم لا تنقطع حسنات العالم ، حتى لو مات ، فأثر علمه لا يتوقف على شخصه ، ولا على حياته ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاثة : الا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(٢٣) .
وقال أيضا : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا »(٢٤) .

٧ - وبالعلم تسود الأمم ، وتعز ، وتمتلك زمام أمورها ، وأمور غيرها .

ولذلك : فحينما اقتضت حكمة الله تعالى ، أن يجعل أمة الاسلام خير أمة فى الوجود ، وكلفها بأن تتبوأ فى الحياة مكان الريادة ، والزعامة وامتلاك ناصية الكون ، جعل أول أمر لها فى قرآنه ، بل أول لفظ فى هذا القرآن ، هو الأمر بالقراءة ، حيث قال :

---

(٢١) مختصر منهاج القاصدين : ٧ .
(٢٢) المجادلة آية : ١١ .
(٢٣) أخرجه مسلم فى كتاب العلم ، باب : (١٤) .
(٢٤) أخرجه مسلم فى كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة .. الخ .

« اقـرأ باسم ربك الذى خلـق »(*) ، ثم جـاء بعد ذلك بالقسم بالقلم والكتابة حيث قال تعـالى : « ن • والقـلم وما يسطـرون »(**) •

يقول السيد قطب عليه رحمة الله تعـالى :

« والعـلاقة واضحـة بين الحـرف (ن) بوصفه أحـد حـروف الأيجدية ، وبين القـلم ، والكتابة ، فأما القسم بهـا فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيـه اليهـا ، فى وسط الأمـة التى لم تكن تتجـه الى القـلم عن هـذا الطريق ، وكانت الكتابة فيهـا متخلفة ونادرة ، فى الوقت الذى كان دورها المقـدر لهـا فى علم الله يتطلب نمو هـذه المقـدرة فيهـا ، وانتشارها بينهـا ، لتقوم بنقـل هـذه العقيدة ، وما يقوم عليهـا من مناهج الحيـاة الى أرجاء الأرض ، ثم لتنهض بقيـادة البشـرية قيـادة رشيدة ، وما من شك أن الكتابة عنصـر أساسى فى القيـام بهذه المهمـة الكبـرى •

ومما يؤكد هـذا المفهـوم أن يبدأ الوحى بقوله تعـالى : « اقـرأ باسم ربـك الذى خلق ، خلق الانسـان من علـق ، اقـرأ وربك الأكـرم ، الذى عـلم بالقـلم ، عـلم الانسـان ما لم يعـلم) • وأن يكون هـذا الخطاب موجهـا للنبى الأمى - الذى قـدر الله أن يكون أميـا لحـكمة معينـة - ولكنه بدأ الوحى اليـه منـوها بالقـراءة والتعليم بالقـلم ، ثم أكد هـذه اللفتة هنا بالقسم بنون والقـلم وما يسطرون ، وكان هـذا حلقـة من المنهج الالهى ، لتربية هـذه الأمة ، واعدادها للقيام بالدور الكونى الضخم الذى قـدره لهـا فى علمه المكنون »(٢٥) •

(*) العـلق آية : ١ •
(**) القـلم آية : ١ •
(٢٥) في ظلال القـرآن : ٣٦٥٤/٦ •

ولذلك فما أن عمل المسلمون بهذا الأمر الالهى بالقراءة والكتابة ، والتدرج فى سلم العلم ، متأدبين بأداب السماء ، حتى امتلكوا حريتهم ، وامتلكوا كرامتهم ،واستردوا للآخرين تلك الحرية المطموسة ، والكرامة السلبية ، وانتصروا على أقوى الممالك والملوك فى الدنيا كلها ، وأصبح لكل فرد من الأمة الاسلامية مكانته العالية ، مهما صغر قدره بين الناس ، بل قامت الجيوش الاسلامية كلها من أجل استغاثة امرأة مسلمة بأحدولاة الأمر ، قائلة : وامعتصماه ، لأن كافرا فى دولة كافرة تصرف معها بأسلوب لا يليق وكرامة المرأة فى الاسلام .

وما تحقق لهم هذا كله من قوة فى العقيدة ، والسيف الا بالعلم ، حتى أصبحوا مشاعل نور وهداية فى العالم كله ، وصاروا أساتذة للدنيا كلها ، فى سائر فنون العلم ، وقامت حضارة الغرب الحديثة على ما خلفه العلماء المسلمون وراءهم من علم عظيم .

ولما علم أعداء الله تعالىأن قوة المسلمين تكمن فى أخذهم بأسباب العلم ، الدينى والدنيوى على حد سواء ، شرعوا يخططون لهذه الأمة العملاقة ، حتى يرجعوها الى ما كانت عليه قبل ذلك ، من جهل تام ، وضلال مبين ، فنجحوا فى ذلك نجاحا عظيما ، وأصبحت تلك الأمة الاسلامية القوية ، أمة جاهلة متخلفة ، لا علم لها بكتاب ربها ، ولا علم لها بأمور حياتها ، فكانت النتيجة المنتظرة أن تراجعت تلك الأمة الاسلامية عن مكان الريادة والزعامة للعالم كله ، الى مكان المؤخرة ، بل لا مكان لها فى تلك المؤخرة ، حيث فقدت كثيرا من أراضيها فى أقطار متعددة ، ودخلت فى نطاق التبعية التامة والطاعة العمياء لدول الشرق والغرب على حد سواء .

ولا خلاص مما تعيشه تلك الأمة الاسلامية من ذل وفقر وجهل ومرض الا بالرجوع مرة أخرى للعمل بقوله تعالى : (اقرأ باسم

ربك الذى خلق) ، وتحويل هـذا العلم الى عمـل قائم على الاخـلاص لله ولدينـه ٠

ثانيـا : اذا كنا نقول بأهميـة العـلم ، وفضـله فاننا لا نقصـره على نوع دون آخـر ، فالعـلم علمـان ، علم دينى ، وعـلم دنيـوى ، ويجب على المسلمين الأخذ بهما معـا ، والتفقـه فيهما ، دون الاقتصار على فـرع منهمـا ٠

وما يفعـله بعض الشباب من ترك الكليات التى تهتم بعلوم الدنيا ، كالطب والهندسة والزراعـة ونحوها ، والتفـرغ لقـراءة الكتب الدينية ، بحجـة أن الله تعـالى خلقنا للعبـادة والدين فهو فعـل ما لا يفقه عن دينـه شيئـا ٠

ان القـرآن حينمـا نزلت أول آية منـه قائلة (اقـرأ) لم تخص علمـا دون علم ، وانمما عممت كل عـلم ، بشرط أن يصـل الانسـان به الى ربه ،ولذلـك قالت : (**باسـم ربـك**)ا ، فالمسلم مطالب بأى عـلم يزيد الانسـان يقينـا بربه ٠٠

ان هنـاك فـرقا بين الاسلام وبين ما يعتنقه النصـارى ، لقد شاع فى القـرون الوسطى أن هنـاك عداوة بين الدين والعلم ، وكان سبب هـذه الشـائعة ما رآه الناس من تسلط الكنيسة على العلمـاء ، وحجرها على عقولهم ، ومخترعاتهم ، أما الاسـلام فالأمـر فيـه مختلف تماما ، فالايمـان والعلم قرينان ، فلا يوجد ايمـان بدون عـلم ، ومن قلد فهو على شفا جـرف هـار ، قال صاحب الأرجوزة (٢٦) :

فكل من قلد فى التوحيـد ايمـانه لم يخـل من ترديد

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه الايمان والحياة :

---

(٢٦) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ، لابراهيم البيجورى : ٤٢، ٤٣

« ان العلم ليس خصما للايمان ، ولا ضدا له ، بل هو دليل يهدى اليه ، وقد رأينا كثيرا من العلماء الراسخين المنصفين ، هداهم علمهم الى أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه ، وترعى كل شىء فيه بميزان وحساب ومقدار ، ذلك أن العالم أقدر من غيره على استبانة ما فى هذا الكون من ترابط وتناسق واحكام » .

يقول الأستاذ (هوشل) : « كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية ، على وجود خالق أزلى ، لا حد لقدرته ولا نهاية » .

ويقول الأستاذ (هربرت سبنسر) : « العلم يناقض الخرافات ، ولكنه لا يناقض الدين نفسه ، يوجد فى كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة ، ولكن العلم الصحيح الذى فات المعلومات السطحية ، ورسب فى أعماق الحقائق براء من هذه الروح .

العلم الطبيعى لا ينافى الدين ، والتوجه الى العلم الطبيعى عبادة صامتة ، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى نعانيها وندرسها ، ثم بقدرة خالقها ، فليس ذلك التوجه تسبيحا شفهيا ، بل هو تسبيح عملى ، وليس باحترام مدعى ، وانما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل »(٢٧) .

وعلى هذا فالمسلم مطالب بأن يتفقه فى كل من العلم الدينى والدنيوى على حد سواء ، وان كان المبدوء به أولا هو العلم الدينى ، فهو الذى قال عنه رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »(٢٨) ، ولو ترك المسلمون العلم الدنيوى ، فمن يتولى أمور

---

(٢٧) الايمان والحياة ، للدكتور يوسف القرضاوى : ٣٢٦، ٣٢٧ .

(٢٨) أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم فى كتاب الامارة ، باب (١٧٥) .

علاجهم ، ومأكلهم وكسائهم ، بل والدفاع عنهم ، وعن كرامتهم ؛ وحريتهم ؟ ، أن الحق لابد أن يكون لأهله كرامة وحرية ، وسيف ، ولا يتحقق ذلك لهم الا بالتطور الهائل فى علوم الدنيا ، وامتلاكهم القمة فى ذلك .

ثالثا : تهدف هذه القصة - أيضا - الى بيان فضل العلماء ، ومكانتهم ... فالخضر لم يصل الى هذه المكانة التى جعلت موسى عليه السلام ، وهو النبى الرسول أن يحتمل المشاق من أجل الوصول اليه الا لكونه عالما فاضلا ، فضله الله تفضيلا ، وكرمه تكريما ...

والحقيقة أن تفضيل الله للعلماء ، ورفعه مكانتهم كان من أول لحظة خلق فيها الانسان فى هذه الحياة ، فساعة أن خلق الله آدم كرمه باسجاد الملائكة له ، وكان ذلك ايذانا بتكريم العلماء ، والنظر اليهم فى هذه الحياة بعين التبجيل ، والاحترام ، والتكريم ، والاعظام ...

ولا أدل على سمو مكانتهم عند ربهم ، من جعل الله شهادتهم مقترنة بشهادته هو سبحانه ، وشهادة ملائكته بأعظم شىء فى الوجود ، ألا وهو توحيده عز وجل ، حينما قال : (**شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم** »(٢٩) .

وقد وردت النصوص الشرعية فى تفضيل العلماء بما لا يستطاع حصره فى هذا المقام ، ولكننا نكتفى منها بذكر أمثلة فقط .

فقد نبه الله تعالى على استحالة المساواة بين العالم وغيره ، حيث قال : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** »(٣٠) ،

(٢٩) آل عمران آية : ١٨ .
(٣٠) الزمر آية : ٩ .

وبين أن العلماء هم أعلى منزلة من غيرهم من المؤمنين ، فقال : **« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »**(٢٢) ، وبين أن سبب هذا الرفع هو خشيتهم من ربهم ، فقال : **« إنما يخشى الله من عباده العلماء »**(٢٠) .

واذا كان العلماء قد نالوا هذه المكانة فانما نالوها لأنهم خلفاء الأنبياء ، القائمون بوظيفتهم المشتغلون فى حياتهم بما اشتغلوا به ، فالأنبياء حينما ماتوا لم يتركوا ميراثا ماديا ليرثه الناس ، وانما تركوا علما ، والميراث ـ كما يقول المناوى ـ « ينتقل الى الأقرب ، وأقرب الأمة فى نسبة الدين العلماء الذين أعرضوا عن الدنيا وأقبلوا على الآخرة ، وكانوا للأمة بدلا من الأنبياء ، الذين فازوا بالحسنيين العلم والعمل ، وحازوا الفضيلتين ، الكمال والتكميل »(٣١) .

رابعا : تهدف هذه القصة أيضا الى بيان فضل طالب العلم ، فاذا كان للعلم منزلته السامية ، وللعالم مكانته الرفيعة ، فان لطالب العلم تلك المنزلة ، وهذه المكانة .

قال ﷺ فيما يرويه مسلم فى صحيحه(٣٢) : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »

وغير ذلك من النصوص الشرعية التى توضح فضل طالب العلم ، ومنزلته عند الله تعالى ، كثير وكثير .

---

(٣١) فيض القدير : ٤/٣٨٤ .
(٣٢) فى كتاب الذكر ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن .

خامسا : من العبر التى تؤخذ من هذه القصة شد الرحال ، وتكلف المشاق فى سبيل العلم .

فهذا هو موسى النبى الرسول صاحب التوراة ، والذى ظن أنه أكثر أهل الأرض علما ، لما أعلمه الله تعالى بوجود من هو أعلم منه فى نوع من أنواع العلوم هب اليه مسافرا ، معلنا عن عزيمة قوية لن تلين ، حتى لو كلفه الوصول اليه فوق طاقته ، أو استغرق منه الدهر كله ، حيث قال لفتاه : (**لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا**) .

ولقد تضمن القرآن والسنة من النصوص فى ذلك الكثير والكثير قال تعالى : «**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم يحذرون**»(٣٣) .

قال الفخر الرازى فى تفسيرها : « متى عجز عن التفقه الا بالسفر وجب عليه السفر ، فاذا أمكنه تحصيل العلم فى الوطن لم يكن السفر واجبا ، الا أنه لما كان لفظ الآية دليلا على السفر لا جرم رأينا أن العلم المبارك المنتفع به ، لا يحصل الا فى السفر »(٣٤) .

ولا أدل على ضرورة شد الرحال لطلب العلم من جعل الله هذا الأمر ، قرينا لشد الرحال لقتال الأعداء ، فبعد أن أوجب الله على المسلمين فى سورة التوبة النفير لقتال الأعداء ، أوجب عليهم النفير من أجل العلم ، لأن الجهاد أساسه العلم ، ولا جهاد ولا انتصار الا بالعلم ، فبالجهل لا يمتلك المسلمون أسباب الانتصار ، من علم صحيح بالعقيدة ، ومن علم قوى يمتلكون به أحدث الأسلحة ، كما

---

(٣٣) التوبة آية : ١٢٢ .
(٣٤) مفاتيح الغيب : ٢٢٧/١٦ .
(٣٥) الأنفال آية : ٦٠ .

قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »(٣٥) ، بل بالجهل صار المسلمون أضعف وأذل أمة ، بعد أن كانوا - بالعلم - أقوى وأعز أمة فى الوجود !!!

ولذلك فقد رأينا سلف هذه الأمة يسافرون آلاف الأميال ، متحملين المشاق والصعاب ، امتثالا لأمر الله ، آملين الحصول على ما به سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وما به يمتلكون ناصية الحياة الدنيا ، وجنان الله فى الآخرة ٠

يذكر لنا البخارى فى صحيحه(٣٦) أن جابر بن عبد الله سافر مسيرة شهر الى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد !!

والأمثلة فى ذلك أكثر مما يستوعبه المقام ، ويكفينا فى هذا قول كل من الفخر الرازى والقرطبى معلقين على عزم موسى على لقاء الخضر ٠

يقول الفخر الرازى(٣٧) : « وهذا اخبار من موسى بأنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد ، والعناء العظيم فى السفر لأجل طلب العلم ، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق الى المغرب ، لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك » ٠

ويقول القرطبى : « فى هذا من الفقه : رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب ، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء ، وان بعدت أقطارهم ،وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون الى الحظ الراجح ، وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم أقدام ، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام »(٣٨) ٠

---

(٣٦) فى كتاب العلم ، باب : الخروج فى طلب العلم ٠
(٣٧) فى تفسيره : ١٤٤/٢١ ٠
(٣٨) الجامع لأحكام القرآن : ١١/١١ ٠

سادسا : مما سبق يتبين لنا فضل العلم ، وأهله ، من علماء ، وطلاب ، وكيف أنهم أفضل البشر على الاطلاق بعد الأنبياء ، لذلك صاروا أهلا لهذا التكريم الالهى ٠

واذا عرفنا ذلك تبين لنا الضلال والاضلال العظيمين ، لكثير من ولاة الأمور فى معظم الأقطار الاسلامية ، من اغفال متعمد مقصود ، لدور العلماء ، ومنزلتهم ، بل بلغ الأمر بهم الى قصد اهانتهم ، والحط من شأنهم ، خاصة اذا كانوا من علماء الدين الاسلامى ، الذين يحملون هم الدعوة الى الله عز وجل ، وينادون ويسعون الى تطبيق شرع الله فى بلاد الله ، وما يتعرض له الدعاة المخلصون من أذى ليس ببعيد عن الأسماع والأبصار ، وعلى الجانب الآخر نجد أهل الفسق والفجور ، وراغبى نشر الرذيلة والفساد والافساد فى المجتمعات الاسلامية هم أهل التكريم ، والتقدير ، يمنحون شهادات التقدير والتكريم ٠٠٠ أى تقدير ؟ وأى تكريم ؟ انه تقدير فى الواقع للرذيلة ، وللصفات الخسيسة ، وللانحطاط الأخلاقى ، وتكريم لحملة الأقلام المسمومة ، ولناشرى الدمار ، والهلاك ولمحطمى القيم الحميدة ، ولكاسرى رموز الحق والعدل ، والعفة والكرامة ٠٠٠ وتسخر وسائل الاعلام لهؤلاء الفسقة الفجرة ، حتى يعرف الناس عنهم كل شىء ، حتى ولو صغر ، وخفى ، أو كان تافها حقيرا ٠

تجد من يسمونها بالفنانة تظهر على الشاشة قدرا كبيرا من الوقت ليسألها سيادة المذيع ، أو المذيعة عن أحب ما تأكل وما تشرب ، وعن كيفية قضاء وقتها ، وكم مرة تزوجت (رسميا) ، وكم مرة طلقت ، و ، الخ ٠

كل ذلك حتى تكون مثلا أعلى لغيرها من الصغيرات ، اللائى يرينها قد وصلت الى هذا الحد من التقدير ، لا لشىء ، الا لأنها عرت جسدها شبه كامل ، وخالطت أهل الفسق والفجور ، وعملت

معهم وبهم على تدمير الأخلاق الفاضلة ، واشاعة الأخلاق التى أفسدت المجتمعات ، وجلبت الهزائم المتكررة للبلاد ، وجعلت أمة الاسلام أفقر الأمم وأذلها ، ومع ذلك فانهم يكرمون ، ويعطون من الأموال التى تؤخذ من عرق المسلمين ودمائهم ما يستعينون به على فسقهم وفجورهم ، وما به تتكدس ثرواتهم ، واذا تعرض أحدهم لمرض عولج فى أرقى المستشفيات العالمية فى الخارج ، على حساب الشعوب المسلمة ، المطحونة المنكوبة ، بهؤلاء وبمن كرموهم ، فاذا مات قامت الدنيا ولم تقعد ، واعتبروه شهيدا للفن ، بعد أن عطلوا الجهاد فى سبيل تحرير الكرامة والشرف ، والأرض والعرض ، واعتبروا الشهادة الحقيقية تلك التى ينالها من كان فاسقا عاصيا فى سبيل الفساد والافساد .

أما علماء الدين فاذا مرض أحدهم فلم يسمع به أحد ، واذا مات ، لم يشعر به موجود ، بل يحدث التعتيم التام المقصود ، على ذلك العالم .

ولا نجاة ولا فلاح لأولى الأمر ، الذين يفعلون ذلك ، ولا سعادة لبلادهم الا بالعودة الى تكريم من كرمهم الله ، وتفضيل من فضلهم الله ، أما أولئك المنحرفون فلا مكان لهم بين أهل الفضل والفضيلة ، حتى يبتعدوا عن غيهم ، ويثوبوا لرشدهم .

سابعا : يؤخذ من قول موسى لفتاه (**آتنا غداءنا**) أمران :

الأمر الأول : حسن معاملة الخدم ، حيث كان غداؤهما واحدا ، وجلوسهما على الطعام كان سويا ، وفى ذلك من المعاملة ما يأسر قلب الخادم لمخدومه ، عن حب ، ومودة ، وذلك أدب من آداب النبوة ، بل من الآداب الانسانية ، قال ﷺ ، « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى »(٣٩) .

---

(٣٩) أخرجه البخارى فى كتابه : العتق ، باب : كراهية التطاول على الرقيق ، ومسلم فى كتاب الألفاظ ، باب (١٥) .

بل سمى الرسول ﷺ العبيد المملوكين أخوة ، حيث قال : «اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم »(٤٠)

وهذا يفسر لنا كيف كان أنس يكتم سر الرسول ﷺ ، حتى عن أمه التى ولدته ، يروى لنا الامام مسلم فى صحيحه (٤١) عن ثابت عن أنس قال : « أتى على رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، قال ، فسلم علينا ، فبعثني الى حاجة ، فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ قلت : بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة، قالت : ما حاجته ؟ قلت : انها سر ، قالت : لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدا ، قال أنس : والله لو حدثت به أحدا لحدثتك يا ثابت » .

ولما ترك المسلمون العمل بهذا الهدى النبوى ، حقد الخادم على مخدومه ، ووقع بسبب ذلك فساد كبير ، وصل الى السرقة والقتل وغير ذلك ، فما أحوج الانسانية الى هذا الهدى السماوى !!

الأمر الثانى : المأخوذ من قوله تعالى (**آتنا غدائنا**) هو : أن التوكل على الله لا يتنافى والأخذ بالأسباب ، فهذا موسى وهو النبى المرسل ، يحمل معه فى سفره ما يحتاج اليه من طعام وغيره ، ولم يقل ان معى ربى سيطعمنى ويسقين ، وهذا يعنى أن يأخذ المسلمون بكل الأسباب فى جميع المجالات ، حتى لا يكونوا عرضة ، لدول الكفر والطغيان ، بل انهم أصبحوا بالفعل تحت رحمتهم فى أمور الغذاء والكساء ، والدواء ، والسلاح ، وما ذاك الا لأنهم لم يأخذوا

---

(٤٠) البخارى ، فى كتاب الايمان ، باب المعاصى من أمر الجاهلية ، ومسلم فى كتاب الأيمان ، باب (٤٠) .
(٤١) في كتاب فضائل الصحبة ، باب فضائل أنس بن مالك .

بالأسباب ، وظنوا أنهم - بمجرد النطق بالشهادتين - أن السماء ستمطر لهم ذهبا وفضة ، وأن الله سيمحق الكافرين ، من أجل سواد أعين المسلمين ، وهم نائمون على السرر المنصوبة ، والفرش المرفوعة .

ثامنا : يؤخذ من قوله تعالى : (**وعلمناه من لدنا علما**) أن العلم نوعان علم مكتسب ، وعلم يعطيه الله لمن يشاء من عباده وهو الذى يسميه البعض بالعلم اللدنى ، أى الآتى من الله ، لا من طريق البشر ، أو ما يقول عنهما البعض علم الحقيقة وعلم الشريعة ، أو علم الظاهر وعلم الباطن .

ولكن ينبغى علينا أن نعلم أن العلم اللدنى هذا لا يتنافى مع الشرع فى شىء ومن يدعى ذلك ، للوصول الى أى مخالفة شرعية ، فهو مؤاخذ بذلك ، ومطالب باقامة الحد عليه فيما يفعل ، أو يذر ، من مخالفة لشرع الله تعالى ، ولا يشفع له فى ذلك فهمه الخاطىء لقصة موسى والخضر .

قال الآلوسى : « وزعم بعضهم أن أحكام العلم الباطن وعلم الحقيقة مخالفة لأحكام الظاهر وعلم الشريعة ، وهو زعم باطل ، وخيال فاسد كاسد ، وأنه لا مستند لهم فى قصة موسى والخضر عليهما السلام »(٤٢) .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن الالهام لو قال به انسان لا يعتبر حجة على الغير ، يقول الآلوسى : « وممن صرح بأن الالهام ليس بحجة من الصوفية الامام الشعرانى ، وقال : « قد زل فى هذا الباب خلق كثير ، فضلوا وأضلوا ، ولنا فى ذلك مؤلف سميته (حد الحسام فى عنق من أطلق ايجاب العمل بالالهام) ، وهو مجلد لطيف » انتهى(٤٣) .

---

(٤٢) روح المعانى : ١٥/٣٣٠ .
(٤٣) روح المعانى للآلوسى : ١٦/١٧ .

المشـهد الثـانى

من آداب المتعـلم

قال تعـالى : « قال له مـوسى هـل أتبعـك على أن تعلمن ممـا علمت رشـدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معى صـبرا (٦٧) وكيف تصبر على مـا لم تحـط بـه خـبرا (٦٨) قال ستجدنى إن شـاء الله صابرا ولا أعصي لك أمـرا (٦٩) قال فإن اتبعتنى فلا تسـألنى عن شيء حتى أحـدث لك منـه ذكـرا (٧٠) » .

معـانى المفـردات وأسرار التراكيب

بعد أن قطع موسى وفتـاه عليهما السلام رحلة السفر حتى وصلا الى العـالم الذى كان ينشـده موسى فالقى عليه السلام ، وعرف كل منهما الآخـر ، ودار بينهما حوار بينتـه السنة النبوية عرض موسى على الخضر أن يصـاحبه كى يتعلم على يديه ممـا علمه الله ، ففى الكلام حذف قبل قوله تعـالى (**قال له موسى هل أتبعـك**) والتقدير : فلما التقيا وتحاورا قال له موسى هل أتبعـك ؟

والكلام فى هـذا المشهد مستأنف مبنى على سؤال نشأ عن المشهد الأول ، فكأنه قيل : فماذا حـدث بعـد ذلك ؟ فقيل قال له موسى : والمراد من قوله (هل أتبعـك) ؟ أى اذا كان لا يثقـل عليك أن أصاحبك لأتعلم على يديك مما علمك الله فهل تأذن لي في تلك الصحبة ؟ فالاتباع هنـا بمعنى الصحبة والمرافقـة .

وهـذا السؤال من موسى صـدر منـه عن أدب جم ، وتواضع عظيم لذلك العبـد الصـالح ، وان كان موسى أفضـل منـه ، حيث تلطف معه في طلب العلم منـه بصيغة الاستفهام ، ولم يجبره على أن يصـحبه معه ،

بل جعل نفسه معه بمنزلة التلميذ مع أستاذه ، يسمع اذا تكلم ، وينفذ اذا أمر ، ولذلك فقد عرض عليه الصحبة بهذا الأسلوب ، فان شاء قبل ، وان شاء رفض .

وقوله (على) فى قوله (على أن تعلمن) للشرط ، بمعنى أن موسى استأذن الخضر فى اتباعه ومصاحبته ، بشرط أن يعلمه .

قال الآلوسى : « قال الأصوليون : أن (على) قد تستعمل فى معنى يفهم منه كون ما بعدها شرطا لما قبلها ، كقوله تعالى : « **يبايعنك على أن لا يشركن** »(١) أى بشرط عدم الاشراك »(٢) .

وقوله (من) فى (مما) للتبعيض ، وقوله (علمت) أى من الذى خصك الله به من العلم ، المقصود من قوله (وعلمناه من لدنا علما) وهو المختص ببواطن الأمور ، والاطلاع على الحكم الخفية .

وقوله (رشدا) قرأه أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين ، والباقون بضم الراء وتسكين الشين ، وهو نقيض الغى والضلال ، أى بمعنى الهدى ، يقال أرشده ، ورشده - بتشديد الشين وفتحها - أى هداه .

والرشد قد يكون راجعا الى موسى ، فيكون المعنى : على أن تعلمنى وترشدنى من الذى علمك الله اياه .

وقد يكون راجعا الى الخضر ، فيكون المعنى : هل أتبعك على أن تعلمن من العلم الذى خصك الله به ، وأرشدك وهداك به .

وعن اعرابه يقول الآلوسى : نصب (رشدا) على أنه صفة للمفعول الثانى لـ (تعلمنى) ، ووصف به للمبالغة ، لكن أقيم مقامه بعد حذفه

---

(١) الممتحنة : ١٢ .
(٢) تفسير الآلوسى : ١٥/٣٣١ .

والمفعول الثـانى لـ (علمت) الضمير العائد على (مـا) الموصـولة ، أى من الذى علمتـه .

وجـوز أن يكون (رشـدا) مفعولا له لـ (اتبعـك) أى هل أتبعك لاجـل اصـابة الخير ، فيتعين أن يكون المفعول الثانى لتعلمنى (ممـا علمت) لتأويله ببعض مـا علمت ، أو علمـا مما علمت .

وأن يكون مصـدرا باضـمار فعلـه ، أى أرشـد رشدا ، والجملة استئنافية ، والمفعول الثاني (ممـا علمت) أيضا (٢) .

وقد يظن انسـان أن الخضر أفضـل من موسى ، لأن موسى تعـلم على يديه ، وهذا من الغفلة بمكان ، لأن الخضر امـا أن يكون وليـا وهو الراجح فى رأيى ورأى الكثير من العلمـاء ، واما أن يكون نبيـا ، فان كان وليـا فموسى أفضل منـه لأنه نبى ، والنبوة أفضل من الولاية ، وان كان نبيـا فموسى أفضـل ، لأن موسى جمع بين النبـوة والرسالة ، فلا يخلو الأمر من تفضيل موسى عليـه فى كلا الحـالين .

وقد يقول قائل فان كنتم تدعـون أن موسى أفضـل من الخضر ، فكيف يليق بالفاضـل أن يتعلم على يدى المفضـول ؟ وخاصة اذا أخذنا فى الاعتبـار أن موسى من أولى العزم من الرسـل ؟

وقد تقـدم الجواب عن ذلك فى الأمور التمهيدية لهـذه القصـة ، بمـا ملخصـه أن لا مانع من أن يتعلم الفاضـل شيئا يجهله على يـدى مفضـول يعلم هـذا الشىء ، والواقع يشهد على صحة ذلك ، فاذا أضـفنا الى ذلك أن الذى يجب على الرسـول أن يكون محيطا بعلمـه هو مـا يتعلق بالعقيـدة ، وما يتصـل بالشريعة ، وليس مكلفا باحاطة كل العلوم على الاطـلاق ، علمنا أنه ان جهـل بعد ذلك علمـا لا يتصـل بالعقيـدة أو الشريعـة فان ذلك لا يضر برسالته ، او ينقص من مكانتـه ، أو يحط من قـدره ، وهـذا مـا وضحه لنـا الرسـول ﷺ فى موضوع تأبير النخل

أى تلقيحه ، حيث تروى لنا السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ سمع أصواتا ، فقال : « ما هذا الصوت ؟ » قالوا : النخل يؤبرونها ، فقال (لو لم يفعلوا لصلح) فلم يؤبروا عامئذ ، فصار شيصا ، فذكروا للنبى ﷺ فقال : « ان كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به ، وان كان من أمور دينكم فالى »(٣) ، وقد ذكر لنا النبى ﷺ فى الحديث الذى سقناه فى أول هذه القصة أن الخضر قال لموسى :انى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه) ، فدل ذلك وغيره مما سبق ، أن الخضر ليس بأفضل من موسى ، وأنه لا حرج فى أن يأخذ الفاضل شيئا من المفضول ، خاصة اذا لم يتعلق بالعقيدة أو الشريعة .

وان كنا فى نفس الوقت نقول ان موسى لم يكن خاليا تماما من الذى ذهب من أجله الى الخضر ، ولكن الخضر كان أكثر منه علما فى هذا المجال ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الآلوسى : « ثم ان الذى أميل اليه أن لموسى عليه السلام علما بعلم الحقيقة المسمى بعلم الباطن ، والعلم اللدنى ، الا أن الخضر أعلم به منه ، وللخضر عليه السلام علمابعلم الشريعة المسمى بالعلم الظاهر ، الاأن موسى عليه السلام أعلم به منه ، فكل منهما أعلم من صاحبه من وجه ، ونعت الخضر عليه السلام فى الأحاديث السابقة بأنه أعلم منموسى ليس على معنى أنه أعلم منه من كل وجه ، بل على معنى أنه أعلم من بعض الوجوه ، وفى بعض العلوم ، لكن لما كان الكلام خارجا مخرج العتب والتأديب ، أخرج على وجه ظاهره العموم »(٤) .

---

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى كتاب الرهون ، باب تلقيح النخل ، والشيص : التمر الذى لا يشتد نواه .

(٤) تفسير الآلوسى : ١٥/٣٣١ ، ٣٣٢ .

وبعد أن ذكر الله تعالى طلب موسى الى الخضر أن يعلمه مما علمه الله ، ذكر رد الخضر على موسى بقوله ؟ قال انك لن تستطيع معى صبرا) ، والاستطاعة : الاطاقة ، الا أن الاستطاعة للانسان خاصة ، والاطاقة عامة ، تقول : الفرس مطيق لحمله ، ولا تقل مستطيع .

والصبر لغة معناه الحبس ، وكل من حبس شيئا فقد صبره وكل ذى روح يصبر حيا ، ثم يرمى حتى يقتل فقد قتل صبرا ، والصبر نقيض الجزع ، فهو حبس النفس عنده ، أما فى الشرع فيراد به : حبس النفس على ما يطلبه الله تعالى ، سواء أكان المطلوب فعلا ، كالصلاة والجهاد ونحوهما ، أم تركا كالزنا وشرب الخمر ونحوهما .

وعلى هذا يكون معنى قول الخضر لموسى : (انك لن تستطيع معى صبرا) أى أنك لا تطيق أن تحبس ما يدور فى نفسك من انكار واعتراض ، حينما ترانى أفعل أمورا عجيبة .

وقد نفى الخضر تحمل موسى وكتمان انكاره لما يراه بأكثر من وجه على أبلغ ما يكون النفى .

١ - وذلك بالاتيان بـ (أن) التى تفيد التوكيد .

٢ - وبالتعبير بـ (لن) التى تفيد النفى على وجه التأبيد .

٣ - وبالتعبير بالفعل (تستطيع) دون التعبير بالفعل (تصبر) ، وهذا أبلغ ، لأنه اذا نفى الاستطاعة فمن باب أولى يكون قد نفى المراد حصوله ، كما ذكرنا ذلك فى قصة صاحب الجنتين وذهاب مائه بقوله (فلن تستطيع له طلبا) .

٤ - والاتيان بالظرف (معى) المتعلق بالفعل تستطيع ، وتقديمه على المفعول به (صبرا) فالصبر المنفى هو الذى يكون فى صحبته ، لأن مصاحبة موسى لهذا العبد الذي علمه الله علما خاصا ، سيكون

فيهـا من الأمور العجيبـة التى لم يألفهـا موسى ولا أحد من قومه ، مـا يفوق تحمله على السكوت عنهـا .

٥ - وأيضـا : بتنكير قوله (صبرا) بعـد الاتيـان بحرف (لن) الذى يفيـد النفى المؤبد ، والنكرة بعـد النفى تعم ، كما هو معلوم ، فيدل ذلك على أن موسى لن يكون عنـده أدنى درجـات الصبر حينما يرى العجائب والغرائب فى هـذه المصاحبة .

« ولم يقـل الخضر ان شـاء الله لأنه فى مقـام التعليم والمشاهدة بخـلاف موسى فانه فى مقـام التأدب والتقليد »(٥) .

ثم علل الخضر لموسى عـدم استطاعته هـذا الصبر بقوله (وكيف تصبر على مـالم تحـط به خبرا) والخبر : بضم الخـاء وكسرها : العلم بالشىء ، تقول لى به خبر ، أى علم ، والاسـتفهام هنـا للاستبعاد ، فالخضر يستبعد أن يصبر موسى على مصاحبته ، لأنه سـيرى منه أشياء لم يصـل اليها علمـه ، وفى هذا الاستبعاد ابداء عـذر لموسى على عدم تلك الصحبـة .

وقد يقول قائل كيف عـرف الخضـر أن موسى لن يستطيع صـبرا على مصاحبته ؟ والجواب : أن ذلك يرجع الى سببين :

السبب الأول : طالب العلم أحـد رجلين ، امـا رجل جاهل بالكلية ، وامـا رجل قطع شـوطا بعيدا فى العلم ، وقرأ أقوال العلمـاء ، وعرف المذاهب ، وطـرق الاستدلال والاستنباط ، وعرف متى يقـرر ما سمعه ، ومتى يعترض عليه ، الى غيرذلك ، مما يوجـد فى أهل العلم ، فالرجل الأول الجاهل تكون عملية التعلم والتعليم فى حقه سهلة ميسورة ، لأنه يسمع ويطيع لأستاذه ، دونما مناقشة أو اعتراض ، لأنه فاقد لمـا يقرر به ، أو يعترض به .

---

(٥) تفسير الجمل : (الفتوحات الالهيـة) : ٣٦/٣ .

أمـا الرجل الثانى : فان عملية التعلم والتعليم شـاقة عسيرة عليه ؛ لأنه ألف الجـدال والمراء ، وتعود على القيـل والقال ، فلا يدع شـيئا يمـر على سمعـه أو بصـره ، دونمـا مناقشـة ، وعلى هـذا فقـد يحـدث له وهو يتتلمذ على يدى أستاذه أن يرى أو يسمع منـه شـيئا ، فلا يدعه يتكلم أو يعمـل شيئا الا اذا دخل معه فى نقاش وحـوار ، وقد يعترض على مـا يكون ظاهره مخالفا لمـا تقرر عند الطالب من أنه صواب وهو فى الحقيقة غير ذلك ، وذلك مما يتضـايق منـه الأستاذ ، فاذا وقع ذلك وتكرر من الطالب مرات ومرات وأصبح سمة للطالب فلابد أن يؤدى فى النهاية الى كراهة الأستاذ لتلك الطريقة ، والى نفرته من مصـاحبة تلميذه له ، واذا نظرنا الى موسى عليـه السلام وجدناه من هـذا النـوع الثانى ، ولذلك قال له الخضر بأبلغ صـورة كما ذكرنا آنفا (انـك لن تستطيع معى صبرا) .

والسبب الثانى : الذى جعل الخضر يجزم بعـدم صبر موسى هـو ما يستفاد من قوله (وكيف تصبر على مـا لم تحـط به خـبرا) أى انك غير عـالم بالأشياء على حقيقتها كما أعلمهـا ، ولم تقف على الحـكم الخفيـة ، التى تكون من وراء أفعـالى .

والمحصـلة : كأنه قال لـه : اذا كنت أنت من طـلاب العـلم الذين قطعوا شـوطا كبيرا فيـه وتمرسـوا على طـرق الاسـتدلال ، والتقرير والاعتراض ، وأضيف الى ذلك جهلك بحقيقة الأشياء وبواطن أمورها ، والحـكم الخفيـة من ورائها ، فلابد أن تعـترض على ما ترى منى من عجائب وغرائب ، ولا تصبر حتى أبين لك وجـه الحكمة ، وطالب هـذا شأنه لابد أن يقع التنافر بينـه وبين أستاذه ، فلا تتم له صحبته ، ولا يكمل له تعلم .

وقوله (خبرا) منصـوب على التمييز ، المنقـول من الفاعـل ، والتقـدير : مما لم يحـط به خبرك ، أو على أنه مفعول مطلق للفعـل

(تحط) ، لأن معنى (ما لم تحط به) ما لم تخبره .

وبعد أن استبعد الخضر على موسى صبرا معه ، فى تلك الصحبة ، رد عليه موسى ردا جميلا ، ينبىء عن كمال أدب منه ، وحسن تلطف مع العلماء ، وقوة عزيمة فى حمل النفس على ما تكره ، ابتغاء العلم النافع ، فقال له (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) .

وفى وعد موسى الخضر بالصبر بقوله ستجدنى صابرا ، مبالغة عظيمة لا توجد فى قوله سأصبر ، لو عبر به ، فكأنه يقول للخضر : اننى قد وطنت نفسى من الآن ، وأعددتها اعدادا تاما لما سيكون فى المستقبل ، بحيث لو وقع ناظرى على شىء تستبعد صبرى عليه ؛ لوجدتنى عليه صابرا ، لا أننى سأحدث صبرا غير موجود بعد مشاهدتى .

وفى ذكر موسى للمشيئة حسن أدب مع الله تعالى ، واستعانة به على الصبر ، وعدم عصيانه للخضر ، لأن الصبر فى حقه - حينما يشاهد ما يعتقده منكرا - عسير شديد ، لمقام نبوته ، وغيرته الشديدة على الشرع ، ولبلوغه فى العلم مبلغا عظما ، بخلاف المتعلم الساذج ، الخالى الذهن ، الذى لم يتعود المناقشة والاستدلال ، ولم يمارس التقرير والاعتراض ، وأيضا : حتى لا يكون موسى كاذبا ، لو لم يستطع صبرا ، أو حدث منه عصيان للخضر .

والصبر - كما سبق بيانه - حبس النفس على المطلوب ، سواء أكان فعلا كالصلاة والجهاد ونحوهما ، أم تركا كالزنا والربا ونحوهما .

وقدم موسى المشيئة على المفعول الثانى (صابرا) لئلا يتوهم أن هذا الاستثناء خاص بالصبر ، وانما هو شامل له ، ولعدم العصيان

وقوله (ولا أعصى لك أمرا) العصيان خلاف الطاعة ، يقال عصا العبد سيده اذا خالف أمره ، والأمر واحد الأوامر ، وهو نقيض النهى ولكن الظاهر هنا ما هو أعم من قصره على ذلك ، بل يراد به مطلق الطلب ، سواء أكان المطلوب فعلا أم تركا .

قال الآلوسى : « ثم ان الظاهر أنه لم يرد بالأمر مقابل النهى ، بل أريد مطلق الطلب ، وحاصل الآية : نفى أن يعصيه فى كل ما يطلبه »(٦) .

وهذه الجملة - أعنى قوله تعالى (ولا أعصى لك أمرا) - فى محل نصب عطفا على قوله (صابرا) والتقدير : ستجدنى صابرا وغير عاص ، من عطف الفعل على اسم الفاعل ، كقوله تعالى : « صافات ويقبضن »(٧) أى صافات وقابضات .

ويجوز أن تكون معطوفة على قوله (ستجدنى) ، وحينئذ فلا محل لهذه الجملة من الاعراب ، ولا يكون قوله (ولا أعصى) مقيدا بالمشيئة لفظا ، وتكون المشيئة خاصة بالصبر ، ولكن الرأى الأول أرجح حتى تعم المشيئة الأمرين معا ، الصبر ، وعدم العصيان .

ولذا رجحه أبو السعود ، وعلله بقوله : « لظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ »(٨) .

وقد يسأل سائل ويقول : كيف ألزم موسى نفسه هذه الطاعة المطلقة للخضر ؟

والجواب : أن موسى ألزم نفسه ذلك بناء على ثقته التامة فى عصمة الخضر فيما سيفعله مستقبلا ، لأن الله دله على الذهاب اليه ليتعلم على يديه علما خصه الله به دون موسى عليهما السلام .

وبعد أن وجد الخضر من موسى هذه العزيمة القوية ، والرغبة الشديدة فى طلب العلم ، وافقه على أن يصحبه معه ، ولكن شرط عليه شرطا ، حيث قال له (فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

---

(٦) روح المعانى : ٣٣٥/١٥ .
(٧) الملك : ١٩ .
(٨) ارشاد العقل السليم : ٢٥٩/٣ .

فالفـاء فى قوله (فان اتبعتنى) تفريعيـة ، فرعت الشرط على مـا تقـدم من الزام موسى نفسـه الصبر والطاعة .

والمراد من قوله (فلا تسألنى عن شىء) أى اذا رأيت منى شيئا تنكـره ، فلا تفاتحنى بالسـؤال عن وجـه الحـكمة فيـه ،فضـلا عن الاعتراض والمناقشـة .

و (حتى) للغـاية ، مثـل (الى) الا أن المغيـا بـ (حتى) لا غاية بعـده ، بخلاف (الى) تقول أكلت السمكة حتى رأسها ، وأكلتهـا الى نصـفها ، وعلى ذلك فان التعبير بحتى هنـا يفيـد أن على موسى أن يلتزم بالصـبر المطلق فى عـدم مفاتحـة الخضر فيما يفعـل ، حتى يكون الخضر هو البادىء باظهـار وجه الحكمة فى ذلك ، وهـذا هـو معنى قوله (حتى أحـدث لك منـه ذكـرا) ، أى الى أن أفاتحك فى ذلك وأبين لك السر فى فعـله .

وهـذا الشرط يدل على أن كل ما سيفعله الخضر لن يصـدر عنـه عبثا ، وانما لحكمة سامية ، ولغرض نبيل ، ولهدف محمود العاقبة .

وفى قوله تعـالى (فلا تسألن) أكثر من قـراءة متواترة ، حيث قـرأ ابن عامر : (فلا تسألن) بفتح اللام ، وتشديد النـون ، وحـذف اليـاء ، وروى عنـه نفس هـذه القراءة ، ولكن باثبات اليـاء فى آخر الفعـل ، وهى قراءة نافع ، وقرأ الباقون (فلا تسألن) بسـكون النون مخففـة غير مشـددة ، والمعنى واحـد ، الا أن قراءة تشديد النون يكون النهى فيهـا آكد « لحصول أكمل أحوال المتعلم مع العـالم ، لأن السؤال قد يصـادف وقت اشتغال المسئول باكمال عمله ، فتضيق له نفسـه ، فربما كان الجواب عنـه بدون شره نفس(٩) وربما خالطه بعض القلق ، فيكون

---

(٩) أى بدون اقبال شديد ،وحرص عظيم .

الجواب غير شاف ، فأراد الخضر أن يتولى هو بيان أعماله فى الابان الذى يراه مناسبا ، ليكون البيان أبسط ، والاقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين »(١٠) ٠

ويبين لنا سياق الآيات أن موسى قد قبل شرط الخضر ، فيا ترى هل التزم موسى بما ألزم به نفسه ، من الصبر وعدم العصيان ؟ وهل وفى بما شارطه الخضر عليه ؟ أو لم يستطع صبرا ، وناقش واعترض؟ ذاك ما تجيب عنه آيات المشهد الثالث ، والتى سنتناولها بالدراسة ـ ان شاء الله ـ بعد المعنى العام لآيات المشهد الثانى ، واستخراج العبر منهما ٠٠٠

المعنى العام لآيات المشهد الثانى

من الآية (٦٧) الى الآية (٧٠)

بعد أن بينت لنا آيات المشهد الأول عزيمة موسى القوية ، وحرصه الشديد على طلب العلم ، واستعداده التام لتحمل مشاق الأمور ، وصعاب السبل ، وأنه بالفعل تحمل النصب والتعب حتى ظفر بمراده ووصل الى العالم الذى من أجله خرج ، وفى سبيل التعلم على يديه سافر وجهد ، تأتى آيات هذا المشهد الثانى لتفصل لنا بعضا من الحوار الذى دار بينهما ، لقد تقدم موسى بخطى هادئة نحو هذا العبد الصالح العالم ، وفى أدب جم ، وبأسلوب هو غاية فى اللطف مع العلماء ، والتواضع لهم ، يستأذن موسى هذا العبد فى الصحبة ، قائلا له ان كان لا يثقل عليك صحبتى ، ولا تضايقك معاشرتى ، فهل تأذن وتسمح لى فى تلك الصحبة ؟ حتى أتعلم منك شيئا مما علمك الله لترشدنى به فى حياتى ، فأرى الحكم الخفية للأشياء وأطلع على بواطن الأمور ، دون الوقوف على ظواهرها ، وعدم تجاوز صورها ؟

---

(١٠) التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور : ٣٧٣/١٥ ، ٣٧٤ ٠

هكذا يطلب موسى من الخضر أن يعلمه ، بأدب يليق بنبوته ، فيستفهم ، ولا يجزم أو يفرض ، فان للناس أحوالا ، وللعلماء أعذارا ولكن العبد الصالح الذى علمه الله من لدنه علما يعلم أن موسى ليس أهلا لتلك الصحبة العلمية ، لأن هذا العلم من نوع خاص ، لم يألفه موسى من قبل ، وقد يرى أشياء ربما تتصادم - فى ظاهرها - بالأحكام الظاهرة ، ومنطق العقل ، ومن ثم فلا طاقة لموسى على تلك الصحبة العلمية ، ولن تشفع له فى هذه الصحبة نبوة أو رسالة ، وعلى ذلك أجابه الخضر بقوله (انك لن تستطيع معى صبرا) ، أى انك يا موسى تستطيع مصاحبة عالم غيرى ، نوع علمه من نوع علمك ، أما علمى هذا فغير علمك ، خصك الله بعلم ، وخصنى بعلم ، ومن ث مفان صحبتك لى بالذات لن تدوم ، وتعلمك على يدى لن يكمل ، ولن يكون .

ثم علل لموسى عدم اطاقته لصحبته تلك بقوله (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أى ان ما وصلت اليه يا موسى من علم لا يتعدى ظواهر الأمور ، ولا يتجاوز الحكم القريبة ، أما ما وصلت اليه أنا من علم ، فهو يعدو ذلك بكثير وكثير ، اذ يتجاوز الظواهر الى البواطن ، ويتعدى الحكم القريبة الظاهرة الى الحكم البعيدة الخافية ، وعلى ذلك فلا تتفق لنا صحبة ، ولا تتم بيننا معاشرة ، ولن يكون بيننا تعلم وتعليم ، خاصة وأنك على علم ، تعودت منه المناقشة والاستدلال ، وطرق التقرير والاعتراض ،وبالتالى فان التنافر سيكون هو النتيجة الحتمية لهذه الصحبة ، والفراق هو المصير المحتوم لتلك المعاشرة .

ولكن موسى وهو من أولى العزم ، وقد قطع الفيافى والقفار ، وعبر البلاد وسافر الأميال ، كيف يرجع من رحلته تلك صفر اليدين ؟

انه يجدد عز ما آخر ، أشد من ذى قبل ، ويستعين بالله صاحب كل حول ، ومصدر كل قوة ، فى صبره على هذه الصحبة ، وفى عزمه على عدم عصيانه لأى طلب يطلبه منه أستاذه الخضر ، ويعد أستاذه بأنه ان شاهد شيئا ينكره فى نفسه ، فلن يفصح له عما يدور فى خلده ، وانه من الآن قد وطن نفسه على ذلك ، فهو الآن من الصابرين ، فاذا ما حدث أمر عجيب غريب ، صادف من موسى نفسا صابرة ، لا تحتاج الى تكلف ، أو احداث صبر جديد ، لأنه على ثقة بصواب ما يفعله ، والا ما دله الله عليه .

وأمام هذا الاصرار الشديد من موسى على تلك الصحبة ، رغبة فى العلم لم يجد الخضر بدا من قبوله تلميذا له ، ولكنه شرط عليه أن يسمع ويطيع ، وأن لا يناقش ولا يعترض ، وأن لا يفاتحه فى بيان الحكمة من الأفعال التى يفعلها ، حتى يكون الخضر هو البادىء ببيان وجه الحكمة .

ومع قسوة هذا الشرط على موسى ، ونفسه ، وطبيعته ، الا أنه لم يجد مفرا من قبوله ، رجاء أن يعلمه الخضر مما علمه الله ، حتى يكون من الراشدين ، الذين لا يقفون عند ظواهر الأمور ، والحكم القريبة منها ، بل من أولئك الذين يتجاوزون الظواهر الى البواطن ، ويتخطون صور الأشياء الى خباياها ، التى تخفى عن الأعين ، ولا يراها الا من علمه الله من لدنه علما .

« العبر المستفادة »

من المشهد الثانى من الآية (٦٦) الى الآية (٧٠)

من آيات المشهد السابق نستطيع أن نخرج بعدة عبر ، هى غاية فى الأهمية لمن يريد أن يتعلم على يد أستاذ ، علما ينفعه فى دينه ودنياه ، نختار منها ما يلي :

أولا : تواضع الطالب لأستاذه ، واظهار الافتقار الى ما عنده من علم ، ومخاطبته بألين العبارات ، وأحسنها أدبا ، وتجنب الجفاء ، والخشونة فى الكلام معه ٠

وتأمل هذا الأدب النبوى من موسى وهو الكليم المصطفى ، والنبى المجتبى ، حينما وصل الى الخضر وعرض عليه صحبته ، عرضها عليه بأرق العبارات ، وأجمل الأساليب ٠

اذ أخرج طلبه للعلم بصورة الاستفهام والعرض ، والمشاورة (هل) ، أى ان كان وقته ، وظروفه ونفسه تسمح بذلك رافقه ، والا فلا ٠٠٠

وللفخر الرازى عليه رحمة الله تعالى استنباط طيب من قول موسى للخضر (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) ، يحسن بنا فى هذا المقام أن نذكره ٠

قال رحمه الله : اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الأدب واللطف ، عندما أراد أن يتعلم من الخضر ٠

فأحدها : أنه جعل نفسه تبعا له ، لأنه قال : (هل أتبعك) ٠

وثانيها : أنه استأذن فى اثبات هذه التبعية ، كأنه قال : هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعا لك ، وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع ٠

وثالثها : أنه قال : (على أن تعلمنى) ، وهذا اقرار له على نفسه بالجهل ، وعلى أستاذه بالعلم ٠

ورابعها : أنه قال (مما علمت) ، وصيغة (من) للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله ، وهذا أيضا مشعر بالتواضع ، كأنه يقول له : لا أطلب منك أن تجعلنى مساويا فى العلم لك ، بل

أطلب منــك أن تعطينى جزءا من أجـزاء علمك ، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع اليـه جزءا من أجزاء ماله ٠

وخامسـها : أن قوله (ممـا علمت) اعتراف بأن الله علمـه ذلك العـلم ٠

وسـادسها : أن قوله (رشـدا) طلب منه للارشـاد والهداية ، والارشـاد هو الأمر الذى لو لم يحصـل لحصلت الغواية والضـلال ٠

وسـابعها : أن قوله (تعلمنى ممـا علمت) معنـاه : أنه طلب منه أن يعامـله بمثـل ما عامله الله به ، وفيـه اشـعار بأنه : يكون انعـامك على عنـد هـذا التعليم شـبيها بانعام الله تعـالى عليك فى هذا التعليم، ولهـذا المعنى قيـل : أنا عبد من تعلمت منـه حرفا ٠

وثامنهـا : أن المتابعـة عبـارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعـلا لذلك الغير ، وعلى هـذا : فقوله (هل أتبعـك) يدل على أنه يأتى بمثـل أفعـال ذلك الأستاذ ، لمجـرد كون ذلك الأستاذ آتيـا بهـا ، وهـذا يدل على أن المتعلم يجب عليـه فى أول الأمر التسـليم ، وترك المنازعة ، والاعتراض ٠

وتاسـعها : أن قوله (أتبعـك) يدل على طلب متابعته مطلقـا فى جميع الأمور ، غير مقيد بشىء دون شىء ٠

وعاشرهـا : أنه ثبت بالأخبـار أن الخضر عرف أولا أنه نبى بنى اسرائيل ، وأنه هو موسى صـاحب التوراة ، وهو الرجل الذى كلمه الله عز وجل ، من غير واسـطة ، وخصـه بالمعجزات القاهرة الباهـرة ، ثم انه عليـه السلام مع هـذه المناصب الرفيـعة ، والدرجـات العاليـة الشريفة ، أتى بهـذه الأنواع الكثيرة من التواضع ، وذلك يدل على كونه عليـه السلام آتيـا فى طلب العـلم ، بأعظم أنواع المبالغـة ، وهذا هو اللائق به ، لأن كل من كانت احاطتـه بالعلوم أكثر ، كان علمـه بما فيها

من البهجة والسعادة أكثر ، فكان طلبه لها أشد ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد .

والحادى عشر : أنه قال (هل أتبعك على أن تعلمنى) فأثبت كونه تبعا له أولا ، ثم طلب ثانيا أن يعلمه ، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم .

والثانى عشر : أنه قال : (هل أتبعك على أن تعلمنى) فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئا ، كأن قال : لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ، ولا غرض لى الا طلب العلم (١١) .

ثانيا : ومن العبر المستفادة أيضا من هذا المشهد الذى يبين لنا ما يجب على الطالب أن يتحلى به :

الصبر الشدد على ما يلقاه من عقبات فى طريق العلم .

وعن هذه الصفة قال الخضر لموسى فى هذا المشهد : (انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) ولذلك وجدنا موسى يعده بالتحلى بها ، حيث قال له (ستجدني أن شاء الله صابرا) .

فطالب العلم قد يتعرض لبعض أمور تقف سدا منيعا دون الوصول الى مبتغاه ، كأن يفقد من يتولى الانفاق عليه من والد ، ونحوه ، وكأن يسرق ماله ، أو يتعرض لمرض ، أو أى شىء من حوادث الأيام ، ونوائب الدهر والزمان ، ومن هنا فيجب عليه أن لا ييأس ، بل يصبر ، ويتحمل ، وليعلم أنه بطلبه العلم فى جهاد الى أن يتم له أمره ، وما نال انسان ما شيئا له قيمته الا بالصبر التام ، والعزيمة

---

(١١) مفاتيح الغيب : ١٥١/٢١ .

القوية ، وليعلم أنه ان صبر وصابر وثابر فان فتح الله تعالى عليه قريب، وأن فرج الله أقرب اليه من حبل الوريد .

ثالثا : يؤخذ من قول موسى للخضر (ستجدنى ان شاء الله صابرا) ضرورة تقديم المشيئة ، عند العزم على فعل من الأفعال، حتى يلقى من الله الاعانة ، وحتى لا يعد كاذبا ان لم يقدر على فعل ما وعد به .

وقد سبق الحديث عن ضرورة تعليق الفعل على مشيئة الله تعالى، وأهمية وفضيلة ذلك عند الحديث عن آيات المشهد السادس من قصة أهل الكهف ، وعبر هذا المشهد ، فليرجع اليه هناك .

رابعا : تضع آيات هذا المشهد أصلا من أصول التعليم ، ألا وهو ضرورة أن ينبه الأستاذ تلميذه ، الى العوائق والعوارض التى قد تصادفه فى طريق علمه ، حتى يوطن نفسه ، ويهىء روحه ، لما قد يلقاه منها مستقبلا .

وهذا واضح من قول الخضر لموسى (انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) حيث نفى استطاعة موسى الصبر على ما سيشاهد من أفعاله بأبلغ صورة ، من صور النفى ، كما وضح في التفسير التحليلى لآيات هذا المشهد سابقا .

وفى هذا تنبيه لأولى الأمر الذين يبعثون طلاب العلم الى الخارج للتعلم فى بلاد الكفر والالحاد ، دون أن يحذروهم من خبائث تلك المجتمعات ، ومن وسائل جذب شباب المسلمين ، للانغماس فى جاهلية الجاهليين ، وفى التيارات المنحرفة ، والأفكار التى تتنافى والعقيدة الاسلامية تماما .

فعلى ولاة الأمور أولئك أن يحصنوا طلاب العلم قبل السفر للخارج **بأن ينشئوهم فى بلادهم وفى مدارسهم وجامعاتهم نشأة اسلامية كاملة**

لا نشأة علمانية ، تفصل العلم عن الدين ، ثم بعد ذلك لو أرادوا ابتعاث طلاب حذروهم من عواقب الامور ، فاذا سافر أحد بعد ذلك كله استطاع أن يكون فى حصن حصين ، بل استطاع أن ينشر العقيدة التى عليها تربى ، وبها ترعرع وشب ، وأصبح وسيلة جذب الشباب الكافر للدخول فى الاسلام ، بدلا من أن يكون فريسة سهلة للكفار ، واذا عاد بعد البعثة أصبح عضوا فعالا لهم يفعل فى صفوف المسلمين ما يعجزون هم عن فعله ! ! !

خامسا : يؤخذ من قول الخضر لموسى (انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) جواز اعتذار الأستاذ للتلميذ ، اذا رأى الطالب غير أهل لنوع العلم الموجود عنده ، أو لأسباب أخرى ، يراها الأستاذ مناسبة للاعتذار .

سادسا : كما يؤخذ من آيات ذلك المشهد أن الطالب لو ألح على أستاذه أن يعلمه شيئا ، فلأستاذه أن يضع من الشروط المناسبة له ما يضع ، فان وافق عليها الطالب كان بها ، والا فلا .

يؤخذ ذلك من قول الخضر لموسى : (فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

« المشهد الثالث »

موسى لم يستطع صبرا

قال تعالى : « فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا (٧٢) قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا (٧٣) فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت

شيئا نكرا (٧٤) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا (٧٤) قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا (٧٦) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٧٧) قال هذا فراق بينى وبينك، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا (٧٨) . » .

معانى المفردات وأسرار التراكيب

بعد أن وضحت لنا آيات المشهد السابق الحوار الذى دار بين موسى والخضر ، وبينت لنا تلك العزيمة القوية من موسى عليه السلام ، رغبة فى طلب العلم ، والتوقع الشديد من الخضر لعدم صبر موسى على ما سيرى من أفعاله ، وكيف أن موسى أخذ على نفسه العهد بالتزام الصبر ، وعدم عصيانه للخضر ، تأتى آيات هذا المشهد الثالث ، لتبين لنا بعض الأفعال التى حدثت من الخضر ، وموقف موسى منها .

قال تعالى : « **فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها** ».
والانطلاق : المشى والذهاب ، مأخوذ من الاطلاق الذى هو نقيض التقييد ، أى فانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر ، كما جاء فى رواية البخارى ، والتى ذكرناها فى صدر هذه القصة « فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهم سفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ».

والضمير فى قوله (فانطلقا) يعود على موسى والخضر ، أما فتى موسى فلم يرد له ذكر :

١ - اما لأنه تابع لموسى ، وليس طرفا مقصودا فى القصة .

٢ - واما لأن موسى قد أمره بالرجوع الى بنى اسرائيل ، بمجرد العثور على الخضر .

والفعل (ركب) يتعدى بنفسه ، فيقال : ركبت القطار ، وركبت الطائرة ، والسفينة وهكذا ، ولكن أتى بـ (فى) هنا لقصد معني الدخول ، كأنه قيل : حتي اذا دخلا في السفينة

وهو نظير قوله تعالى (**وقال اركبوا فيها**)(١) دون قوله « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها** »(٢) .

و (السفينة) الفلك ، التى تسير فى الماء ، مشتقة من السفن، بفتح السين وسكون الفاء ، بمعنى القشر ، لأنها تقشر وجه الماء ، فهى فعيلة بمعنى فاعلة ، وقيل : قيل لها سفينة لأنها تسفن الرمل اذا قل الماء ، فيكون اللفظ مأخوذا من السفن - بفتح السين والفاء - وهو الفأس التى ينحت بها النجار .

والجمع : سفائن ، وسفن ، بضم الأول والثانى ، وسفين : بفتح السين وكسر الفاء .

والألف واللام فى (السفينة) لتعريف الجنس ، وليستا للعهد ، حيث لا عهد لسفينة مخصوصة ، والخرق بفتح الخاء وسكون الراء : الشق ، فى الحائط والثوب ونحوه ، وهو فى الأصل مصدر ، يقال خرقه يخرقه - بفتح الياء ، وضم الراء - خرقا . أى شقه ، وجمعه خروق ، وكان هذا الخرق الذى أحدثه الخضر أعلى السفينة حتى يكون ظاهرا للملك الظالم ، فيتركها لهم لعيبها ، ولئلا يتسارع الغرق الى أهلها .

---

(١) هود : ٤١ .
(٢) النحل : ٨ .

وقـد وردت أقـوال كثيـرة فى كيفيـة ركوبهما السـفينة ، وخرقها وسـدها ، ولا يلتفت لغيـر ما ذكـرنا من روايـة البخـارى ومسـلم فى صحيحيهما ، حيث صـح أن الخضـر قلـع من السفينة لوحـا ، وجعـل مكـانه وتـدا ٠

ويؤخـذ من ظاهـر آيات القصـة ، وظاهـر الأحاديث أن الخضر خـرق السفينة وأهلهـا فيهـا ، ولكن كيف سـكتوا على هـذا الفعـل ؟ يبـدو أن الله تعـالى كـان يصـرف أبصـار النـاس عمـا يفعـله الخضر من أمـور يعدونها خرقـا للعـرف ، والشـرع ، ولـذا يقـول الآلوسى : « وظاهـر الأخبـار يقتضى أنـه عليـه السـلام خرقهـا وأهلها فيهـا ، وهـو ظاهـر قـوله تعـالى (**قـال أخرقتهـا لتغـرق أهلهـا**) الى أن يقـوه : « والظاهـر أن أهـل السفينة لـم يـروه ، لمـا باشر خرقهـا ، والا لمـا مكنـوه وقـد نص على ذلك القـارى »(٣) ٠ بل ان الحـافظ ابن حجـر يميـل الى ذلك ، ويأتى بحـديث فى هـذا الموضوع حيث يقـول : « وفى روايـة أبى العالية (فخـرق السفينة فـلم يـره أحـد الا مـوسى ولـو رآه القـوم لحـالوا بينـه وبين ذلك »(٤) ٠

وبمجـرد أن رأى موسى الخضـر وقـد خـرق السفينة اذا بـه لم يتمـالك ، ولم يتذكـر ما شـار طـه عليـه الخضـر فى تلك الصحبة ، فأسـرع بانكار ما شـاهده منـه ، حيث قـال لـه : (أخرقتها لتغـرق أهلهـا) فالاستفهام للانكار ، والغـرَق : الرسوب فى المـاء ، وهـو فى الأصـل : دخـول المـاء فى فتحتى الأنف ، حتى تمتلـىء منـافذه ، فيهـلك ، والشـرق - بفتـح الشـين والـراء - دخـوله فى الفـم ، حتى يغـص بـه لكثرته ، يقـال غـرق فى المـاء وشـرق - بفتـح

---

(٣) روح المعانى : ١٥/٣٣٦ ، ٣٣٧ ٠
(٤) فتح البارى : ٨/٢٧٢ ٠

الأول وكسر الثانى فى الفعلين ـ اذا غمره الماء ، فملأ منافذه ، حتى يموت(٥) ٠

والمراد بقوله (أهلها) ركابها ، كما فى قولهم أهل البيت : أى سكانه ٠

واللام فى قوله (لتغرق) : لام العاقبة ، حيث يترتب الغرق على الخرق ، فيكون المعنى : أخرقتها ليكون الغرق عاقبة ومصير أهلها ؟ ، وقيل ان اللام لام التعليل ، لأن هذا أنسب بمقام الانكار ، فيكون المعنى : أخرقتها من أجل اغراق أهلها ٠ ؟

وقرىء قوله (لتغرق أهلها) بياء مفتوحة ، واسناد الغرق الى الأهل ، وكون اللام على هذه القراءة للعاقبة واضح للغاية ، وهى قراءة حمزة والكسائى ، وقرأ الباقون بتاء مضمومة ، وبنصب (أهلها) على معنى لتغرق أنت أهل هذه السفينة ٠

وقال موسى (لتغرق أهلها) ولم يقل لتغرقنى ، وان كان ذلك التعبير شاملا له أيضا لأنه من أهلها ، لأن عادة الأنبياء أن يشفقوا على الناس أكثر من اشفاقهم على أنفسهم ، وأن يراعوا حقوق أممهم قبل حقوقهم هم ٠ أنظر فى أوائل هذه السورة ، حينما تحدث الله عن شفقة رسوله على الكفار ، حتى كاد يقتل نفسه حسرة على كفرهم واعراضهم عن ذكر ربهم ، حيث قال :

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وغير ذلك مما يحمل هذا المعنى فى القرآن كثير وكثير ٠

---

(٥) أنظر لسان العرب : (غرق) ٠

ثم زاد موسى من انكاره على ما شاهد بقوله (لقد جئت شيئا إمرا) ، والامر : - بكسر الهمزة - الأمر الداهية : الشديد العجب ، الشنيع النكر ، قال الراجز :

قد لقى الأقران منى نكرا

داهية دهياء إدا إمرا

مشتق من قولهم أمر أمره - بكسر الميم الأولى ، وتسكين الميم الثانية - أى عظم واشتد ٠

وفى تعبيرموسى بلام القسم ، وبقد ، التى تفيد التحقيق هنا ، وبوصف فعله الذى ارتكبه بكونه امرا ، ما يدل على شدة انكار موسى لفعل الخضر ، وعظيم ملامته له ٠

وحينما اعترض موسى على ما شاهد من الخضر ، ولامه عليه ، ذكره الخضر بما حذره منه قبل ابتداء تلك الصحبة ، فقال له (ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا) والمعنى : لقد وضحت لك الطريق ياموسى ، ولم أبهمه عليك ، حيث قلت لك أن علمى غير علمك ، وسترى فى صحبتى ما تعجز عن ضبط نفسك تجاهه ، ومقاومة ما يدور فى خلدك من انكاره ، ولكنك صممت على تلك الصحبة ، ووعدتنى بتماسك نفسك ، وصبرك على ما سترى ، وها أنت لم تتماسك ، ولم تف بوعدك ٠

فالاستفهام هنا للتقرير ، وهو وان كان يحمل فى طياته معنى التذكير بما قاله الخضر لموسى قبل الصحبة ، الا أنه يحمل من الانكار عليه ، واللوم له على عدم وفائه بوعده ، بالصبر وعدم عصيانه له ، مالا يخفى ٠

وبمجرد أن ذكره الخضر بما شارطه عليه قبل الصحبة ،

تذكيرا يحمل فى ثناياه عتابا ولوما ، اعتذر موسى لما بدر منه من اعتراض قائلا له (لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) .

لقد ظهر لموسى أن هناك فرقا بين الأقوال النظرية ، والتجارب العملية ، وأن المبادىء والأقوال لا يظهر قيمتها ولا يكشف حقيقتها الا الاختبارات الميدانية والاحتكاكات الواقعية ، هذا الفرق ظهر له جيدا حينما وقع فيما حذره منه الخضر، ولذلك طلب منه عدم المؤاخذة عليه ، وعدم تحميله ما يشق عليه .

والمراد بعدم مؤاخذته له : عدم معاقبته ، بقطع صحبته له ، والباء فى (بما) للسببية ، و (ما) مصدرية ، أو موصولة ، والتقدير : بنسيانى ، أو بالذى نسيته ، والذى نسيه موسى : هو ما ألزمه به الخضر من عدم مناقشته ، أو اعتراضه فيما يفعله ، حتى يكون الخضر هو البادىء ببيان وجه الحكمة فيما يفعل ، والتزام موسى بهذا الشرط ، ووعده الخضر بالصبر، فى تلك الصحبة ، وعدم عصيانه له أمرا .

والنسيان هنا يحمل على ظاهره ، والذى هو ضد الذكر ، وهذا هو قول جمهور المفسرين ، وهو الذى يساعده قول الرسول ﷺ « كانت الأولى من موسى نسيانا ، والوسطى شرطا ، والثالثة عمدا »(٦) أما ما ذكره البعض من أن المراد بالنسيان هنا الترك أو غير ذلك فلا عبرة به .

والنهى فى قوله (لا تؤاخذنى بما نسيت) مستعمل فى

---

(٦) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الكهف .

التعطف ، والتماس عدم المحاسبة ، وانما التمس موسى ترك المحاسبة بالنسيان : لأن الخاصة وأولى الأمر قد يحاسبون ويؤاخذون بالنسيان، فى حالة عدم تحفظهم ، التى تؤدى بهم الى الوقوع فى المحظور، كما حدث لأول ناس ، وهو أول الناس ، آدم عليه السلام .

وأيضا فان مصاحبة من يعتريه النسيان ، أو يتكرر منه ، فيها من الخطورة ما فيها فلذلك التمس موسى من الخضر أن لا يحاسبه على ما حدث منه .

وبعد أن طلب موسى من الخضر عدم مؤاخذته لما بدر منه، طلب منه أمرا آخر ، حيث قال له (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) .

والرهق : - بفتح الراء والهاء - غشيان الشىء ، بكسر بفتح الراء وكسر الهاء - أى حملنى اثما ، حتى حملته له . الغين وسكون الشين ، يقال أرهقنى فلان اثما ، حتى رهقته - والمراد بقوله (من أمرى) مصاحبتى لك ، واتباعى اياك ، والعسر : بضم العين وسكون السين ، وضمها أيضا : ضد اليسر ، وهو الصعوبة والشدة ، والضيق ، قال تعالى : « **سيجعل الله بعد عسر يسرا** »(*) ، وقوله (عسرا) مفعول ثان لـ (ترهقنى) .

وعلى هذا يكون موسى قد طلب من الخضر أن لا يحمله فى تلك الصحبة ما يكون شاقا عليه ، وأن لا يحاسبه فيها على الفتيل والقطمير ، والصغير ، والحقير ، بل عليه تيسير تلك الصحبة ، والاغضاء عن عدم الالتزام الكامل والوفاء التام بما عليه تشارطا .

(*) الطلاق : ٧ .

وبعد التذكير واللوم من الخضر ، والاعتذار وطلب الصفح من موسى ، وقبول الخضر هذا العذر تستمر تلك الصحبة ، وينزلان من السفينة ، ويمشيان على ساحل البحر ، لتقع من الخضر مفاجأة لموسى ، أعجب من سابقتها ، وعنها يقول الله تعالى :

« **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله** » .

فالفاء فى (فانطلقا) فاء الفصيحة ، أى فقبل عذره ، فخرجا من السفينة ، فانطلقا مستمرين فى سيرهما الى أن شاهد الخضر غلاما يلعب مع رفاقه فتقدم منه وقام بقتله .

والغلام قيل يطلق على الشاب الذى بلغ ، مأخوذ من الغلمة - بضم الغين ، وسكون اللام ، وهى - كما قال صاحب لسان العرب : « هيجان شهوة النكاح ، من المرأة والرجل وغيرهما ، والذكر غلام ، والأنثى غلامة » .

وقيل هو من حين يولد الى أن يشيب ، فانهم يقولون : فلان غلام الناس ، وان كان كهلا ، كقولك فتى العسكر ، وان كان شيخا ، والعرب يقولون للكهل غلام نجيب ، وهو فاش فى كلامهم .

فلفظ الغلام اذاً يطلق فى لغة العرب على الصبى الصغير ، وعلى الشاب البالغ ، وعلى الشيخ الكبير .

وعلى ذلك فقد اختلف العلماء فى هذا الغلام ، هل هو صبى صغير ، أو شاب بالغ ؟

فقال بعضهم انه كان صغيرا لم يبلغ الحلم بعد ، واستدلوا بقول موسى (أقتلت نفسا زكية) أى بريئة من ارتكاب الذنوب والمعاصى ، وقالوا ان لفظ الغلام وان كان يجوز اطلاقه على كل الأعمار ، الا أن اطلاقه على الصغير الذى لم يبلغ ، أكثر

اطلاقا وشيوعا ، وهو الذى غالبا ما ينصرف الذهن اليه .

وذهب البعض الى أنه كان شابا بالغا ، وقالوا ان لفظ الغلام حقيقة فى ذلك ، لأنه مشتق من الغلمة - وهى كما سبق - هيجان شهوة النكاح ، وهى التى توجد فى الشاب البالغ ، واطلاقه على الصغير من قبيل تسمية الشىء باسم ما يؤول اليه .

وقالوا أيضا : وعلى فرض أن اللفظ يطلق حقيقة على الصغير ، فان العرب تبقى هذا الاطلاق عليه الى أن يشب والى أن يشيب .

وأيضا فان قول موسى (بغير حق) يدل على أنه كبير ، فلو كان صغيرا لم يجب قتله ، سواء بنفس ، أم بغير نفس ، لأن الصغير لا قصاص عليه .

وقالوا : أما وصف موسى له بقوله (أقتلت نفسا زكية) فلأن موسى لم يره أذنب أمامه ذنبا ، حتى يحكم على نفس هذا الغلام بأنها نفس غير زكية .

ورغم وجاهة ما يقوله هؤلاء العلماء ، فانى أميل الى ترجيح رأى من قال ان الغلام كان صغيرا ، لأن الشائع فى العرف أن هذا اللفظ اذا أطلق فانما يراد به الصغير ، كقولك : قابلت غلاما فى الطريق ، ونحو ذلك .

وأيضا فان أفعال الخضر قائمة على كونها عجيبة غريبة ، واعتبار الصغر فى هذا المقام أعجب وأغرب ، ولذلك لم يستطع موسى صبرا تجاه قتله ، رغم التوكيد الشديد عليه من الخضر بالصبر على كل ما يراه منه .

أما ما ذكره أصحاب الرأى الثانى من أن قول موسى (بغير

نفس) يدل على أن المعنى : بغير حق قصاص فيكون كبيرا ، اذ أن الصبى لا قصاص عليه فيقول عنه الآلوسى : « وأجاب النووى والكرمانى بأن المراد التنبيه على أن قتله بغير حق ، الا أنه خص حق القصاص بالنفى لأنه الأنسب بمقام القتل ، أو أن شرعهم كان ايجاب القصاص على الصبى ، وقد نقل المحدثون كالبيهقى فى كتاب المعرفة أنه كان فى شرعنا كذلك قبل الهجرة ، وقال السبكى : قبل أحد ، ثم نسخ »(٧) ٠

ونستطيع أن نضيف الى ما قاله علماؤنا أيضا أن قتل هذا الصغير كان بأمر من الله ، لأنه كان كافرا ، كما سيتضح بعد ذلك ان شاء الله تعالى ٠

أما عن كيفية هذا القتل ، فلم ترد - كما هو ظاهر - فى القرآن ، ولكن السنة وضحتها ، حيث جاء فى البخارى : « ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل اذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده ، فاقتلعه بيده ، فقتله ٠ » ومثلها فى صحيح مسلم وفى سنن الترمذى ، وفى الرواية التى بعدها يروى البخارى أيضا ، قال سعيد : « وجد غلمانا يلعبون ، فأخذ غلاما كافرا ، ظريفا فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين » ٠

وفى رواية الباب الثالث يروى البخارى « اذا هما بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر برأسه فقطعه ٠ » وفى رواية لابن جرير الطبرى أنه أخذ حجرا فقتله به(*) ٠

---

(٧) روح المعانى : ١٥/٣٣٩ ٠
(*) جامع البيان لابن جرير الطبرى : ١٥/٢٨٠ ٠

ولا تعارض بين هذه الروايات ، ويجمع بينهما بأن الخضر قد فعل ذلك كله مع الغلام ، يقول ابن حجر تعقيبا على روايتى البخارى : « ويجمع بينهما بأنه ذبحه ثم اقتلع رأسه ، وفى رواية أخرى عند الطبرى « فأخذ صخرة فثلغ رأسه » والأول أصح ، ويمكن أن يكون ضرب رأسه بالصخرة ، ثم ذبحه، وقطع رأسه . »(٨) .

كما تدلنا صحاح الأحاديث على أن هذا الغلام كان كافرا ، ففى رواية البخارى السابقة (فأخذ غلاما كافرا) وفى رواية مسلم (وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا ،) وفى رواية الترمذى (عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا » ، وقال عند الترمذى : (حسن صحيح غريب ،)(٩) .

أما ما جاء فى صحيح البخارى : (وكان ابن عباس قرأ زكية (زاكية) مسلمة كقولك غلاما زكيا) فهذا اجتهاد من الراوى ، وليس من قول الرسول ﷺ ، أو قول موسى أو الخضر ، فلا يرد الأحاديث السابقة ، ولذلك يقول ابن حجر : « قوله (زاكية مسلمة كقولك غلاما زكيا ،) هو تفسير من الراوى ، ويشير الى القراءتين ، أى أن قراءة ابن عباس بصيغة المبالغة ، والقراءة الأخرى باسم الفاعل ، بمعنى مسلمة ، وانما أطلق ذلك موسى على حسب ظاهر الغلام ، لكن اختلف فى ضبط

---

(٨) فتح البارى : ٢٧٢/٨ .

(٩) أنظر صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل الخضر ، وسنن الترمذى فى تفسير سورة الكهف .

(مسلمة) ، فالأكثرون بسكون السين وكسر اللام ، ولبعضهم بفتح السين ، وتشديد اللام المفتوحة . »(١٠) .

وعلى ذلك فان الغلام كان كافرا .

وقد يقول قائل : كيف توفق بين هذه الأحاديث ، التى تنص على أن الغلام طبع يوم طبع كافرا ، وبين ما صح فى السنة من أن كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ؟

والجواب : أن هذا الغلام مستثنى ممن يولدون على الاسلام ، كما أن مريم ابنة عمران ، وابنها عيسى عليهما السلام استثنيا ممن يطعنهم الشيطان حين الولادة ، فيستهلون صارخين .

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : (ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا ، من مس الشيطان اياه ، الا مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا ان شئتم « **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** . »(١١) .

والفاء فى قوله (فقتله) للترتيب والتعقيب ، فتفيد أن الخضر بمجرد أن رأى هذا الغلام أسرع بقتله دون ابطاء .

ولم تدخل الفاء على الخرق ودخلت على القتل : لأن الخرق جعل جزاء للشرط . أما القتل فلم يجعل جزاء ، ولكنه جعل من جملة الشرط معطوفا بالفاء .

---

(١٠) فتح البارى : ٢٧٢/٨ .

(١١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة آل عمران : الآية ٣٦ ، ومسلم فى كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .

وقد يسأل سائل : ما السر فى جعل الخرق جزاء للشرط ، بخلاف القتل ، الذى جعل من جملة الشرط بالعطف ؟

والجواب : لما كان الاعتراض فى واقعة قتل الغلام أهم ، والاعتناء بشأنه أعظم ، جعل جزاء لاذا الشرطية ، ثم لما تعين هذا الاعتراض جزاء للشرط ، لم يكن مفر من جعل القتل من جملة الشرط ، بطريق العطف ، وأوثر التعبير بالفاء دون غيرها من حروف العطف لافادة الترتيب والتعقيب - كما سبق توضيحه - .

ولما كان الاعتراض فى واقعة خرق السفينة أقل أهمية ، بالمقارنة بالاعتراض على قتل الغلام ، جعل الخرق هو الجزاء ، وجعل الاعتراض مستأنفا .

وبعد أن ذكر الله قتل الخضر لهذا الغلام من أول لحظة وقع فيها بصره عليه حكى لنا موقف موسى من هذا التصرف ، فقال (قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس) .

والاستفهام هنا للانكار ، حيث أنكر موسى فعل الخضر ، وأكد انكاره هذا بقوله (لقد جئت شيئا نكرا) .

والنفس فى لغة العرب لها اطلاقان ، أحدهما روح الانسان ، يقولون خرجت نفس فلان ، أى روحه ، وثانيهما حقيقة الشىء بجملته ، الشاملة للجسد والروح معا ، يقولون قتل فلان نفسه ، أى أوقع الاهلاك ، بذاته كلها ، ولكل انسان نفسان ، نفس للحياة ، ونفس للتمييز ، فالتى للتمييز تفارقه اذا نام ، وتعود اليه اذا استيقظ ، أما التى للحياة فلا تفارقه مادام حيا ، نائما كان أو يقظان ، صحيحا كان أو مريضا ، فاذا خرجت منه مات ، وانتهت دنياه ، قال تعالى « **الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها** »(١٢) .

---

(١٢) الزمر : ٤٢ .

وقوله (زكية) مشتق من الزكاة ، بمعنى الصلاح ، قال صاحب لسان العرب : (الزكاة : الصلاح ، ورجل تقى زكى ، أى زاك من قوم أتقياء أزكياء ، وقد زكى زكاء ، بفتح الزاى ، وزكوا ، بضم الأول والثانى وتشديد الثالث ، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو (زاكية) بالألف ، والباقون بغير ألف ، وهما بمعنى واحد ، والمراد نفسا طاهرة ، الا أن (زكية) أبلغ من (زاكية) للمبالغة الموجودة فى (فعيل) المحول من (فاعل) ، وأيضا فهو صفة مشبهة دالة على الثبوت ، وعلى أى حال فوصف النفس بهذه الصفة لزيادة تهويل ما فعله الخضر . وانما وصف موسى هذه النفس التى قتلها الخضر بأنها نفس زكية مع أنها فى واقع الأمر نفس خبيثة ، لكفرها ، لأن هذا بحسب علمه ، حيث لم يرها قد أذنبت أمامه ، أو لأنه رآها صغيرة ، لم تصل الى سن العصيان والفجور .

وقوله (بغير نفس) يعنى أن هذه النفس التى قتلتها لم تقتل نفسا أخرى ، حتى تقتلها أنت ، بطريق القصاص .

وقد يقول قائل ان قتل النفس التى أحل الله قتلها يكون بأكثر من سبب ، كالزنا بعد الاحصان ، والكفر بعد الايمان ، وليس خاصا بهذا السبب الذى اختاره موسى ، فلم خصص موسى هذا السبب ؟

والجواب : أن هذا السبب الذى اختاره موسى هو السبب الأقوى ، والأقرب الى الحدوث ، بالنظر الى سن الغلام ، وحاله .

وقوله (بغير نفس) جار ومجرور متعلق بقوله (قتلت) ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، والتقدير : قتلت قتلا بغير نفس .

هـذا ، ولـم يـرد فى القـرآن ، وصحيح السـنة تعيـين اسـم هـذا الغـلام واسـم أبويـه ، وما ورد فى ذلك فهو من الاسرائيليات . ثم يزيـد موسى من انكـاره على الخضـر ما فعـل بقـوله (لقد جئت شـيئا نكـرا) حيث أتى بلام القسـم ، وبقـد التى تفيـد التحقيق ، وبوصـف ما ارتكبـه بالنـكر .

والنـكر بتسـكين الكـاف وضمها - وبهمـا قـرىء متـواترا - : المنـكر ، والمنـكر كـل ما قبحـه الشـرع ، وحـرمه ، وكرهه - بفتـح الأول ، والثـانى ، وتشـديده .

وانمـا وصـف الخـرق بكـونه امـرا ، والقتـل بكونه نكـرا ، لأن القتـل أنكـر وأعظـم من الخـرق ، لفظـا وحقيقـة ، أمـا من ناحيـة اللفـظ : فتـأمل قـول الراجـز :

لقـد لـقى الأقـران منى نكـرا
داهيـة دهيـاء إدا إمـرا

لقـد فسـر الراجـز النـكر بكـونه داهيـة ، ووصفها بأكثـر من صـفة ، وجعـل الامـر صـفة من بعض صفاتها .

هـذا من ناحيـة اللفـظ ، أمـا من ناحيـة الحقيقة وواقـع الأمـر فـان القتـل هـلاك محقق للنفس ، قـد وقـع ، أمـا الخـرق فأقصى أمـره أن يكون سـببا للهـلاك مـع أنه فى الواقـع لـم يكن سـببا ، لأن الخـرق - كمـا سـبق توضيحه - كـان فى أعـلى السفينة ، فى مكـان ظاهـر ، حتى يظهـر عيبهـا للمـلك الظـالم ، فـلا يأخذهـا غصـبا من المسـاكين .

وبعض العلمـاء قـال ان الامـر أعظـم من النـكر ، لأن القتـل لـم يشـمل الا اتـلاف نفس واحـدة ، أمـا الخـرق فيؤدى الى هـلاك نفـوس كثيـرة ، وقـالوا ان الامـر هـو الداهيـة العظيمـة ، والنكـر

يكون أقل من ذلك ، فدل على أن الامر أبلغ من النكر ٠

ويجاب على هؤلاء بما سبق أن ذكرنا من أن القتل هلاك محقق ، قد وقع بالفعل ، أما الخرق ، فليس فيه هلاك ، ولا هو سبب فيه ، والا لما أقدم عليه الخضر ، لعدم مسوغ لذلك ، ولكن المراد منه كان احداث عيب ظاهر فى أعلى السفينة ، حتى يشاهده الملك الظالم فلا يأخذ تلك السفينة ، ويمكن تدارك الخرق بالسد ، بعد ذلك ، أما القتل فلا وسيلة لتداركه ، واعادة الحياة مرة ثانية ٠

أما قولهم ان الأمر هو الداهية العظيمة ، والنكر يستعمل فيما هو أقل من ذلك ، فنقول لهم : نعم قد يطلق النكر على صغائر المحرمات والمكروهات ، ولكن ذلك لا يعنى قصره عليها ، وعدم تناولها للموبقات ، كالشرك والقتل والزنا ، ويكفينا من ناحية المقارنة اللفظية بين الإمر والنكر ، ما سقناه آنفا من قول الراجز ، حينما ذكر النكر ، ثم فسره بالداهية ، ثم وصف هذه الداهية بعدة صفات ، وجعل الإمر بعض صفاتها ٠

وبعد أن قابل موسى ما شاهده من تصرف الخضر ، بعجب وانكار شديدين ، وازدادت لهجة الاعتراض حدة وسخونة ، قابل الخضر هذا الاعتراض بلوم أشد ، وعتاب أكبر ، مما لامه وعاتبه به فى المرة الأولى حيث قال له (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) ؟

فزاد فى هذا الرد كلمة (لك) زيادة فى العتاب على عدم العمل بما وصاه به ، من عدم المناقشة فيما يراه ، فضلا عن الاعتراض ، وزيادة فى اللوم على عدم الالتزام بما ألزم به موسى نفسه من الصبر ، في تلك الصحبة ، فلئن كان موسى قد

نسى فى المرة الأولى وصية الخضر ، ونسى الوفاء بما به التزم ، فما حجته فى المرة الثانية ؟ ولذلك كان أهلا لزيادة ذلك العتاب ، وهذا اللوم .

وأمام هذا الاعتراض المتكرر من موسى على ما يشاهد من أمور لم يقف على وجه الحكمة فيها ، وهذا العتاب واللوم المتكرر من الخضر ، أحس موسى من نفسه عدم القدرة على استمرار تلك الصحبة ، وحينئذ أعطى للخضر الفرصة الأخيرة التى ان حدث بعدها اعتراض ، أو مناقشة فان الخضر فى حل من تلك الصحبة ، حيث قال له :

(ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى) .

روى مسلم فى صحيحه فى هذه القصة أن رسول الله ﷺ قال عند هذا المكان : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لرأى العجب ، ولكنه أخذته من صاحبة الذمامة(١٣) ، قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذرا ، ولو صبر لرأى العجب » .

والضمير فى قوله (بعدها) يعود على المناقشة الثانية ، فى أمر القتل ، وقوله (فلا تصاحبنى) قرأه يعقوب (فلا تصحبنى) بلا ألف ، وقرأه الباقون بالألف ، والمعنى : ان فعلت أنت شيئا واعترضت أنا عليه ، أو ناقشتك فى أمره فلك أن تقطع هذه الصحبة ، وتفارقنى ، وتذهب الى حال سبيلك ، بعيدا عنى .

ثم يصدر عن موسى أدب عظيم من آداب النبوة ، ليمهد

---

(١٣) الذمامة بفتح الذال الحياء والاشفاق خوف أن يذم أو يلام .

للخضر - ان حدث منه اعتراض - الفراق ، دونى أدنى تحرج ، أو ضيق ، حيث يقول له :

(قد بلغت من لدنى عذرا) ، والعذر : الحجة التى يعتذر بها ، والمعتذر قد يكون محقا ، وقد يكون غير محق ، قال تعالى « **يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا ، لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم** »(١٤) ومعنى لا تعتذروا : أى لا عذر ولا حجة لكم .

ولكن موسى عليه السلام لا يدع الخضر يقدم اعتذارا له على قطع الصحبة له ، ان لم يلتزم موسى بما تشارطا عليه قبلها ، بل يقول له أنا الذى أعذرك على ذلك ، حيث قامت لك الحجة الكاملة على عدم أهليتى لصحبتك .

وعلى ذلك يكون معنى قوله : (**قد بلغت من لدنى عذرا**) قد قدمت عذرا ووجدت منى قبولا له ، حيث خالفتك ثلاث مرات .

فموسى بقوله هذا يمدح أستاذه ، حيث احتمله مرتين ، مع قرب الزمن بينهما .

وبعد أن شرط موسى هذا الشرط - كما قال ﷺ فيما ذكرناه قبل ذلك : « وكانت الوسطى شرطا » - تستمر تلك الصحبة ، وينطلق الأستاذ مع تلميذه سائرين ، واذا بفعل ثالث للخضر ، وعنه يقول تعالى : « **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدار ... الخ** » .

والفاء فى قوله (فانطلقا) فاء الفصيحة ، أى فقبل الخضر شرط موسى فانطلقا سائرين حتى وصلا الى احدى القرى ، و (اذا) شرطية ، وجوابها قوله (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) .

---

(١٤) التوبة : ٩٤ .

والقـرية فى اللغـة : المصر الجـامع ، والقـرية من المسـاكن والأبنيـة والضيـاع ، وقـد تطلق على المـدن ٠

واختلف العلمـاء فى تعيـين هـذه القـرية ، فقيـل انهـا أنطاكية، وقيـل انهـا الأبلة ، وقيـل هى قـرية بناحيـة أذربيجـان ، وقيـل قـرية من قـرى الـروم ، يقـال لهـا ناصـرة ، الى غيـر ذلك من الأقـوال ، التى نشـأت تبعـا لاختلافهم فى أى ناحيـة من الأرض كانت هـذه القصـة ، ولم يـرد فى القـرآن والسـنة ما يعينهـا ، لعـدم فـائدة تعـود على النـاس دنيـا ودينـا ، فـلا نشـغل أنفسنا بمثـل هذه الجزئيات ، التى لا تمت الى العبرة من قريب أو من بعيد ٠

والسـين والتـاء فى (استطعما أهلهـا) للطلب ، أى طلبـا منهمـا طعـاما ليسـدا بـه جوعهمـا ٠

وطلبهمـا للطعـام كـان على وجـه الضـيافة ، ويـدل على ذلك التعبيـر بقـوله تعـالى (**فأبوا أن يضيفوهما**) ، دون أن يقـول فأبوا أن يطعموهما ، كمـا يقتضيه ظاهـر قـوله (استطعما أهلهـا) ٠

ولكن عبـر بالفعـل (استطعما) دون الفعـل استضافا : لافـادة أن هدفهمـا الأهـم هـو حاجتهما الى الطعـام ، وليس مجـرد الايواء الى منـزل من المنـازل ٠

وجمـلة (استطعما أهلهـا) فى محـل جـر ، صـفة لقـرية ، لأنهـا نكـرة ٠

وكـان مقتضى الكـلام - وقـد سـبق لأهـل القـرية ذكـر - أن يؤتى بضميرهم ، بدلا من اسـمهم الظاهـر ، فيقـال : استطعماهم ، ولكن عـدل الى هـذا ليعـلم أنهمـا استطعما أهـل هـذه القـرية بيتا بيتـا ، لـم يتركوا بيتـا واحـدا - من شـدة الجـوع - الا وقد طرقوه ، ولكن الأهـل جميعـا كانـوا بخـلاء لئـاما ، حتى صـار حـديث بخلهم

فى القرآن كلاما ، ولو قيل استطعماهم لتوهم أنهم طلبوا الطعام من بعضهم لا من كلهم ٠

قال الآلوسى : « أتى بالظاهر اشعارا بتأكيد العموم فيه ، وأنهما لم يتركا أحدا من أهلها حتى استطعماه وأبى ، ومع ذلك قوبلوا بأحسن الجزاء »(١٥) ٠

وقد يقول قائل : ان طلب الطعام من الأنام ليس من شيم الكرام ، فكيف اذا كان من موسى والخضر عليهما السلام ؟

ويجاب عن ذلك :

١ - بأن هذا فى حق الجائع أمر جائز ، فى كل الشرائع ، فلا حظر فيه ، بل قد يصل الى درجة الوجوب ، عند الخوف الشديد على حياة ذلك الجائع ، قال الماوردى : « وكان الطلب منهما لفاقة عذرا فيهما ، والمنع من أهل القرية لشح أثموا به »(١٦) ٠

٢ - فاذا أضفنا الى جوعهما الشديد سببا ثانيا ، وهو غربتهما عن أهلهما ووطنهما ، وعدم وجود قرابة لهما فى هذه القرية ٠

٣ - وسببا ثالثا ، وهو أن هذا الاستطعام كان سببا مباشرا من تقدير الله اللطيف الخبير ، لتنتهى به تلك الصحبة ، كما سيتضح الآن ٠ ان شاء الله ٠

اذا أضفنا كل ذلك الى ما سبق علمنا أن استطعامهما أهل هذه القرية أمر لا غبار عليه ، ولا حرج فيه ٠

---

(١٥) روح المعانى : ٣/١٦ ٠
(١٦) تفسير الماوردى : ٤٩٩/٢ ٠

وبعد أن ذكر الله استطعام موسى والخضر أهل هذه القرية ، ذكر لنا موقفهم فقال : (فأبوا أن يضيفوهما) ، والاباء أشد الامتناع ، كما قال صاحب لسان العرب ، وذلك لما فيه من الامتناع ، مع زيادة كراهة الشىء الممتنع منه ، قال صاحب لسان العرب أيضا : « أبى الشىء يأباه اباء واباءة كرهه » ، ولذلك عبر الله به ، دون أن يقول : فلم يضيفوهما ، مع أنه أخصر ، ولكنه أراد أن يزيدهم ذما بذلك .

والضيافة : النزول عند شخص أو قوم ، والميل اليه أو اليهم ، من قولهم : أضفت الشىء الى الشىء ، أى أملته ، ومن قولهم : ضاف السهم عن الغرض ، أى مال عنه ولم يصبه ، وكل ما أضيف الى شىء وأسند اليه فقد أضيف ، ويقال : ضفت الرجل ضيفا وضيافة ، نزلت به ضيفا ، وملت اليه(١٧) . ، والضيف يكون للواحد ، والجمع ، قال تعالى : « **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** »(١٨) .

فهذه الجملة أعنى قوله تعالى (فأبوا أن يضيفوهما) ـ تدل على أن أهل القرية امتنعوا عن ضيافتهما امتناعا شديدا ، وصل الى حد كراهة ضيافتهما ، رغم جوعهما الشديد ، وغربتهما عن الأهل والوطن ، فكانوا بذلك قوما لئاما ، كما وصفهم الرسول ﷺ فى رواية مسلم حيث يقول : « فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية لئاما ، فطافا فى المجالس ، فاستطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما » .

وفى التعبير بقوله (فأبوا أن يضيفوهما) دون التعبير بأبوا

---

(١٧) أنظر لسان العرب : (أبى) و (ضيف) .
(١٨) الذاريات : ٢٤ .

أن يطعموهما تشنيع شديد ، وذم كبير ، لأهل هذه القرية ، لأن الكريم ربما يرد مستطعما ولا يذم أو يعاب ، بخلاف ما لو رد غريبا جائعا طلب منه أن يضيفه ، فحينئذ يكون قد جعل نفسه عرضة للذم والهجاء ، ومن أشنع ما تهجو به العرب قولهم « فلان يطرد الضيف » .

ومما يؤثر عن قتادة قوله : (شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ، ولا يعرف لابن السبيل حقه) .

وقد يقول قائل إن الضيافة من الأمور المندوبة ، وليست من الواجبات ، فكيف يغضب موسى هذا الغضب الشديد ، الذى جعله ينقض الشرط الذى أبرمه مع الخضر ؟

والجواب : ان كون الضيافة من الأمور المندوبة ليس فى جميع الأحوال ، بل قد يصل أمرها الى حد الوجوب ، فى حالة ما اذا لم يطعم المستطعم لهلك ، وفى حالة الجوع الشديد ، وموسى والخضر قد وصل بهم الجوع الى درجة شديدة والا ما أقدموا على هذا الاستطعام ، وهما من هما ، حياء وأدبا !!

وقوله (يضيفوهما) قرأه الجمهور بالتشديد بفتح الضاد ، وتشديد الياء وكسرها من ضيف - بفتح الأول والثانى وتشديده ، وقرأه عاصم بكسر الضاد وتسكين الياء ، من أضاف ، وهذا كما فى ميل - بفتح الأول والثانى وتشديده - وأمال .

وبعد أن رفض أهل القرية أن يضيفوا الخضر وموسى ، وبينما هما يسيران فى أنحائها اذا بهما يشاهدان جدارا آيلا للسقوط ، وعن هذا الجدار وموقفهما منه يقول تعالى : **« فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه »** فالفاء فى قوله (فوجدا) للعطف ، عطفت (وجدا) على (أتيا) .

والجدار : الحائط ، من قولهم جدره ـ بفتح الأول والثانى والثالث بمعنى حوطه ، بفتح الأول والثانى وتشديده ٠

والمراد بالانقضاض هنا : السقوط بسرعة ، كما يقال انقض الشهاب والمطر ، أى سقط بسرعة شديدة ، فالجدار هذا كان مائلا ميلا شديدا وعلى وشك السقوط السريع ٠

والكلام فى قوله (يريد أن ينقض) على سبيل الاستعارة ، حيث استعيرت الارادة للمشارفة ، للمبالغة فى ذلك ، وبهذا يرد على من يقول ان الارادة من صفات الأحياء ، فكيف عبر بها فى جانب الجمادات ؟

فالقرآن عربى ، قد جرى على أساليب العرب فى كلامهم ، وهم يستعيرون فى كلامهم للجماد ومالا يعقل ، صفات خاصة بالأحياء والعقلاء ، كالقول والشكاية ، والصدق والكذب ، والطواعية والاباء ، والصمت والتمرد ، ومن الأمثلة لذلك قول عنترة ، وهو يتحدث عن فرسه أثناء لهيب المعارك :

*** وشكا إلى بعبرة وتحمحم ***

يقول ان فرسه شكا اليه شدة الحرب بالدمع والصهيل الذى يشبه الحنين ٠ ومنه قول القائل :

*** فإن يك ظنى صادقا وهو صادقى ***

وقول الآخر :

يريد الرمح صدر أبى براء

ويعدل عن دماء بنى عقيل

ومنه قوله تعالى : « **ولما سكت عن موسى الغضب** »(١٩) ، وغير ذلك كثير وكثير فى القرآن والسنة ، وأشعار العرب ، ونثرها ، مما يستحيل على الانسان حصره ٠

قال القرطبى : « وفيه دليل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب الجمهور ، وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق متى أسندت الى جماد ، أو بهيمة ، فانما هى استعارة ، أى لو كان مكانهما انسان لكان ممتثلا لذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارها كثير »(٢٠) ٠

وبمجرد أن رأى الخضر هذا الجدار الآيل للسقوط هكذا أسرع باصلاح شأنه ، قال تعالى (فأقامه) ، فالفاء للترتيب والتعقيب ٠

أما معنى (فأقامه) ، فقد اختلف فيه ، فقيل نقضه وبناه ، وقيل مسحه بيده ، فقام واستوى وكان هذا كرامة للخضر ، وأيا كان الأمر ، فان المراد أن الخضر قام باصلاح شأن هذا الجدار ، وجعله قويا متينا بعد أن قارب السقوط ، ولم يقابل شحهم وبخلهم بما هم أهل له ، من عدم معاونتهم ، والشفقة بهم ٠

وما أن أقام الخضر هذا الجدار ، حتى استشاط موسى غيظا ، لقد رأى أن الواجب تجاه أهل هذه القرية اللئام ، اللذين تركوهما يعانيان الحرمان الشديد ، والجوع القاسى ، حتى لحظتهما تلك ، رأى أن الواجب تجاههم أن لا يعانوا على أمورهم

---

(١٩) الأعراف : ١٥٤ ٠

(٢٠) الجامع لأحكام القرآن : ١١/٢٥ ٠

بدون مقابل ، ولذلك لم يتمالك نفسه أمام الخضر ، وقال له (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) ، أى جزاء على العمل ٠

وهذه الجملة لا يراد بها ظاهرها ، من الاخبار ، وانما يقصد بها :

١ - حث وتحضيض الخضر على أخذ أجر ، يستعينان به ، فى أمر طعامهما ، ومهامهما ، أى هلا أخذت أجرا يعيننا على حاجتنا ٠

٢ - وفيه لوم على ترك الأجر ، (أى كان ينبغى لك أن تأخذ منهم جعلا ، على فعلك لتقصيرهم فينا ، مع حاجتنا ٠

٣ - وقيل فيه تعريض بأن الاشتغال باصلاح الجدار فضول ، أى فعل زائد لا يهمنا ، وليس لنا فيه فائدة ، فهو من فضول العمل ٠) (٢١) ٠

وحينما سمع الخضر من موسى هذا الكلام ، الذى يحمل فى طياته الاعتراض ، واللوم والتعريض ، أخبره بانتهاء تلك الصحبة ، وبضرورة ذهاب كل منهما الى حال سبيله ، حيث قال له (هذا فراق بينى وبينك) ٠

واسم الاشارة يعود على اعتراض موسى الثالث ، أو على الوقت الذى حدث فيه هذا الاعتراض ٠

والفراق : مصدر فارق الشيء فراقا ومفارقة ، بمعنى باينه ، وانفصل عنه ٠

وال (بين) يستعمل اسما ، ويستعمل ظرفا ، وان استعمل اسما فيأتى على وجهين ، بمعنى الفرقة ، وبمعنى الوصل ،

---

(٢١) تفسير الجمل (الفتوحات الالهية) : ٣٩/٣ ٠

فهو من الأضداد ، يقال فى الفرقة : بان يبين بينا ، وبينونة ، ومما جاء فيه بمعنى الوصل قول الشاعر :

لعمرك لولا البين لا يقطع الهوى

ولولا الهوى ما حن للبين آلف

ومنه قوله تعالى « **لقد تقطع بينكم** »(٢٢) على قراءة الرفع ، على الفاعلية ، بمعنى لقد تقطع وصلكم .

وعلى هذا فان نظرنا الى (بين) فى هذه الجملة على أنها اسم ، يكون البين بمعنى الاتصال - كما قال الفخر الرازى - « هذا فراق بيننا : أى اتصالنا »(٢٣) . فيكون معنى قوله (هذا فراق بينى وبينك) : أى هذا الاعتراض سبب فراق اتصالنا ، أو هذا الوقت وقت فراق اتصالنا ، حسبما يعود اسم الاشارة .

وان نظرنا الى (بين) على أنها ظرف ، فيكون اضافة فراق اليه من اضافة المصدر الى الظرف ، كما يضاف الى المفعول به ، والأصل : هذا فراق بينى وبينك ، بتنوين (فراق) ، والمعنى حينئذ :

هذا الاعتراض الثالث سبب الفراق بيننا ، أو هذا الوقت وقت فراق بيننا ، حسبما يعود اسم الاشارة .

وقبل أن يترك الخضر موسى ويفارقه أراد أن يبين له وجه الحكمة فيما فعله واعترض عليه ، فقال له (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) .

---

(٢٢) الأنعام :
(٢٣) مفاتيح الغيب .

والسين هنا لتأكيد اخباره فى الحال ، حيث لا يقع تراخ منه فى البيان .

والتأويل - كما قال ابن الأثير - من آل الشىء يؤول الى كذا ، أى رجع وصار اليه(٢٤) ، وتأويل الكلام بيانه على الوجه المراد منه ، وتفسيره على المعنى الذى لابد اليه يرجع ويصير .

والمراد به هنا : مآل وعاقبة ومصير الأمور العجيبة التى أنكر موسى على الخضر فعلها .

وعليه فيكون معنى قوله (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أى سأخبرك بعاقبة - وحكمة ما أنكرت على فعله .

ولم يقل الخضر سأنبئك بتأويل ما فعلت أو نحوه ، ولكن عبر عنه بعدم استطاعة موسى للصبر عليه :

١ - ليعرض بموسى ، حيث أخذ على نفسه الميثاق بالصبر ، ولكنه لم يف بما عاهد عليه ، بل زاد على ذلك ، بأن ناقش واعترض .

٢ - وليثير فيه مزيدا من الاقبال والتوجه ، وحسن الانصات والتدبر ، لما سيخبره به .

وهكذا لم يستطع موسى صبرا على ما يراه من عجائب الأمور، وغرائب الفعال ، وقطع علينا رحمه الله تشوقنا الى استماع المزيد من هذه الأعاجيب .

أما تأويل الخضر لما حدث منه ، وما أنكره موسى عليه ، فذاك ما سنعرفه فى المشهد الرابع ان شاء الله ، بعد بيان المعنى العام لآيات هذا المشهد الثالث ، واستخراج العبر منها .

---

(٢٤) لسان العرب : (أول) .

(المعنى العام لآيات المشهد الثالث)

من الآية (٧١) الى الآية (٧٨)

بعد أن ذكر الله فى المشهد السابق الحوار الذى جرى بين موسى والخضر ، وما تشارطا عليه ، حتى تكون هناك صحبة علمية ، ووضح فيه كيف أخذ موسى على نفسه العهد الأكيد ، بالصبر الشديد على ما يراه ، وكيف طلب اليه الخضر أن لا يفاتحه - عندما يراه يفعل أمرا لا يعجبه - ، فضلا عن الاعتراض عليه ، بعد أن ذكر الله ذلك فى المشهد السابق ، شرع سبحانه فى بيان ما حدث بعد ذلك ، حيث يدخل موسى عليه السلام فى تجربة ميدانية ، ليظهر الله له الفرق بين علمه - أى علم موسى - وعلم هذا العبد الصالح ، واذا بهما ينطلقان في سيرهما على ساحل البحر ، ويريدان أن يعبراه الى الجهة الأخرى ، فتأتى سفينة من صغار السفن ، يعرف أصحابها الخضر ، فيرحبون به ، ويكرمونه ، حيث رفضوا أخذ أجرة منهما ، مقابل نقلهما ، واذا بموسى يفاجأ بما لم يتوقعه ، انه - وهو النبى المرسل - يعلم أن جزاء الاحسان لا يكون الا بالاحسان ، ولكنه وجد الخضر يقتلع لوحا من السفينة ، وأهلها عنه غافلون ، ولخرقها غير مشاهدين ، فيعترض عليه ، ان أهلها قد أكرمونا ورحبوا بنا ، وقدرونا ، فلا يليق بلئام الناس أن يقابلوا هذا الاحسان بمثل ذلك الفعل ، فضلا عمن يعلمهم الله من لدنه علما ، أفعلت هذا الفعل ليهلك أهلها غرقا ، لقد ارتكبت ذنبا عظيما ، وفعلا شنيعا ، قال موسى هذا القول فى لحظة ذهول ، قالها وهو دهش بسبب ما رآه ، ونسى ما وعد به الخضر ، وما عليه تشارطا ، فيذكره الخضر بوعده بالصبر ، وبما عليه تعاهدا ، وكيف أنه بين له خطورة تلك الرحلة ووضح له أنه ليس أهلا لتحمل ما يراه ، فلا

يستطيع أن يحبس ما يدور فى خاطره من اعتراضات ، وما يقف على لسانه من لوم العبارات ، ولكن موسى يعتذر للخضر بأنه نسى وعده بالصبر ، ونسى ذلك الشرط الذى له رضخ ، وعليه عاهد ، وأحس الخضر بصدق موسى فى عذره ، فقبل قوله ، واستمرا فى رحلتهما فى البحر ، حتى اذا نزلا من السفينة وانطلقا يسيران على الساحل اذا بموسى عليه السلام يدخل فى تجربة أشد ، واذا بصبره يتعرض لامتحان قاس لم يعهد له من قبل مثيلا ، انه الآن فى ميدان يتضح له فيه أن هناك فرقا بين الأقوال النظرية والتجارب العملية ، وهاهو أمام الامتحان الثانى ، انهما على الساحل يسيران ، وتقع عين الخضر على غلام يلعب مع الغلمان ، وبسرعة البرق تمتد اليه يد الخضر وسكينه ، ليذبحه بها ، ويقتلع رأسه من جسده ، فيخر صريعا فى الحال ، يا للهول ، ويا لشناعة ما فعل الخضر ، هذا ما دار فى نفس موسى بلسان الحال ، ولكن لماذا يسكت ولا ينكر عليه أيضا بلسان المقال ، لم يتمالك موسى نفسه ، وهو المعروف بالغيرة الشديدة ، فى مثل هذه الأمور ، انه لم ير هذا الغلام الصغير أذنب ذنبا ، انه فى مرحلة الطفولة ، واللهو البرىء ، فلم يقتله الخضر ؟ ، ولذلك قال له معترضا منكرا (أقتلت نفسا زكية بغير نفس) أى أقتلت انسانا طاهرا من الذنوب والمعاصى بغير ما يوجب قتله ؟ وهذا ـ كما قلنا ـ بحسب علم موسى الظاهر ، لقد فعلت أيها العبد فعلا تنكره كل الشرائع المنزلة ، وكل الطباع السليمة ، والنفوس القويمة ، لقد فعلت ذنبا يعد من كبائر الموبقات ، وعظائم المهلكات ، هكذا لم يتمالك موسى ، ولكنه يعترض اعتراضا شديدا ، ولكن العبد الصالح يعود الى تذكيره مرة ثانية بما تشارطا عليه ، وبصورة فيها نوع لوم أشد من قبل ، حيث لم يجد له مبررا في هذه المرة ، فلئن كان

قد نسى فى المرة الأولى ، وقبل عذره ، فما عذره فى المرة الثانية ، وقد نبه الى وعده ، حتى لا يقع فى المحظور ؟ ، وهنا وأمام هذه العجائب والغرائب أحس موسى بأنه لن يستطيع مصاحبة ذلك العبد ، حيث لم توطن نفسه على صبر يناسب أحوالها ، وعلى ذلك فقد أعطى للخضر فرصة أخيرة ، وشارطه على عدم التدخل فيما يشاهد ، والا فهو فى حل من تلك الصحبة ، وما على الخضر من لوم لو طلب منه الفراق ، لأنه معذور ، ومعه ما يكون به محقا ، لو أمر موسى بأن يذهب الى حال سبيله .

وأمام هذا الأدب النبوى من موسى عليه السلام ، لم يجد الخضر مفرا من قبول شرطه ، واستصحابه معه ، ثم استمر بهما السير ، حتى وصلا الى احدى القرى ، وهناك شعرا بالجوع الشديد ، بعد أن فقدا الزاد ، وتركا الأهل والأوطان ، فماذا يفعلان ؟ لا مفر من استطعام أهل القرية ، وبالفعل طلبا منهم طعاما ، ليسدا به رمقهما ، وليقيما به صلبهما ، ولكن أهل القرية ـ كما جاء فى الحديث ـ كانوا لئاما ، كانوا بخلاء أشحاء ، قرية بأكملها لم يوجد فرد واحد منهم جميعا ، ليقدم ولو رغيفا واحدا لهذين الغريبين الجائعين ، الذين طلبا بأنفسهما الطعام ، انها والله لشر القرى ، كما قال قتادة .

وأثناء سيرهما بين شوارع هذه القرية يقع الامتحان الثالث لموسى عليه السلام ، حيث شاهدا جدارا مائلا آيلا للسقوط ، واذا بالخضر يتقدم منه ويقيمه ، ويسويه ، ويجعله متينا قويا ، وينصرف دون أن يأخذ مقابلا تجاه عمله هذا ، وهنا يسقط موسى فى الامتحان ، حيث يلوم الخضر على ترك الأجر ، ويطالبه بأخذه ، لأنهما فى حاجة الى طعام ، وغير ذلك مما

يحتاج المسافرون ، وأمام هذا الاعتراض واللوم من موسى لم يجد الخضر مفرا ، من ايقاع العقوبة التى حددها موسى بنفسه لو حدث منه أى اعتراض ، ألا وهى الفراق ، ولذلك قال له الخضر مباشرة ، هذا فراق بينى وبينك ، أى هذا الاعتراض سبب فراقنا ، أو هذا الوقت وقت فراقنا ، وقبل أن يفارقه أراد أن يظهر له وجه الحكمة فى كل ما فعل ، حتى يظهر له الفرق بين الحكمة الالهية ، والنظرة الانسانية ، ولكى ماهى هذه الحكم التى لم يعلمها موسى ، والتى لم يستطع صبرا على الأفعال التى من أجلها كانت هذه الحكم ؟ ، ذاك ما تجيب عنه آيات المشهد الأخير ، بعد بيان العبرة المستفادة ، من هذا المشهد الثالث ان شاء الله تعالى .

العبر المستفادة من المشهد الثالث

من الآية (٧١) الى الآية (٧٨)

من تدبرنا لآيات المشهد السابق ، نستطيع أن نخرج منها بعدة عبر ، نقتصر منها على مايأتى :

أولا : أهمية الصبر ، وفضله ...

فالصبر - كما ذكرنا فى التفسير التحليلى - هو حبس النفس على المطلوب ، سواء أكان المطلوب فعلا ، أم تركا .. ، ولذلك كان الصبر موصلا للآمال التى يأملها الانسان ، ولو لم يصبر ما نال ما تمنى ...

ومن هنا فان الخضر عليه السلام قد نبه موسى الى أهميته وصعوبته قبل أن تبدأ صحبتهما ، فقال له (**انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا**) **ولما لم يصبر**

موسى حرم نفسه وحرمنا من رؤية الكثير ، ولذلك قال ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر ، حتى يقص الله علينا من خبرهما ».

ولقد اقتضت سنة الله تعالى فى كونه أن يجعل هذه الحياة مليئة بالمتاعب والمصاعب ، التى منها ما يتعلق بتكاليف الدين ، ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا ، ولذلك وجدنا للصبر أنواعا ، فهناك صبر على الطاعة ، لأن الانسان قد لا يؤديها بسبب الكسل كالصلاة ، ذات الخشوع والخضوع ، ولذلك قال : **« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة آلا على الخاشعين »(٢٥)** ، **وقال « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون »(٢٦)**

وقد لا يؤدى الانسان العبادة ، بسبب البخل كالزكاة ، أو بسببهما معا ، كالحج ، أو بسبب الخوف ، كالجهاد ، وكل ذلك يحتاج الى صبر .

وهناك صبر على المعصية ، وذلك بأن لا يقترب الانسان مما حرم الله ، وهناك صبر علي ما يفقده الانسان من نعم أنعم الله بها عليه .

فان صبر على كل ذلك كان جديرا بأن ينسب الى عالم الرجال ، فالصبر (من عناصر الرجولة الناضجة والبطولة الفارعة ، فان أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل ، والمرء اذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله ، لا يستأجر له أطفالا ، أو مرضى ، أو خوارين ، انما ينتقى له ذوى الكواهل الصلبة ، والمناكب الشداد ، كذلك الحياة : لا ينهض برسالتها الكبرى ، ولا ينقلها من طور الى طور الا رجال عمالقة ، وأبطال صبارون .

---

(٢٥) البقرة : ٤٥ .
(٢٦) المؤمنون : ١ ، ٢ .

ومن ثم كان نصيب القادة من البناء والبلاء مكافئا لما أوتوا من مواهب ، ولما أدوا من أعمال ، وسنة العظمة والاعتداد هى التى أوحت لقائد أمريكى كبير أن يقول : « لا تسأل الله أن يخفف حملك ، ولكن اسأل الله أن يقوى ظهرك . »(٢٧) . وهذا هو ما بينه رسول الله ﷺ حينما سأله سعد بن أبى وقاص : (أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الانبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وان كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، ما عليه خطيئة .)(٢٨) .

والانسان فى صبره هذا لابد أن يفهم أن صبره هذا يعتمد على ركيزتين فى غاية الأهمية ، حتى يستطيع أن يكمل مشوار صبره الى بر النجاة ، بنفس مطمئنة ، وقلب هادىء .

الركيزة الأولى ـ تتعلق بطبيعة الايمان :

فالايمان علاقة بين المؤمن وربه ، وهذه العلاقة شأنها شأن سائر العلاقات ، لا يظهر معدنها ، ولا يكشف عن طبيعتها الا اذا تعرضت لنوائب الدهر ، وحوادث الزمان ، ومر الأيام ، ومن هنا فان علاقة المؤمن بربه لابد وأن تتعرض لما يصهرها فى بوتقة الاختبار ، حتى يكشف عن طيبها ، أو زيفها ، ولذا قال تعالى **« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون »**

---

(٢٧) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالى : ١٢٩ .

(٢٨) أخرجه الترمذى وغيره ، فى كتاب الزهد ، **باب ماجاء فى الصبر على البلاء ، وقال هذا حديث حسن صحيح .**

ثم بين لنا أن هذه الفتنة سنة من سنن الله الكونية فقال : « ولقد فتنا الذين من قبلهم » ثم بين المراد من هذه الفتنة فقال « فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »(٢٩) .

لأن الايمان اذا كان باللسان لاستوى على الطريق المؤمن والمنافق ، والصادق والكاذب ، والمخلص والمخادع ، ومن هنا كان الابتلاء والاختبار ، ومن هنا كانت أهمية الصبر والاصطبار.

أما الركيزة الثانية : فتتعلق بطبيعة الحياة التى نعيشها ، فهذه الحياة ليست دارا للقرار ، والمتاع ، وانما هى دار تكليف وتمحيص ، وهذا التمحيص متعدد الحلقات ، منوع التجارب ، فما يكاد الانسان يخرج من تجربة حتى يدخل فى أخرى ، وما يكاد ينتهى من تمحيص حتى يبدأ فى آخر ، قد يتفق مع سابقه فى نوعه ، وقد يخالفه ، تماما كما يصهر الحديد بالنار ، ثم يقذف بعد ذلك فى الماء ، وهذا ما عناه الحق تبارك وتعالى بقوله « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** »(٣٠) ، وهذا ما فهمه سليمان عليه السلام ، حينما أتى اليه بعرش ملكة سبأ ، فقال « **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** »(٣١) وهذا ما أراده الله بقوله « **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** »(٣٢) .

اذا اتضح للانسان هذان الأمران كان الطريق أمامه نورا ،

---

(٢٩) العنكبوت : ١ ، ٢ .
(٣٠) الأنبياء : ٣٥ .
(٣١) النمل : ٤٠ .
(٣٢) الأعراف : ١٦٨ .

ولذلك قـال ﷺ : « والصبر ضـياء »(٣٣) ، فـاذا ما رأى أمامـه الغيـوم المتتابعـة ، والسحب المتتـالية ، من مصاعب ومتاعب ، وأوذى فى دعـوته الى الله عـز وجـل ، وفى رسالته فى هـذه الحيـاة ، التى بهـا كلف ، ولهـا وبهـا يعيش ، عـرف أن تلك أمـور طبيعية ، ولابد وأن تحـدث فى هـذه الحيـاة ، ووطـن نفسـه على استقبالها فى أى وقـت ، دونمـا اعتراض ، أو انكـار .

عرفنـا الليـالى قبـل ما نزلت بنـا

فلمـا دهتنـا لـم تزدنـا بهـا علمـا

يقـول الشـيخ محمـد الغـزالى : « قـد يكتب القـدر على البعض صنوفا من الابتـلاء ، ربمـا انتهت بمصـارعهم ، وليس أمـام الفـرد الا أن يستقبل البـلاء الوافـد بالصـبر والتسـليم ، ومادامت الحيـاة امتحـانا فلنكرس جهـودنا للنجـاح فيـه .

وامتحـان الحيـاة ليس كـلاما يكتب ، أو أقـوالا توجـه ، انهـا الآلام التى قـد تقتحـم النفس ، وتفتـح اليهـا طريقـا من الرعـب والحـرج ، انهـا النقـائض التى تجعـل الدنيـا تتخـم بطـون الكلاب ، وتنيم صـديقين على الطـوى ، انهـا المظـالم التى تجعـل قـوما يدعـون الألوهية ، وآخـرين يستشـهدون ، وهـم يدافعون عن حقوقهم المنهـوبة .

ان تاريـخ الحيـاة من بـدء الخـلق الى اليـوم مؤسـف ، ومن الحـق أن يشـق المـرء طريقـه فى الحيـاة ، وهـو موقن بأنـه غاص فى الأشـواك والأقـذار »(٣٤) .

---

(٣٣) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء .
(٣٤) خـلق المسلم : ١٢٧ .

من أجل هذا كله كان المسلم مأمورا بالصبر ، حتى ينال جزاء من الله بغير حساب ، فما من عمل الا وله أجر معلوم ، الا الصبر ، ففيه يقول تعالى : « **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** »(٣٥) ٠

وهو وسيلة لتكفير الذنوب ، قال ﷺ : « ما يصيب المسلم من نصب (أى تعب) ولا وصب (أى مرض) ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ٠ »(٣٦) ٠

وهو وسيلة لبلوغ المراتب العالية ، والمنازل السامية ، أخرج الامام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال : « ان العبد اذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله فى جسده أو ماله ، أو فى ولده ، ثم صبر على ذلك ، حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له من الله عز وجل ٠ »(٣٧) ٠

وقال الله عن الصابرين « **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** »(٣٨) ٠

هذه عبرة عظمى من آيات هذا المشهد الثالث من قصة موسى مع الخضر ، ولذلك كانت النتيجة – نتيجة عدم صبر موسى

---

(٣٥) الزمر : ٤٠ ٠

(٣٦) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب المرضى ، باب : ماجاء فى كفارة المرض ٠

(٣٧) أخرجه أحمد فى مسنده : ٥/٢٧٢ ٠

(٣٨) البقرة : ١٥٧ ٠

على ما يراه من الخضر - أن حرم نفسه من التعلم ، وحرمنا من متعة هذه العجائب التى تبين لنا أن الفرق كبير بين الحكمة الالهية المطلقة والحكمة الانسانية المحدودة ، المقصورة على ظواهر الأمور ، وقريب المشاهدات .

ثانيا : يؤخذ من قول موسى للخضر لما خرق السفينة (أخرقتها لتغرق أهلها .) شفقته على أهل السفينة قبل شفقته على نفسه هو ، وان كان هو من أهلها ، وذلك دأب الأنبياء وعادتهم، وصفتهم ، أن يشفقوا على الناس أكثر من شفقتهم على أنفسهم هم ، ألم تر كيف حزن سيد الأولين والآخرين حزنا شديدا على كفر قومه ، حتى كاد يموت ويهلك حسرة وغما حتى أنكر الله ذلك عليه بقوله : « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** »(٣٩) ، وبقوله « **لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين** »(٤٠) الى أن نزل النهى الالهى : « **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** »(٤١) .

وفى هذا عبرة للناس عامة وللدعاة خاصة ، لاسيما فى المواقف التى تحتاج الى اظهار كلمة الحق واضحة ، صريحة ، دون التواء ، أو تمييع ، أو اضلال للرأى العام ، وذلك شفقة على أنفسهم ، أو رغبة لأنفسهم فى دنيا زائلة ، أو متاع فان ...

لقد وجدنا البعض فى بعض الأقطار الاسلامية يتخذ من منصب (المفتى) وسيلة لتبرير ما يراد فعله ، واعتبروا « فتاوى

---

(٣٩) الكهف : ٦ .
(٤٠) الشعراء : ٣ .
(٤١) فاطر : ٨ .

العلماء » ـ كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الحى الفرماوى ـ : (للاستئناس فقط ، أو لتبرير الواقع وتمريره ، ولا علاقة لها بالالتزام ، أو تقويم الواقع وتعديله ، كما ينبغى أن يكون ، أو كما هو المفترض من طالبى الافتاء .

وواقعنا الحالى يسجل على كثير من هؤلاء انتقالهم من جانب الى جانب ، وتغيرهم فى الفتوى بأدلتها ، من مناصرة هذا الجانب الى تأييد لمن يعاديه ، لا لخطأ اكتشفه فى الفتوى الأولى ، فيرجع عنها ، ولا لانتقاله مع حق انتقل من جانب الى آخر . »(٤٢) .

ألا فليكن قول موسى عليه السلام (أخرقتها لتغرق أهلها) وسيرة المصطفى ﷺ ، وهديه فى حمل هم الناس قبل همهم هم عبرة للدعاة الى الله ، خاصة فى هذا العصر الذى أصبحت فيه الأمة الاسلامية تائهة ضالة ، ان شفقة الدعاة على أمتهم ـ هى فى الحقيقة شفقة على أنفسهم هم ، لأنهم بهذه الشفقة يكونون قد أدوا ما عليهم من أمانة العلم ، وأمانة التبليغ ، وأمانة القدوة ، فتكون النتيجة فى صالحهم هم قبل غيرهم من عوام الناس ، ان الدعاة اذا فعلوا ذلك لصاروا سادة أعزة ، وان حرموا الدنيا ومتاعها ، والجسد والروح ، فما عند الله خير وأبقى ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون .

ثالثا : يؤخذ من موقف أهل القرية حينما استطعمهم موسى والخضر ، ومقابلتهم لهما بالشح والبخل ، وقول الرسول ﷺ فيهم

---

(٤٢) حرب الخليج فى ميزان الاسلام ، لأستاذنا الفاضل : د. عبد الحى الفرماوى : ١٣ ، ١٧ .

كانوا لئاما ، ذم البخل وأهله ، ومدح الكرم وحزبه ، وحث الناس على التعاون فيما بينهم ٠

لقد اقتضت سنة الله فى كونه أن لا يوجد نظام يكتفى فيه الانسان عمن عداه ، فالكل فى احتياج الى الكل ، ومن هنا تبرز أهمية التعاون ، ومن هنا تظهر أهمية التعاطف والتراحم، بين الأغنياء والفقراء ٠

ونتيجة هذا التعاطف والتراحم لا يقتصر نفعها على أولئك البائسين المعدمين ، بل تقى الباذلين عواقب الأثرة العمياء ، وزلازل الحسد الدفين ، ونتائج الحقد البغيض ، قال تعالى : « **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** »(٤٣) ٠

ان ما عند الانسان من مال انما هو عطية من الله ، استخلفه فيها ، قال تعالى : « **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** »(٤٤)، وعلى ذلك فالله ناظر لمن عنده مال ، أيؤدى ما وجب عليه فيه من حق للفقراء والمحتاجين ومصالح المسلمين ، أم يبخل ، فان أخرج ما وجب عليه كان خيرا له ، وكان أهلا للمزيد ، من الاكرام والاحسان ، وان بخل وادخر وكنز ، ليكون رصيدا له ، فهو غبى جهول ، ولو علم لعلم أن ما يدخره من أصناف المال سيكون هو نفسه أدوات تعذيب ، ووسائل تنكيل ٠

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه مسلم وغيره : « ما من صاحب ابل لا يفعل فيها حقها الا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت

---

(٤٣) محمد : ٣٨ ٠
(٤٤) الحديد : ٧ ٠

قط ، وقعد لها بقاع قرقر(٤٥) ، تستن(٤٦) عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقر لا يفعل فيها حقها ، الا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنم لا يفعل فيها حقها ، الا جاءت يوم القيامة أكثر ماكانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جماء(٤٧) ، ولا منكسر قرنها ، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه ، الا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع(٤٨) ، يتبعه ، فاتحا فاه ، فاذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذى خبأته ، فأنا عنه غنى ، فاذا رأى أن لابد منه سلك يده فى فيه ، فيقضمها قضم الفحل ·»(٤٩) ·

ويبين الله تعالى أن هذا المال ، الذى منع منه حق الله والناس سيكون أداة كى لصاحبه فيقول : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** »(٥٠) ·

---

(٤٥) أى بأرض مستوية ·

(٤٦) أى تضربه بها ·

(٤٧) الجماء : التى لا قرن لها ·

(٤٨) الشجاع الأقرع : الحية الذكر ، الذى سقط شعره ، من قوته وكثرة سمه ·

(٤٩) أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ، باب اثم مانع الزكاة ·

(٥٠) التوبة : ٣٤ ·

ويوضح الرسول ﷺ شيئا من معنى هذه الآية ، فيقول : فيما رواه مسلم أيضا(٥١) : « ما من صاحب ذهب ولا فضة ، لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة ، صفحت له صفائح(٥٢) من نار ، فأحمي عليها فى نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ، اما الى الجنة واما الى النار . » .

ان العقل ليعجب من أولئك المنهمكين على جمع المال ، والمشتغلين بزيادته ليل نهار ، ثم تكون النهاية أن يتركه الانسان لورثته ، فلا هو سعد به فى حياته ، ولا هو قدمه بين يدى أمره لآخرته ، فما استفاد به فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، فلماذا اذاً جمعه ، انه لو أحب المال بعقل واع ، وفكر ثاقب ، لبذله فيما يحب الله ، ولكنه بانهماكه المستمر فى جمعه ، ولو من حلال يكون قد قدم الدليل القاطع على غبائه وجهله ، فما للمال خلق الانسان ، وما للآخرين يسخر وقته لجمع المال لهم .

وعن هذه الحقيقة يميط رسول الله ﷺ اللثام ، فيقول فيما يرويه البخارى : « أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله ؟ قالوا يارسول الله : ما منا الا ماله أحب اليه ، قال : فان ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر . »(٥٣) .

---

(٥١) فى نفس الموضع السابق .
(٥٢) أى تجعل كنوزه كأمثال الألواح .
(٥٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب ما قدم من ماله فهو له .

نعم ان الانسان مجبول على حب ورثته ، بل ان الاسلام طالبه بأن يجعل لورثته هؤلاء ما يكفيهم عن ذل السؤال ، والتعرض للشقاء من بعده .

قال ﷺ : « انك ان تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »(٥٤) .

ولكن يجب أن لا يكون ذلك على حساب دينه وخلقه ، والا كان ورثته هؤلاء مصدر بلاء ، ومنبع شقاء له ، فى دنياه وأخراه ، وانقلب هؤلاء الأحباب الى أعداء يجرون له الخزى والنكال ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم** »(٥٥) .

ان الانسان اذا جعل أولاده سببا للبخل ، والجبن ، فهو أحمق جهول ، ولن يستفيد ببخله وجبنه شيئا ، بل هو خاسر خسرانا مبينا ، وضال ضلالا بعيدا ، لأنه لو فكر وقدر ، لعلم أن اخراجه شيئا من ماله هو سبيل زيادته ونمائه ، وهو طريق من طرق الخير عظيم لمحو سيئاته : قال تعالى : « **إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم** »(٥٦) .

وليس هذا الكلام فى الجود والكرم خاصا بالأفراد ، وانما مطالب به - كذلك - الجماعات والأقطار ، ولذلك فان ما يعيشه المسلمون الآن من أوضاع معيشية متفاوتة ، ومتناقضة ، ليدعو الى

---

٥٤) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الوصايا ، باب (أن يترك ورثته أغنيا ... الخ) ومسلم فى كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث .

(٥٥) التغابن : ١٤ .

(٥٦) التغابن : ١٧ .

الدهشة والعجب ، والانكار ، مع وجود القرآن الخالد بين أيديهم وهدى المصطفي ﷺ أمام أعينهم ، ان هناك أقطارا اسلامية تكتظ بالأموال التى لا حصر لها ، مما جعلهم يضعونها فى بنوك دول الكفر والطغيان ، ليستفيدوا منها فى أمور حياتهم ، ورفاهية شعوبهم ، بل وتستخدم - كما ثبت ثبوت العيان - فى حرب المسلمين ، بل وفى الخروج بهم من دائرة الاسلام الى كفر النصرانية ، بينما تئن أقطار أخرى من وطأة الجوع والحرمان، ويضطر أهلها الفقراء الجهلة الى اعتناق دين آخر ، رغبة فى ذلك المال الذى حرمهم منه اخوانهم المسلمون ٠٠٠

ان الانفاق لو لم يكن له ثمرة الا اختفاء روح الحسد ، والحقد من صفوف المسلمين ، وظهور وترعرع المحبة والتماسك ، والتآلف والرحمة ، والمودة والصفاء لكفى ، فتلك أسمى مطالب الانسان فى الحياة ٠

والحديث فى ذلك يطول ، وفيما ذكر كفاية لأرباب العقول ٠

رابعا : ومن عبر هذا المشهد أيضا ، أن لا يقابل الانسان الاساءة بمثلها ، بل يعفو ويصفح ، ويكرم ويحسن ٠

وذلك واضح من فعل الخضر من اقامة الجدار ، لأهل هذه القرية ، رغم بخلهم معه ، وشحهم عليه هو وموسى ، وتلك صفة من صفات أولى العزم ، وسمة من سمات الرجال الكمل ، والعقلاء الخلص ٠٠٠

وعليها نبه القرآن ، وحثت السنة ، فى مواضع كثيرة ، ومن هذه النصوص قوله تعالى : « **ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين**

صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »(٥٧) .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (ما عاقبت - بفتح الباء - من عصى الله فيك ، بمثل أن تطيع الله فيه) .

وقال ابن عباس فى تفسيرها : « أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الاساءة ، فاذا فعلوا ذلك : عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم . »(٥٨) .

وجدير بالذكر أن العفو عن الظالم يكون مشكورا لصاحبه اذا كان قادرا على رده ، وعلى مكافأة المعتدى بمثل صنيعه ، والا فما هو عفو محمود ، ولا هو صبر مشكور ، ذلك الاستسلام للهوان والذل ، بل على أولئك المقهورين بنار الظلم والطغيان أن يعملوا جاهدين للخلاص مما هم فيه ، والا لكانوا أشبه بالقطيع من الأغنام ، تؤمر فتأتمر ، وتزجر فتنزجر ، لا ارادة لها ، ولا حرية ولا اختيار .

خامسا : من آيات هذا المشهد أيضا نخرج بوجود المجاز فى التعبير القرآنى ، وقد مضى تفصيل ذلك ، عند قوله تعالى : (**فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه**) ، فليرجع اليه من شاء :

* * *

---

(٥٧) فصلت : ٣٤ ، ٣٥ .

(٥٨) تفسير ابن كثير : ١٠١/٤ .

المشهد الرابع

الفرق بين الحكمة الالهية والحكمة الانسانية

قال تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا (٨٢) » ٠

معانى المفردات واسرار التراكيب

بعد أن بينت لنا الآيات السابقة أن موسى عليه السلام لم يستطع صبرا على ما رآه من أمور عجيبة ، لم يألفها من قبل ، حيث لم يحط به خبرا ، وبعد أن أعذر الخضر ، وأعطى له المهلة الأخيرة التى ان لم يصمد موسى فيها فهو فى حل من صحبته ، ثم حدث أن موسى لم يستطع صمودا فيها وأعلن الخضر أن وقت الفراق قد حل ، بعد ذلك تفضل عليه - قبل أن يفارقه - ببيان وجه الحكمة فيما فعله من أمور ثلاثة ٠

أما عن الأمر الأول وهو خرق السفينة ، فقال عنه : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) ٠

والظاهر أن اللام فى قوله (لمساكين) للملك ، أى أنها كانت مملوكة لهم ، وهم أصحابها ، وقد قال بعض المفسرين ان اللام للاختصاص لأنها كانت مستأجرة ، أو عارية عندهم ، وليست ملكا لهم ، وذلك وفق

مذهبهم الفقهى فى أن المسكين هو الذى لا يملك شيئا ، ولكن الذى أرجحه أن اللام هنا للملك وليست للاختصاص ، اذ لم يأت فى حديث صحيح أنها كانت مؤجرة لهم ، أو عارية عندهم ، ولذلك عقب الامام الآلوسى على من قال انهم كانوا مستأجريها ، أو كانت عارية عندهم بقوله : « ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر ، ولا يقبل بلا دليل »(١) .

وقوله (لمساكين) جمع مسكين ، وهذا اللفظ يطلق على أكثر من معنى ، كلها ترجع الى الحال السيئة ، من ضعف فى البدن ، أو قلة فى المال ، أو خضوع فى النفس ، وانهزام فى الروح ، قال ابن الأثير : « وقد تكرر ذكر المسكين والمساكين ، والمسكنة والتمسكن ، قال : وكلها يدور معناها على الخضوع والذلة وقلة المال ، والحال السيئة(٢) .

هذا ، وقد دار خلاف بين الفقهاء فى المقارنة بين كل من المسكين والفقير ، ومن منهما أسوأ حالا من الآخر ، ؟ فبعضهم قال ان المسكين أسوأ حالا من الفقير ، لأنه الذى لا شىء له أصلا ، أما الفقير فهو الذى له بعض ما يقيمه ، واستدلوا بمثل ما قاله يونس - أحد أئمة اللغة - : حيث قال : قلت لأعرابى : (أفقير أم مسكين) ؟ فقال : لا والله، بل مسكين ، فأعلم أنه أسوأ حالا من الفقير ، وبمثل قول الراعى:

أما الفقير الذى كانت حلوبته

وفق العيال فلم يترك له سبد(٣)

وذهب بعضهم الى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين ، واستدلوا

---

(١) روح المعانى : ٩/١٦ .
(٢) لسان العرب : (سكن) .
(٣) يقولون ما له سبد ولبد ، والسبد الوبر ، واللبد الصوف الملبد ، وهى كناية عن القلة والكثرة .

باشياء ، منها هذا البيت الأخير نفسه ، حيث قالوا : ان الشاعر قال : أما الفقير الذى كانت حلوبته ، ولم يقل الذى حلوبته ، وقال: فلميترك له سبد ، فأثبت له الفقر ، لعدم حلوبته ، بعد أن كان مسكينا قبل عدم حلوبته .

ومن الممكن أن يرد عليهم بأن تسميته فقيرا باعتبار ما كان ، على حد قوله تعالى « **وآتوا اليتامى أموالهم** »(*) أى الذين كانوا قبل ذلك يتامى ، لأن ايتاء اليتامى أموالهم فى حال اليتم منهى عنه .

واستدلوا أيضا بقوله تعالى (**أما السفينة فكانت لمساكين**) فقد سماهم مساكين مع أنهم يمتلكون سفينة ، الى غير ذلك من ظواهر الألفاظ التى دار بين الفريقين بسببها مناقشات وتأويلات ، كل فريق يؤول المعنى ، حسبما يميل .

وأنا أميل الى الرأى القائل بأن المسكين هو الذى لا يملك شيئا ، وأنه أسوأ حالا من الفقير ، الذى يملك شيئا ، ولكنه لا يكفيه ، بدليل قوله تعالى : « **أو مسكينا ذا متربة** »(٤) والمتربة : الفقر الشديد ، فهو قد لصق بالتراب لشدة فقره ، أما قولهم ان الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم يمتلكون سفينة وهذا يدل على أن المسكين أحسن حالا من الفقير ، فأقول : هذا لا يدل لهم ، لأن المراد بالمسكنة هنا : الضعف ، وعدم القدرة على دفع الظلم ، فالمسكنة أعم من قصرها على الفقر ، وشدة الحاجة ، فانها تشمل ذلك وغيره ، وعلى هذا ، فان المعنى المراد هنا لا يتعلق بالفقر والغنى ، ولكن يتعلق بعدم قدرتهم على حماية أنفسهم ومالهم من ظلم هذا الملك الطاغية .

واستعمال المسكنة بمعنى الضعف كثير فى اللغة ، قال ابن الأثير: وقد تقع المسكنة على الضعف(٥) .

(*) النساء آية : ٢ .
(٤) البلد : ١٦ .
(٥) لسان العرب (سكن) .

ولذلك يقول أبو السعود : « لمساكين : لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة »(٦) .

ويقول العلامة الآلوسى : « وهذا المعنى للمسكين غير ما اختلف الفقهاء فى الفرق بينه وبين الفقير ، وعليه لا تكون الآية حجة لمن يقول : ان المسكين من يملك شيئا ولا يكفيه ، لأن هذا المعنى مقطوع فيه النظر ، عن المال وعدمه »(٧) .

وقد ذهب الى هذا المعنى الذى رجحناه وقال به أبو السعود والآلوسى أكثر من واحد من المفسرين قبلهما ، فقد قال الماوردى سموا مساكين « لقلة حيلتهم ، وعجزهم عن الدفع عن أنفسهم »(٨) .

وقال القرطبى : لأنهم كانوا « فى لجة بحر ، وبحال ضعف عن مدافعة خطب عبر عنهم بمساكين ، اذ هم فى حالة يشفق عليهم بسببها وهذا كما تقول لرجل غنى وقع فى وهلة أو خطب : مسكين »(٩) .

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا فى عدد هؤلاء المساكين ، وفى أسمائهم ، وفى مرضهم ، الى غير ذلك من أخبارهم التى لم ترد فى نص صحيح ، وانما هي من الاسرائيليات ، التي يجب ازاحتها من ثقافة المسلمين .

وقوله (يعملون فى البحر) اى يتكسبون بالعمل على هذه السفينة ، من نقل الناس وأمتعتهم ، من شاطيء الى آخر ، وغير ذلك .

---

(٦) ارشاد العقل السليم : ٢٦٢/٣ .

(٧) روح المعانى : ٩/١٦ .

(٨) تفسير الماوردى : ٢/

(٩) تفسير القرطبي : ٣٤/١١ .

وعلى قول من قال ان فيهم زمنى - وهذا مالا نقطع بصحته - يكون اسناد العمل فى البحر من باب التغليب ، أى تغليب من يعمل فى البحر ، على هؤلاء الزمنى فى التعبير ، لأن عمل الوكيل بمنزلة عمل من وكله .

وقول الخضر (فأردت أن أعيبها) أى أجعلها ذات عيب ظاهر، أى وصمة واضحة يراها الناظرون ، فلا يقيمون لها وزنا ، ولم أرد بهذا الخرق اغراق ركابها كما ظننت .

والفاء فى (فأردت) للتفريع ، أى أن سبب ارادة تعييبها كونها لمساكين ضعاف .

وجيء بفعل الارادة هنا ، حيث قال (فأردت أن أعيبها) ولم يقل فأعبتها للدلالة على أن هذا الخرق قصد به اعابتها فقط ، لا اغراق أهلها ، كما ذكرنا فى المراد .

ثم بين الخضر السبب الذى من أجله عاب السفينة فقال : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) ، فقوله (وكان وراءهم ملك) جملة حالية باضمار قد .

ولفظ وراء :

١ - قال بعضهم هو من المواراة ، بمعنى الاستتار ، فيكون لخلف ولقدام فهو من المشترك المعنوى وليس من الأضداد .

ومنه قوله تعالى « **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** »(١٠) وقوله « **من ورائه جهنم** »(١١) وقوله « **ومن ورائه عذاب غليظ** »(١٢) ، وقول لبيد :

---

(١٠) المؤمنون : ١٠٠ .
(١١ ، ١٢) ابراهيم : ١٦ ، ١٧ .

أليس من ورائى ان تراخت منيتى
لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

٢ - وذهب بعضهم الى أنه من الأضداد ، الذى وضع فى اللغة ليطلق على الأمام والخلف ، والسبب في ذلك أن ما كان خلفا يجوز أن ينقلب أماما ، وبالعكس .

٣ - « وقال ثعلب : الوراء الخلف ، ولكن اذا كان مما تمر عليه فهو قدام »(١٣) .

٤ - وقال الفراء : لا يجوز أن يقال لرجل وراءك هو بين يديك ، ولا لرجل بين يديك هو وراءك ، انما هو ذلك فى المواقيت من الليالى ،والأيام والدهر ، تقول : وراءك برد شديد ، وبين يديك برد شديد ، لأنك أنت وراءه ، فجاز لأنه شئ يأتى ، فكأنه اذا لحقك صار من ورائك ، وكأنه اذا بلغته كان بين يديك فلذلك جاز الوجهان .

ومن ذلك قوله عز وجل (**وكان وراءهم ملك**) أى أمامهم(١٤) .

٥ - يجوز فى الاطلاق لفظ وراء بمعنى أمام على الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين ، اذ كل منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيره .

جاء في تفسير البحر المحيط : « وقال أبو على : انما جاز استعمال وراء بمعنى أمام على الاتساع ، لأنها جهة مقابلة لجهة ، فكانت كل واحدة من الجهتين وراء الأخرى ، اذا لم يرد معنى المواجهة ويجوز ذلك فى الأجرام التى لا وجه لها ، مثل حجرين متقابلين ،

(١٣ ، ١٤) لسان العرب : (ورا) .

كل واحـــد منهما وراء الآخـر ، وأكثر أهـل اللغــة على أن وراء من الأضـــداد »(١٥) .

وتبعـا لاختـلاف العلمـاء فى اطلاق لفظ وراء وجدنا بعضهم يقول فى تفسير هـذه الآية : وكان وراءهم ملك ، أى أمـامهم ، وبعضهم قال كان خلفهم ، حيث كان فى طريق رجوعهم ، وسيمرون عليـه فى ايابهم ، ولم يكن لديهم علم به ، فأعلم الله به الخضر ، أو أنه كان خلفهم ومدركا لهم .

ومـا ذكره بعض المفسرين فى اسـم هـذا الملك واسم مملكته من الاسرائيليات التى يضرب بهـا عرض الحـائط ، ولا حاجة لنـا بها ، وكفى بنـا الوقوف على مـا جاء فى القرآن من أن هـذا الملك كان ظالما طاغيـا يأكل أموال النـاس بالباطل .

وقوله (سـفينة) موصوف ، صفته محذوفة ، والتقـدير سـفينة صالحة ، وانمـا قدرنا هـذهالصفة ، حتى يكون للتعييب فائدة ، والا لكان خرقها من الخضر عبثـا .

والغصب : أخـذ الشىء ظلمـا ، وهـذا الشىء المأخوذ ظلما يقال له غصب ، ومغصوب ، وانتصب (غصـبا) على المصدرية ، اذ هو مصدر مبين لنوع الأخـذ .

وقد يقول قائل ان خوف الغصب سبب لارادة تعييب السفينة ، فلم أخـر السبب وقدم المسبب ؟

والجواب : ١ ـ أن ذلك للاعتنـاء بأمر المسبب ، وللاهتمام بشأنه
٢ ـ وأيضـا : فان خوف الغضب وان كان سـببا لتعييب هـذه السفينة الا أنه ليس السبب الوحيـد ، ولكن يضـاف اليـه سبب أهم ، وهو كونها لمسـاكين ، ولذلك لم يهتم الخضر بسفن غيرهم .

---

(١٥) البحر المحيط : ١٥٤/٦ .

وبهذا أوضح الخضر لموسى وجه الحكمة فى خرق هذه السفينة ، وأن الأمر ليس كما ظن موسى ، وانما لحكمة خفية لم يحط بها موسى خبرا ، وهى أن هناك ملكا ظالما يعتدى على أموال الناس ، فخاف الخضر على سفينة هؤلاء الضعاف العجزة ، فخرقها ، حتى اذا ما شاهدها ذلك الظالم رآها معيبة ، فلا تقر بها عينه ، ولا يسر بها خاطره ، بل يدعها لهم ، حيث لا تساوى شيئا فى عالم السفن الصحاح ، فتسلم لهم ، ثم يصلحونها بعد ذلك ، كما جاء فى الحديث .

ثم بين الخضر لموسى الحكمة من قتل الغلام بقوله : (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) .

وفى قوله (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين) حذف ، والتقدير ، وكان كافرا ، كما ذكرنا سابقا فى رواية البخارى (فأخذ غلاما كافرا ،) وفى رواية مسلم (وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا) ، وانما لم يصرح بكفره لظهور ذلك من سياق الآيات .

والأب يطلق على الوالد ، والمراد بـ (أبواه ،) أبوه وأمه ، وانما ثنى الأب تغليبا ، كما فى القمرين ، ويراد بهما الشمس والقمر ، وهى تثنية لا يقاس عليها .

والخشية : الخوف ، والضمير فى (فخشينا) يعود على الخضر ، المتكلم الذى يوضح لموسى سبب قتل الغلام ، والطغيان : مجاوزة الحد يقال طغا الماء والبحر اذا ارتفع وعلا ، وكل مجاوز حده فى العصيان فهو طاغ .

وانما خاف الخضر منه ارهاق أبويه طغيانا وكفرا : لأن الله أطلعه على خبيثة قلبه ونواياه ، وطبيعة نفسه وميولها ، وما يتوقع منها ، وأعلمه بما سيكون منه لو عاش ، فأمره بقتله ، منعا لافساده فى البلاد ، ودفعا لشره عن العباد .

ومعنى قوله (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) على هذا :

١ ـ أى فخفنا أن يعديهما بطغيانه وكفره ، فيصيران طاغيين كافرين، بعد أن كانا مسلمين ، وذلك لأن عاطفة الأبوة شديدة ، وحنان الوالدين عظيم ، وشفقتهما بابنهما لا نظير لها ، فربما يكون ذلك كله سببا فى أن يدافعا عنه فى كثير من المواقف ، رغم ظلمه وطغيانه ، بل ربما يصل الأمر الى موافقته فيما يرتكبه من فساد بين ، ومنكر واضح ، فيؤول بهما الأمر فى النهاية أن يكون طبعهما ودينهما كطبعه ودينه ، فى الطغيان الظاهر ، والكفر البواح .

٢ ـ وقال الزمخشرى : « فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما ، بعقوقه وسوء صنيعه ، ويلحق بهما شرا وبلاء » .

٣ ـ وقال أيضا : « أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره ، فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان ، وطاغ كافر » (١٦) .

وقد يقول قائل : لم عطف الكفر على الطغيان مع أن الطغيان يعنى مجاوزة الحد ؟ بل لم ذكر الطغيان مع أن سياق الآيات مقصور على الكفر وحده ؟

والجواب على ذلك كما يقول الامام الآلوسى رحمه الله : « ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره ، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ، ليتأتى هذا التفظيع ، أو ليكون المعنى : فخشينا أن يدنس ايمانهما أولا ، ويزيله آخرا ، ويلتزم على هذا القول: بأن ذلك أشنع وأقبح من ازالته بدون سابقية تدنيس » (١٧) .

---

(١٦) الكشاف : ٢/٧٥٠ .
(١٧) روح المعاني : ١٦/١١ .

وما ذكرناه من أن قوله (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) من كلام الخضر هو الظاهر والراجح لقوله بعد ذلك (فأراد ربك) ، وان كان البعض كالامام الزمخشرى ، قد جوز أن يكون حكاية لقول الله عز وجل ، على أن يكون المراد بقوله (فخشينا) أى فكرهنا ، على جعل الخشية مجازا مرسلا عن لازمها ، وهو الكراهة .

قال ابن عطية (١٨) : والأظهر عندى مع توجيه هذا التأويل وان كان اللفظ يدافعه أنها استعارة . وقال أيضا (١٩) : « ان الخوف والخشية كالترجى بلعل ونحوها ، الواقع فى كلامه تعالى : مصروف الى المخاطبين ، والا فالله جل جلاله منزه عن كل ذلك » .

أقول : ان البعض قد جوز أن يكون قوله (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) من كلام الله عز وجل ، ووجه المعنى هنا توجيها يليق بكمال الله وعظمته الا أننى أرجح أنه من كلام الخضر ، وليس من كلام الله عز وجل ، لظاهر السياق ولقول الخضر بعد ذلك مباشرة (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه) .

والفاء فى قوله (فأردنا) تفريعية ، فتفيد أن خشية الخضر هذه سبب فى تلك الارادة التى شاءها الخضر ، كما أن فيها اشارة الى رد ما يشم من اعتراض موسى على قتله ، من أن قتله ظلم بين ، وافساد واضح .

وقوله (يبدلهما) قرأه نافع وأبو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال ، بدل يبدل تبديلا ، والباقون بتسكين الباء وتخفيف الدال ، من أبدل يبدل ابدالا . والابدال فى الأصل : جعل شىء مكان شىء آخر ، كابدالك من الواو تاء ، فى تالله ، يقال أبدلت الخاتم بالحلقة ، اذا نحيت

---

(١٨) كما فى تفسير البحر المحيط : ١٥٥/٦ .
(١٩) كما فى تفسير الآلوسى : ١١/١٦ .

تأت ببدل ، يقال بدلت الخاتم بالحلقة : اذا أذبته وسويته حلقة ، فالتبديل قد حدث فى الصورة ، حيث انتقل الشىء من صورة الى أخرى والجوهرة بعينها ، أما الابدال فقد حدث بتنحية الجوهرة ، واستئناف جوهرة أخرى .

قال المبرد : « وقد جعلت العرب بدلت بمعنى أبدلت ، وهو قول الله عز وجل « **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** »(٢٠) ، ألا ترى أنه قد أزال السيئات ، وجعل مكانها حسنات ؟ »(٢١) .

وفى ايثار لفظ الربوبية فى قوله (ربهما) ، وفى اضافته لضمير الأبوين دلالة واضحة على أن الخضر ما فعل ذلك الا من أجل ارادة وصول الخير اليهما من ربهما ، المتفضل على أوليائه الكمل، وأحبابه الخلص ، بالاكرام والاحسان ، والمنة والانعام ، وأنهما ان فقدا ابنا غاليا الا أن مصلحتهما فى ذلك ، وأن الله سيعوضهما من هو خير منه دينا ، وأبر بهما دنيا .

وقوله (خيرا) صفة لمفعول محذوف ، والتقدير غلاما خيرا منه .

والمراد بقوله (زكاة) أى دينا ، وعلى هذا يكون (خيرا) ليس أفعل تفضيل ، لأنه كان كافرا ، ولا خير فى الكفر ، فلا يوجد اشتراك فى الخيرية بين الدينين .

وقيل ان المراد بالزكاة هنا : الطهارة والنقاء من الأخلاق الرديئة ، وكأن الخضر قد نص على هذا الوصف فى مقابلة موسى له (أقتلت نفسا زكية بغير نفس) ، وعلى ذلك يكون (خيرا) أفعل تفضيل ، لأنه ان كان صغيرا فهو زكى طاهر من الأخلاق الرديئة

---

(٢٠) الفرقان : ٧٠ .
(٢١) لسان العرب : (بدل .

بالفعل ، وان كان كبيرا بالغا فهو زكى طاهر منها أيضا بحسب الظاهر ٠

وبهذا يرد على أبى حيان ، حيث قال : ان (خيرا) هنا ليس أفعل تفضيل معللا ذلك بأنه لا زكاة فى ذلك الغلام ولا رحمة ٠

والرحم : بضم الراء الرحمة والعطف والبر ، والرحم والرحمة مصدران ، كالكثر والكثرة ، ، والمراد أن الله تعالى سيرزقهما من هو أرحم وأبر بهما منه ٠ وانتصب المصدران (زكاة ، ورحما) على التمييز ٠

وقد قرئ قوله (رحما) بضم الحاء وسكونها ، فقد قرأه ابن عامر بالضم ، والباقون بالسكون ٠

وما يرويه بعض المفسرين من أن الله تعالى أبدلهما مكان هذا الغلام جارية ، تزوجها نبى ، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة عظيمة ، وما قيل ان هذه الجارية ولدت سبعين نبيا ، فهو من الاسرائيليات التى يضرب بها عرض الحائط ، وأيضا فان كثرة الأنبياء لم تعرف الا فى بنى اسرائيل ، ولم يرد من طريق صحيح شئ عن هذه المرأة ، ولا عن كونها من بنى اسرائيل ٠

وبهذا بين الخضر لموسى عليهما السلام وجه الحكمة من قتل الغلام ، ثم انتقل معه فى الحديث الى بيان وجه الحكمة من الفعل الثالث والأخير ، ألا وهو اقامة الجدار لأهل هذه القرية اللئام أهلها فقال له :

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) ٠

ففى قول الخضر هذا بيان شاف ، وتعليل مقنع لاقامة هذا الجدار الذي كان على شفا جرف هار ، حيث وضح لموسى أن هذا

الجدار كان مبنيا فوق أرض مدفون فيها كنز كان يمتلكه رجل صالح، وقبل موته دفنه فى هذه الأرض ، لينتفع به غلاماه الصغيران ، فلو سقط هذا الجدار لعثر الناس على الكنز وأخذوه ، دون أن يصل الى غلاميه ، ولو وصل فانهما لا يستفيدان منه حال الصغر كما ينبغى، فيبدد وينهب ، وذلك مالم يرده أبوهما الصالح ، فاقتضت رحمة الله بهذين الغلامين اكراما لأبيهما أن يأمر الخضر باقامة هذا الجدار الى أن يكبرا ، ويبلغا مبلغ الرشد ، فيستخرجا هذا الكنز بقوتهما، ويتصرفا فيه بطريق شرعى ، وفى الأمور المرضية دينا ودنيا .

وقوله (لغلامين يتيمين) أى لغلامين مات أبوهما ، واليتم لغة : الانفراد ، واليتيم الفرد ، واليتم واليتم : بضم الأول وسكون الثانى ، أو بفتحهما : فقدان الأب من الناس ، وفقدان الأم من البهائم ومن فقد أمه من الناس لا يقال عنه يتيم ولكن يطلق عليه منقطع .

قال صاحب لسان العرب : « قال ابن برى : اليتيم الذى يموت أبوه والعجى - بفتح العين ، وتشديد الجيم وكسرها - الذى تموت أمه ، واللطيم : الذى يموت أبواه ، وقال ابن خالويه : « ينبغى أن يكون اليتيم فى الطير من قبل الأب والأم ، لأن كليهما يزقان فراخهما » ويقال يتم - بفتح الأول وكسر الثانى ، وبفتحهما معا ، وأيتمه الله ، وهو يتم - بفتح الأول وكسر الثانى - حتى يبلغ الحلم ، فاذا بلغ الحلم ، زال عنه اسم اليتم ، والجمع يتامى ، وأيتام ، ويتمة ، بفتح الأول والثانى »(٢٢) .

واليتم فى أصل اللغة : الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمة ، وقول الناس فى الجمعة الأخيرة من رمضان الجمعة اليتيمة ، حيث لا جمعة بعدها فى هذا الشهر .

---

(٢٢) لسان العرب (يتم) .

وقال بعضهم : أصل اليتم الغفلة ، وسمى اليتيم يتيما لأن الناس يغفلون عن بـره ٠

وقال آخرون : ان أصله : الابطاء ، وسمى اليتيم يتيما لأن الناس يبطئون فى ايصال البر اليه ٠

وما ذكره بعض المفسرين فى تعيين اسم هذين الغلامين واسم أبيهما فهو من الاسرائيليات التى تسللت الى ثقافة المسلمين ٠

وقوله (فى المدينة) يراد بها القرية السابق ذكرها ، فى قوله تعالى (**حتى إذا أتيا أهل قرية**) والمدينة مأخوذة من قولهم : مدن بالمكان ، اذا أقام به ٠

وفى التعبير أولا بالقرية وثانيا بالمدينة دلالة على صحة اطلاق اسم القرية على المدينة ، وذلك معروف عند علماء اللغة ، وشائع فى النصوص الشرعية ٠

أما فى اللغة فقد قال صاحب لسان العرب : « وقد تطلق القرية على المدن »(٢٣) ٠

أما فى الشرع ، فمثاله قوله تعالى عن مكة « **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** »(٢٤)٠

وقوله ﷺ عن المدينة المنورة : « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد »(٢٥) ٠

---

(٢٣) لسان العرب (قرا) ٠
(٢٤) محمد : ١٣ ٠
(٢٥) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل المدينة ، باب فضل المدينة ، ومسلم فى كتاب الحج ، باب المدينة تنفى شرارها ، ومعنى تأكل القرى : أى تغلبهم ، كما قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١٠٤/٤ ٠

ولكن لم عبر عنها بالقرية فى قوله (حتى اذا أتيا أهل قرية)، ثم بالمدينة بعد ذلك فى قوله (فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) ؟

عن ذلك يجيب سليمان الجمل فى الفتوحات الالهية (٢٦) بقوله: « عبر عنها فيما تقدم بالقرية تحقيرا لها ، لخسة أهلها ، وعبر عنها هنا بالمدينة تعظيما لها ، من حيث اشتمالها على هذين الغلامين، وعلى أبيهما » .

وقوله (وكان تحته كنز لهما) : الكنز فى الأصل مصدر ثم أطلق على اسم المفعول .

وعرفه ابن منظور بأنه اسم للمال ، اذا أحرز فى وعاء لما يحرز فيه ، وقيل : الكنز : المال المدفون ، وجمعه كنوز ، قال شمر : « وتسمى العرب كل كثير مجموع يتنافس فيه كنزا » .

وفى الحديث : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة الا بالله » (٢٧) .

قال ابن منظور : أى أجرها مدخر لقائلها ، والمتصف بها ، كما يدخر الكنز (٢٨) .

أقول : ما قاله شمر من أن الكنز يطلق على كل كثير مجموع ، يتنافس فيه هو الذى تؤيده اللغة ، وتؤيده الاطلاقات الشرعية ، وذلك أن لفظ الكنز فى أصل اللغة يطلق على الضم والجمع ، أيا كان هذا المجموع ، قال الشاعر :

---

(٢٦) الفتوحات الالهية : ٤٠/٣ .
(٢٧) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، باب قوله : (لا حول ولا قوة الا بالله) ومسلم فى كتاب الذكر ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر .
(٢٨) لسان العرب (كنز) .

ولم تــزود من جمـــيع الكـــنز غــير خيـــوط ورثيث بــز

والبز نوع من الثيــاب ، والرثيث البالى .

وقال آخــر :

لا در دري ان أطعــمت جـــائعهم

قــرف الحـــتى وعنــدى البر مكنوز

وقــرف الحتى - بكسر القــاف وسكون الراء ، وفتح الحــاء وكسر التـــاء : ســويق المقل والمقـــل ثمر شجر الدوم ، ينضج ويؤكل ، يقــول الشــاعر انه نزل بقوم فكان قراه عنــدهم سويق المقل ، وهو الحتى ، فلما نزلوا به قال هـــذا البيت .

قال الطبرى : « الكنز : كل شىء مجمــوع بعضه الى بعض ، فى بطن الأرض كان ، أو على ظهرها »(٢٩) .

وأطلقه الرسول ﷺ على المرأة الصــالحة ، وذلك فى الحديث الذى رواه أبو داود فى ســننه والحاكم فى مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، حيث قال ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصــالحة ، اذا نظر اليهــا سرته ، واذا أمرها أطاعته ، واذا غاب عنهــا حفظته »(٣٠) .

أمــا المراد بالكنز هنــا : فقد اختلف العلمــاء فيــه ، فقال بعضهم:

١ - هو مــال مدفون ، من ذهــب وفضــة ، واستدلوا بحديث أخرجــه الترمذى وغيره عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قــوله (وكان تحتــه كنز لهما) قال : (ذهــب وفضــة) ، وعنه قال الترمذى :

---

(٢٩) انظر تفسير القرطبى : ٨/١٢٢ .

(٣٠) انظر ســنن أبى داود فى كتاب الزكاة ، باب حقوق المال ٢/١٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٤/٨٢ ط الشعب .

« هــذا حديث غريب »(٣١) .

وعنــه قال الحــافظ ابن حجر : « وفيــه يزيد بن الصنعانى وهو ضعيف »(٣٢) .

٢ ـ وقال بعضهم : هو صحف فيهــا علم .

٣ ـ وقال بعضهم هو لوح من ذهب ، مكتوب فيه (عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ؟ وعجبت لمن يؤمنبالرزق كيف يتعب ؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحســاب كيف يغفــل ؟ وعجبت لمن يعرف الدنيــا وتقلبها بأهلهــا كيف يطمئن اليهــا ، لا اله الا الله محمــد رسول الله) .

قلت هذا القول ورد مرفوعا بطرق متعددة ، كلها ضعيفة .

والذى أميــل اليه من هــذه الأقوال هو القول الأول ، وذلك لأن الكنز وان كان يصح اطلاقه على كل ما يتنافس الناس فى اقتنــائه من مــال وغير ذلك ، الا أنه اذا أطلق ، ولم يحــدد بشىء فان الذهــن لا ينصرف الا الى المــال ، ذهبا أو فضــة .

وهــذا القــول رجحــه الزمخشرى أيضا بقوله : « والظاهــر ـ لاطــلاقه ـ أنه مــال »(٣٣) .

أمــا هــذه الأقوال الأخرى التى تنص على أنه كان عبــارة عن صحف علــم ، أو وصــايا وحكم ، فلا نستطيع أن نرجحهــا ، لضعفها من ناحيــة السند ، وان كنا فى الوقت نفســه لا نستطيع أن نجزم بأن هــذا الكنز كان خاليــا من وصــايا الرجل الصــالح لغلاميه ، فيجوز أن يشتمل على مثل هــذه الوصــايا الا أن العمــدة فى الكنز هو المال .

---

(٣١) الترمذى : كتــاب التفسير ، تفسير سورة الكهف .
(٣٢) هامش الكشاف : ٧٤٢/٢ .
(٣٣) الكشاف : ٧٤٢/٢ .

وقد يقول قائل : ان القرآن قد وصف أبا الغلامين بالصلاح ، وقد وردت النصوص الشرعية فى ذم من يكنز المال ، فكيف يتفق هذا الوصف مع نصوص الذم هذه ؟

والجواب : أن المذموم هو الذى لم تخرج منه الحقوق التى أوجبها الله سبحانه وتعالى ، فأما اذا ما أدى صاحب الكنز ما وجب عليه من حق شرعى فلا يتناوله هذا الذم ، بل يمدح ويثاب ، لامتثاله أمر ربه ، باخراجه بعضا مما به عليه أنعم وأفاض .

وقوله (وكان أبوهما صالحا) بيان للسبب الذى من أجله أمر الله الخضر باقامة ذلك الجدار ، أى أن الدافع الى اقامة هذا الجدار، هو صلاح أبى الغلامين .

والظاهر من قوله (أبوهما) أنه والدهما الأقرب الذى من صلبه قد خرجا ، لما يقتضيه اطلاق لفظ الأب ؛ ولا عبرة بما ذكر من أنه كان الأب العاشر ، أو السابع ، ولا صحة لما يروى فى تعيين اسم والد الغلامين ، وأمهما ، ولا فائدة تعود على المسلمين بالانشغال بمثل هذه الاسرائيليات .

والمراد بصلاح أبيهما : صلاح دينه وخلقه ، حيث كان مؤمنا بالله واليوم الآخر ، ملتزما بما أمر الله ، مجتنبا ما نهاه عنه مولاه.

وفى قوله (فأراد ربك) ثلاث لطائف :

١ - اللطيفة الأولى : اسناد الارادة - ارادة بلوغ الغلامين أشدهما - الى الله تعالى ، وهذا صريح فى أنه لا يقدر على ذلك الا الله تعالى ، فهو الذى بيده مقاليد الأمور ، وهو الذى يحدد آجال العباد ، وعلى هذا فلابد من احداث ما اقتضته حكمته تعالى فى كونه .

٢ - اللطيفة الثانية : ايثار صفة الربوبية على صفة الألوهية ،

لأن المقام للغلامين مقام تربيته وعنايته ، وسنهما سن لطف ورعاية ، فهما في هذه الفترة في أشد الحاجة إلى ذلك من أي طرف من الأطراف ، فما بالنا اذا كان الذى تولى صلاح أمرهما رب العالمين ، قيوم السموات والأرضين .

٣ - **اللطيفة الثالثة** : اضافة لفظ (رب) الى ضمير موسى عليه السلام ، لا الى ضمير الغلامين ، كما جاء في سياق الآية ، وفي ذلك تعريض باعتراض موسى على اقامة هذا الجدار ، وتنبيه له الى وجوب الامتثال لأمره تعالى .

فكأنه قال له : ان ما فعلته من اقامة هذا الجدار ما هو الا استسلام لارادة الله تعالى ، حيث يجب على الانسان الانقياد التام لما به أمر ، دونما مناقشة أو اعتراض .

ثم أظهر الخضر لموسى عليهما السلام سر عدم اظهار الكنز في هذا الوقت بالذات ، فقال له (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) .

وبلوغ الشيء : الوصول اليه ، يقال بلغ فلان بلدة كذا ، أى وصل اليها .

والأشد : مبلغ الرجل درجة الحنكة والمعرفة فى الرأى ، والشدة والقوة فى البدن .

وحددها بعضهم بالنسبة لقوة البدن : من نحو سبع عشرة سنة الى الأربعين ، والبعض ذهب الى أنها مابين الثلاثين الى الأربعين .

ولفظ (أشد) جمع ، قال عنه أبو الهيثم - كما ينقل عنه ابن منظور : أن مفرده شدة (٣٤) ، وقال عنه الآلوسى : « هو

---

(٣٤) أنظر لسان العرب (شدد) .

واحد جاء على بناء الجمع ، مثل آنك ، ولا نظير لهما ، ويقال هو جمع لا واحد له من لفظه ، مثل أبابيل ومذاكير »(٣٥) .

فهذه الجملة تبين أن الخضر ما أقام الجدار ، الا لكونه ساترا كنزا تحته ، تركه رجل صالح لولديه ، فاقتضت مشيئته تعالى - اكراما لهذا الرجل المسلم - أن يظل الكنز مدفونا تحت هذا الجدار ، الى أن يشتد عود الغلامين ، ويقوى ، ويصلا فى الفكر والرأى الى مرتبة عالية ، فعند ذلك يستخرجان هذا الكنز ويتصرفان فيه تصرف العقلاء الراشدين ، لا تصرف السفهاء الطائشين .

وفى أمر هذا الكنز وكيفية استخراج الغلامين له ، وتصدع هذا الجدار فوقه يورد لنا الامام الفخر الرازى سؤالا ظريفا ، ثم يتبعه بالجواب فيقول رحمه الله : « فان قيل : اليتيمان هل عرف أحد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار ، أو ما عرف أحد منهما ؟ فان كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار، وان كان الثانى : فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به ؟

الجواب : لعل اليتيمين كانا جاهلين به ، الا أن وصيهما كان عالما به ، ثم ان ذلك الوصى غاب ، وأشرف ذلك الجدار فى غيبته على السقوط . »(٣٦) .

ويقول الطاهر بن عاشور : « ولعل والد الغلامين سأل الله

---

(٣٥) روح المعانى : ١٦/١٤ .
(٣٦) مفاتيح الغيب : ٢١/١٦٢ .

أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز ، تحت الجدار ، بقصد أو مصادفة ، فلو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولت الأيدى مكانه ، بالجفر ونحوه ، فعثر عليه عاثر ، فذلك أيضا لطف خارق للعادة »(٣٧) .

وقوله (رحمة من ربك) :

١ - مفعول لأجله ، للفعل (أراد) ، وعبر بالظاهر فى (من ربك) بدلا من الضمير : منه .

٢ - أو مفعول لأجله لفعل محذوف ، وبتقدير ارادة أو رجاء ، والتقدير : فعلت ما فعلت ارادة أو رجاء رحمة ربك ، ويؤيد هذا الوجه اضافة لفظ (رب) الى ضمير المخاطب ، موسى عليه السلام ، دون ضمير الغلامين ، وعلى ذلك يكون قوله (وما فعلته عن أمرى) أى عن اجتهادى ورأيى توكيدا لما سبق .

٣ - وجوز أبو السعود(٣٨) أن يكون (رحمة) مصدرا فى موقع الحال ، من ضمير (يستخرجا) ، والتقدير : يستخرجا كنزهما مرحومين من ربك عز وجل .

وفى هذا التعليل لما فعله الخضر من أمور اعترض عليها موسى يظهر لنا تساؤل ملفت للنظر ، بسبب اضافة الارادة فى قول الخضر ، فنراه فى تعليل خرقه للسفينة قال (فأردت أن أعيبها) ، وفى تعليله لقتل الغلام قال : (فأردنا أن يبدلهما ربهما) ،وفى تعليله لاقامة الجدار قال : (فأراد ربك أن

---

(٣٧) التحرير والتنوير : ١٦/١٤ .
(٣٨) في ارشاد العقل السليم : ٣/٦٣ .

يبلغا أشدهما) ، فما سبب اختلاف إضافة الارادة ، مع أن القصة واحدة ، والفاعل لهذه الأمور كلها واحد وهو الخضر ؟

وللاجابة عن ذلك نقول :

لما تحدث عن تعييب السفينة راعى الأدب مع الله تعالى ، فلم يرد اسناد التعييب اليه عز وجل ، وانما أسنده الى نفسه ، كما فى التعبير القرآنى (بيدك الخير) (٣٩) حيث لم يقل وبيدك الشر ، مع أن كل الأمور خيرها وشرها بيده عز وجل ، وكما قال ابراهيم عليه السلام : (**فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين**) (٤٠) فانه أسند الأفعال كلها الى الله تعالى الا المرض ، فانه أسنده الى نفسه ، حيث قال : (وإذا مرضت) وذلك لأن الأفعال كلها التى أسندها الى ربه حسنة ، أما المرض فهو مصيبة لا يتمناه انسان ، فلذلك أسنده الى ضميره هو ، دون ضميره عز وجل ، وان كان الكل من الله تعالى ، ولكنه الأدب النبوى من الخليل عليه السلام ٠

ولما تحدث عن قتل الغلام قال : (فأردنا) بلفظ الجمع ، تنبيها منه لموسى عليه السلام ، أن الله تعالى قد من عليه وجعله عظيما من العظماء فى تلك العلوم اللدنية ، التى لا تؤخذ الا من عنده عز وجل ، فهو حينما أقدم على قتل الغلام لم يقدم على ذلك الا بعد أن وصل الى تلك المرتبة العالية فى علوم الحكمة ، التى يمن الله بها على من يشاء من عباده ٠

---

(٣٩) آل عمران : ٢٦ ٠

(٤٠) الشعراء : ٧٧ - ٨٠ ٠

ولما تحدث عن مصالح اليتيمين ورعايتهما اكراما لأبيهما الصالح أضاف الارادة الى الله عز وجل ، ولهذا آثر التعبير بصفة الربوبية فقال : (فأراد ربك) لأنه لا رازق الا الله ، ولا يستطيع أحد أن يتكفل بأمور الأبناء اكراما للآباء على الوجه الأكمل ، وفى كل نواحى الحياة ، دينية كانت أو دنيوية الا الله رب العالمين ٠

وفى نهاية الأمر ، وبعد أن وضح الخضر لموسى الأسباب الحقيقية وراء هذه الأفعال التى فعلها ، وأنكرها عليه موسى ، يقول له (وما فعلته عن أمرى) أى ما فعلت ما فعلت عن اجتهاد من نفسى ، ورأى من عقلى ، وانما هو وحى من الله عز وجل ، وما أستطيع مخالفة لأمره ، لأنه العليم الحكيم ، الفعال لما يريد ٠ ثم قال له : (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) ٠

واسم الاشارة يعود الى وجه الحكمة فى تلك الأمور التى أنكرها عليه ٠

وجاء اسم الاشارة هكذا للبعيد ، لافادة علو تلك الحكمة ، وبيان مقدار عظمتها ، لأن عظمتها مستمدة من عظمة من أنعم بها ، والذى أحاط بكل شىء علما ، ولا يمن بها الا على من يشاء من عباده ، ويختص برحمته ٠

وجعل الخضر صلة الموصول فى قوله (ما لم تسطع عليه صبرا) عين ما سبق من عدم استطاعة موسى الصبر على ما فعله ، دون قوله ذلك تأويل ما فعلت : ليكرر عليه النكير ، وليشدد عليه العتاب ٠

وقوله (تسطع) أصله تستطع ، ولكن حذفت التاء تخفيفا ، لقرب مخرجها من مخرج الطاء ٠

قال ابن السكيت : « يقال : ما أستطيع وما أسطيع ، وما أستتيع ، وما أستيع ، أربع لغات . »(٤١) .

وللآلوسى رحمه الله عبارة لطيفة فى حذف التاء من الفعل (تسطع) ، لقربها من الطاء ، حيث يقول : « وما ألطف حذف المتقاربين ، وبقاء الآخر ، فى آخر هذا الكلام الذى وقع عند ذهاب الخضر عن موسى عليهما السلام »(٤٢) .

ولعل هناك وجه شبه بين قول الآلوسى هذا وبين قول السيد قطب عليهما رحمة الله اذ يقول عن وقت ذهاب الخضر عن موسى : « وفى دهشة السر المكشوف ، والستر المرفوع يختفى الرجل من السياق كما بدا ، لقد مضى فى المجهول ، كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها الا بمقدار ، ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار »(٤٣) .

وهكذا يبين لنا الفرق بين الحكمة الالهية ، والحكمة الانسانية ، الحكمة الالهية المطلقة والتى تنظر الى الأشياء من خلال خوافيها وبواطنها ، والحكمة الانسانية المحدودة والتى تنظر الى الأشياء من ظواهرها وأشكالها ، وهكذا يقطع علينا موسى متعة عظيمة ، من خلال ما يقع على يدى هذا العبد الصالح ، بعدم صبره ، يقول ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر ، حتى يقص الله علينا من خبرهما . »(٤٤) .

* * *

---

(٤١) البحر المحيط : ١٥٦/٦ .
(٤٢) روح المعانى : ١٤/١٦ .
(٤٣) ظلال القرآن : ٢٢٨٢/٤ .
(٤٤) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب (وإذ قال موسى لفتاه)

المعنى العام لآيات المشهد الرابع
من الآية (٧٩) الى الآية (٨٢)

هذا المشهد من مشاهد هذه القصة المثيرة يمثل لنا آخر حلقة منها ، فبعد أن بين لنا المشهد السابق أن موسى عليه السلام لم يستطع صمودا أمام ما يراه من عجائب فعال الخضر ، رغم تشارطهما على الصبر ، وعدم المناقشة ، فيما يراه موسى من الخضر يأتى هذا المشهد ليسفر لنا عن وجه الحكمة فى أفعال الخضر ، ويميط اللثام عن هذه العجائب الثلاثة .

أما الأمر الأول وهو خرق السفينة فيقول عنه الخضر : انها كانت مملوكة لجماعة من المساكين أى المستضعفين ، الذين لا يقدرون على دفع عدوان ظالم ، أو درء طغيان طاغ ، حيث كانوا فى حالة يرثى لها ، ويشفق عليها بسبب ضعفهم ، وانعدام حيلتهم ، ولم يكن لهؤلاء المستضعفين من حيلة للتكسب الا العمل على هذه السفينة ، بنقل الناس وأمتعتهم من ساحل الى آخر ، ونحو ذلك ، وكان هناك فى نفس الوقت ملك ظالم ، طاغ لم ير عند الناس شيئا ينتفع به ، ويكون ذا قيمة الا ومن أهله غصبه ، وعليهم طغى وبغى ، ومن هنا فانه لو رأى هذه السفينة فانها لا تسلم من الغصب ، وان هموا اعترضوا عليه ، فما جزاؤهم الا النكال والحرمان ، ان لم يكن القتل والتمثيل والخسران ، للأرواح والأبدان .

ولذلك فما أن علم الخضر بحالهم وحال أولئك الملك الظالم الطاغية الا وسارع ـ بمجرد ركوبه السفينة ـ بخرقها ، فى مكان ظاهر منها ، وذلك فى أعلاها ، حتى اذا رآها الملك الظالم معيبة هكذا تركها وتركهم ، أملا فى اغتصاب سفينة صالحة

غيرها ، أما هم فما عليهم الا أن يصلحوا عيبها ، بعد نجاتها ونجاتهم ، ويستمرون فى تكسبهم وعملهم .

وهكذا يبين الخضر لموسى السبب الذى من أجله خرق السفينة ، ويبين العلة فى ذلك بأنها كانت مملوكة لقوم ضعاف ، لا يقدرون على دفع ظلم أو عدوان ، ولذلك لم يتعرض لغيرها من السفن .

أما الأمر الثانى وهو قتل الخضر : فيبين لموسى العلة فى ذلك فيقول له : ان ذلك الغلام الذى تظن يا موسى زكيا طاهرا ليس كذلك فى حقيقة الأمر ونفس الواقع ، لقد خلقه الله يوم خلقه كافرا ، من أبوين مؤمنين ، وانه يحمل فى جنباته بذور الكفر والطغيان وانه لو قدر له طول عمر ، واستمرار حياة ، حتى يكبر ، فانه سيكلف أبويه كثيرا ، بسبب حبهما الفطرى له ، اذ أن عاطفة الأبوة لا تقاس عليها عاطفة أخرى ، وشفقة الأبوة لا نظير لها ، فقد يدفعهما حبهما له فى بعض المواقف - رغم وضوح ظلمه ، وجلاء طغيانه - الى الدفاع عنه ، بل ربما يصل الأمر بهما - بسبب تلك البنوة - الى موافقته فيما يأتى ويذر ، من فعال لا يقرها دين ، ولا يرضى عنها ضمير ، حتى يصل بهما الأمر تدريجيا الى أن يصير طبعهما كطبعه فى الظلم والطغيان ، ودينهما كدينه فى الكفر والكفران ، وذلك خسران ما بعده خسران ، وحرمان للسعادة العاجلة والآجلة ما بعده حرمان .

ولذلك : لما رآه الخضر أول وهلة تذكر طبعه الكافر ، وحال أبويه المؤمنين ، وخطورة طبعه عليهما فى حالة استمراره على قيد الحياة ، فلم يتوان لحظة واحدة فى الاقدام على قتله ،

اذ فى قتله اجتثات لبذرة ضارة ، لو تركت ونموها لوقعت فتنة فى الأرض وفساد كبير ، ولذلك فقد رأى أن فى قتله برا بوالديه ، وخير البر عاجله !!

أما أبواه فان دعاءنا ورجاءنا أن يعوضهما الله تعالى خيرا منه ، دينا وخلقا وبرا وعطفا ورحمة بهما ، ان رجاءنا فى الله كبير أن يعوضهما من يدين بدين الاسلام من أول لحظة يطبع فيها ، وأن ينزع من قلبه كل الصفات الرذيلة من الحقد والبغضاء والغل والظلم وغيرها ، وأن يزرع فى هذا القلب كل صفات الخير ، من العدل والرحمة ، والحب ، والعطف ، والبر ، وأن يكون قرة عين لأبويه ، ليعلما أن الخير فيما قدره الله ، و « أن أمر المؤمن كله له خير ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »(٤٥) .

أما الأمر الثالث الذى فعله الخضر وأنكره عليه موسى ، وهو اقامة الجدار المائل ، المشرف على السقوط لأهل تلك القرية اللئام أهلها ، والذين استطعماهم فأبوا أن يضيفوهما فيعلله الخضر بقوله : ان هذا الجدار كان مبنيا فوق أرض مدفون فيها كنز عظيم ، ادخره رجل صالح لغلامين يتيمين له ، ليستعينا به على نوائب الزمان ، وأحداث الأيام ، وأن هذا الجدار لو سقط فان الأيدى ستسرع اليه ، فما به انتفع الرجل الصالح ، ولا هو وصل الى غلاميه اليتيمين ، وان وصل فانهما لا يحسنان صنعا فى تصرفاتهما المالية ، والدنيوية ، واكراما لهذا الرجل الصالح ، الذى قضى حياته ممتثلا لأمر ربه ، لدينه اعتنق ، وبشرعه عمل ،

---

(٤٥) من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الزهد ، باب أمره كله خير .

لم يضيع الله صغاره بعد مماته ، فسخر لهما من يقيم هذا الجدار المائل ، حتى لا يسقط ، ويظهر الكنز ، وتتخطفه الأيادى ، فما كان من الخضر الا أن أقامه ، لأن الله قدر لهما أن يعيشا ويكبرا ، فاذا استوى عودهما ، وقوى بنيانهما ، ورشدت تصرفاتهما ، أقدما بأنفسهما على استخراج ذلك الكنز وانتفعا به على الوجه المطلوب ، كل ذلك كان رحمة من الله بهما وبأبيهما من قبل ، ذلك أن الله وليهم ، وهو يتولى الصالحين .

وبعد أن أوضح الخضر لموسى وجه الحكمة فى أفعاله الثلاثة ، والتى أنكرها عليه ، بين له أنه ما فعل ما فعل الا بوحى من الله اليه ، لا باعمال عقل ، ولا باجهاد رأى ، وقبل أن يفارقه ألمح له بعتاب رقيق ، وعرض له بنكير شديد على عدم صبره ، قائلا له (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) ، وكما جاء الرجل من المجهول يختفى فى سرعة البرق الى المجهول الذى منه أتى ، ولا نملك الا أن نقول ما قاله الرسول ﷺ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لرأى العجب . »(٤٦) .

* * *

(العبر المستفادة من المشهد الرابع)

من الآية (٧٩) الى الآية (٨٢)

تحتوى آيات هذا المشهد على الكثير من العبر ، لأولى الألباب ، نقتصر منها على مايلى :

أولا : اذا كانت هناك صحبة بين صاحبين أو أكثر ، ووجد

---

(٤٦) أخرجه - بهذا اللفظ - مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الفضائل ، باب فضائل الخضر .

من الأسباب ما يوجب انتهاء تلك الصحبة ، فعلى الصاحب أن يبين لأخيه أسباب الفراق بوضوح ، حتى لا يكون هناك مدخل لوسوسة الشيطان ونزغاته ، أو لهوى النفس وحديثها الداخلى .

يتضح ذلك جليا ، من فعل الخضر ، حينما قال له : (هذا فراق بينى وبينك) وقبل أن يفارقه بين له وجوه الحكمة التى من أجلها لم يستطع موسى صبرا ، وعلى أثر ذلك حدث الفراق ، فقال له (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) ثم بين له ذلك .

ثانيا : تدل آيات هذا المشهد على جواز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر .

ففى مسألة السفينة وجد الخضر أن هذه السفينة أمام ضررين ، اما أن يغتصبها ذلك الملك الظالم ، وتفوت منافعها بالكلية على أولئك المساكين الضعفاء ، واما أن تخرق وتعاب ، فيتركها الملك لهم ، ثم يقوموا بعد ذلك باصلاحها ، ولما قارن بين الضررين ، اختار لها الضرر الأصغر ، دفعا للضرر الأكبر .

وكذلك أمر الغلام فان فى قتله فى الحال وفى الظاهر ضررا بالوالدين ، ولكنه لو لم يقتل وكبر ، لترتب على بقائه غشيان والديه بالكفر ، وذلك ضرر ما بعده ضرر ولذلك فقد اختار الضرر الأصغر ، وقتل الغلام .

ومثل ذلك فى أمر الجدار ، فان فى اقامته بعض المشقة ، وتضييع الوقت مع أناس ، بخلوا عليهما بالطعام والضيافة ، ولكن لو لم يقم لسقط ، وظهر كنز اليتيمين ، وتعرض للنهب والسلب ، وفى ذلك ضرر كبير لهما ، فلذلك اختار الخضر اقامة الجدار ، ولم يتركه يسقط .

يقول الفخر الرازى : « المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد ، وهو أن عند تعارض الضررين يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فهذا هو الأصل المعتبر فى المسائل الثلاثة ».(٤٧) .

ثالثا : يؤخذ من هذا المشهد أن الخضر ما خرق السفينة الا رعاية لهؤلاء المساكين ، وخوفا من ظلم الملك الطاغية لهم ، وقد رجحنا فى التفسير التحليلى أن المراد بالمسكنة هنا الضعف وعدم القدرة على درء الظلم والعدوان .

وفى هذا تنبيه لأولى الأمر ، فى جميع الأقطار الاسلامية على المسارعة الشديدة ، لانقاذ الأقليات المسلمة فى جميع بقاع الأرض ، والتى تتعرض لشتى أنواع التعذيب الجسدى ، والتضييق الاقتصادى ، والارهاب الفكرى ، والانتهاك للأعراض حتى يردوا عن دينهم ، وما يقع فى الفلبين وأريتيريا والهند ودول شرق أوربا ، وفلسطين وغيرها عن الأعين ببعيد ...

ألا فليعلم كل ولاة الأمور فى جميع الأقطار الاسلامية أنهم مسئولون عن اخوانهم الذين استغاثوا بهم ، ولا مغيث ، والكل يرى ما تقشعر منه جلود الذين ـ كفروا وليس الذين آمنوا فقط ـ من تهاويل للمستضعفين من المسلمين ، وكأنه لا رابطة تربط أولى الأمر وشعوبهم بأولئك المضطهدين ، والعجب يعترى الانسان حينما يرى زلزالا قد أحل بدولة شيوعية ، تنكر وجود الله ، وتحارب الاسلام والمسلمين ما استطاعت ، ثم تقوم الدول الاسلامية جميعا بمساعدتها بحجة الأخوة الانسانية ، والتعاون الدولى ، أما اخوانهم المسلمون ،

---

(٤٧) مفاتيح الغيب : ١٥٩/٢١ .

فلا رابطة تربطهم بهم ولا علاقة قائمة بينهم ، وكأنه لا قرآن يجمعهم ، ولا اسلام يوحدهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

رابعا : على الانسان أن يستعمل أرق العبارات مع الله تعالى ، وأفضلها أدبا ، وذلك واضح من تعبير الخضر فى هذا المشهد ، فحينما تكلم عن تعييب السفينة أضاف هذا الفعل الى نفسه ، فقال (فأردت أن أعيبها) ، وحينما تكلم عن الخير الذى سيكون للغلامين ، نسب الفعل الى الله ، فقال : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) ٠

وقد زدنا هذه النقطة وضوحا فى التفسير التحليلى ، وضربنا أمثلة على ذلك ، بمثل قوله تعالى (بيدك الخير) فى سورة آل عمران ، وبمثل قول ابراهيم فى سورة الشعراء (وإذا مرضت فهو يشفين) حيث أسند المرض لنفسه ، مع أن الله هو الذى بيده ذلك الفعل ، بينما نسب قبل ذلك الفعل وبعده أفعالا لله ، لما فيها من الخير والنفع ٠

وبهذا الأسلوب عبر الجن أيضا ، حينما قالوا : **« وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا »**(٤٨) ٠

خامسا : يؤخذ من تعليل الخضر لقتل الغلام بقوله : (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أن مخالطة الكفار فيها من الضرر ما فيها ، ولو كانوا أطفالا صغارا ٠

وفى هذا تنبيه لمن يريدون تمييع المسلم فى المجتمع الذى

---

(٤٨) الجن : ١٠ ٠

يعيش فيه ، وازالة ما يميزه من غيره ، فى حين أن غير المسلم يحاول جاهدا ابراز هويته من اسم ،ولغة ، وقسم بمن يعبده ، وتعليق أو لبس رموز خاصة بهم ، وغير ذلك ...

اننا فى الوقت الذى ننادى فيه بوجوب الاستقرار والأمن ، وعدم اعتداء طرف على طرف آخر فى الوطن الواحد ، حتى لا تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير ، ننادى أيضا بضرورة التحفظ من غير المسلمين ، فى التعليم ، وفى العلاج ، وفى أى نوع من أنواع المعاملة ... ، وما قصة (تشارلز) الأمريكى اليهودى مريض الايدز ، عن الأذهان ببعيد ، حيث كان يعمل ضمن شبكة كبيرة داخل أقاليم مصر ، لنشر مرض الايدز ، بين أطفال المصريين ، ولم يفعل معه أى شىء ، بل بلغ من وقاحته وهوان المسلمين ومذلتهم ، أن أعلن ذلك الشاب وهو على سلم الطائرة أنه سيعود مرة أخرى ، وبالفعل رحل وعاد مرة أخرى ، تحت اسم آخر ، وقبض عليه ورحل ، وللمرة الثانية يقول وهو على سلم الطائرة : سأعود للمرة الثالثة ، ولعله الآن قد عاد ، ومارس هوايته فى نشر الفساد والأمراض بين المسلمين .

ان مخالطة الكفار ، والتعاون معهم ، مشروط بشروط خاصة ، وفى مجالات محددة ، وليس الأمر مفتوحا على مصراعيه ، وصدق الله العظيم اذ يقول : **« ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »(٤٩) .**

سادسا : تفيد آيات هذا المشهد أن صلاح الآباء ينفع ذريتهما فى الدنيا والآخرة ، ان كان الأبناء مسلمين مثل الآباء ، وقد

---

(٤٩) هود : ١١٣ .

وردت الآيات والأحاديث فى ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى : « **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء** »(٥٠) ، وقوله تعالى : « **إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .** »(٥١) .

يقول القرطبى ، معلقا على قوله (وكان أبوهما صالحا) : « ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح فى نفسه ، وفى ولده ، وإن بعدوا عنه . »(٥٢) .

ويقول ابن كثير معلقا على قوله (وكان أبوهما صالحا) أيضا : بقوله : « فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم ، فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم الى أعلى درجة ، فى الجنة ، لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ، ووردت السنة به . »(٥٣) .

وفى هذا عبرة للآباء الذين يتكسبون من أعمال غير مشروعة ، ويعتمدون على السرقة والنهب ، والرشاوى ، وغير ذلك ، من الطرق المحرمة ، بدعوى بناء مستقبل آمن للأولاد ، ولو كان من سبيل غير مشروع ، فكل هذه الوسائل أدوات لافساد الأولاد ، ولمحق البركة منهم ، ولو عقل ذلك الانسان لعلم أن تقواه لله هو السبيل الوحيد لضمان مستقبل أولاده من بعده ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** »(٥٤) .

---

(٥٠) الطور : ٢١ .
(٥١) الأعراف : ١٩٦ .
(٥٢) تفسير القرطبى : ٣٨/١١ ، ٣٩ .
(٥٣) تفسير ابن كثير : ١٨٣/٥ .
(٥٤) النساء : ٩ .

سابعا : تعطينـا آيات هـذا المشـهد أن الانسـان لـو أراد الحكم على شىء بصـواب ودقـة ، فعليـه أن يتـأنى ولا يعجـل ، حتى يكون حكمـه سـديدا ، وعمـله بعـد ذلك صـائبا ورشـيدا ، وهـذا ما لـم يفعـله موسى عليـه السـلام حينمـا رأى أفعـالا من الخضـر فى ظاهرها مخالفـة للشـرع ، ولكنـه حينمـا سـمع من الخضـر تأويل تلك الأفعال ظهـر لـه صـحتها ، ووضـح لـه الفـرق الكبيـر بين الحكمة الالهيـة المطلقـة ، وبين الحـكمة الانسانية المحـددة .

((وبعـــــد))

فبهـذه العبـر نكـون قـد انتهينـا من قصـة موسى والخضـر ، عليهمـا السـلام ، نسـأل الله سبحانه وتعـالى ، أن نكـون من أولى الألبـاب ، الذين يتفكرون فى خـلق السموات والأرض ، وأن تكـون هـذه القصـة هـدى ورحمـة لنـا ولـكل المؤمنين .

* * *

قصـــة ذي القــــرنين

النص القــرآنى

هــذه هى القصــة الرابعــة والأخيرة من ســورة الكهف ، والتى تحكى لنــا طرفا من ســيرة ملك من ملوك الأرض ، مكن الله له ، فبسط سلطانه على مشــرق الدنيــا ومغــربها ، ناشرا العــدل بين النــاس ، مستخــدما ذلك التمــكين فى طــاعة من من عليــه وأولاه ، وعــرفه سبيله وهــداه .

ونستطيع تقسيم آيات هذه القصــة الى مجموعتين ، فى مشهدين ، كالآتى :

المشهــد الأول
تمكــين الله لــذى القــرنين
واستخدامه ذلك التمــكين فى نشــر العــدل
شــرقا وغــربا

كما نستطيع تقسيم آيات هــذا المشهد الى ثلاثة أجــزاء .

الجــزء الأول : ويتحدث عن السؤال عن ذى القرنين ، وعن بيــان تمكين الله له . ويشمل الآيتين (٨٣ ، ٨٤) ، وهما :

قوله تعــالى : « **ويســألونك عن ذى القــرنين ، قل سأتلو عليــكم منـــه ذكــرا (٨٣) انا مكنــا لــه فى الأرض وآتينــاه من كــل شيء سببــا (٨٤) »** .

الجــزء الثــانى : ويتحدث عن جهــاد ذى القــرنين ، وفتوحاته ، حتى وصــوله الى مغــرب الشمس ، ويشمــل الآيات من (٨٥) الى (٨٨) ، وهى :

قوله تعــالي : « **فاتبــع سببا (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب الشمس**

وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما، قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقوله له من أمرنا يسرا (٨٨) » .

الجزء الثالث : ويتحدث عن فتوحات ذى القرنين ، حتى وصوله الى مطلع الشمس ، ويشمل من الآية (٨٩) الى الآية (٩١) ، وهى :

قوله تعالى : « ثم اتبع سببا (٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا (٩١) » .

هذا عن المشهد الأول ، أما عن :

المشهد الثانى

فهو بعنوان :

منع ذى القرنين

لافساد يأجوج ومأجوج

ويشمل الآيات (٩٢) الى الآية (٩٩) ، وهى : قوله تعالى :

« ثم اتبع سببا (٩٢) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا (٩٣) قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا (٩٤) قال ما مكني فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما (٩٥) آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا (٩٦) فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا (٩٧) قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله

دكاء ، وكان وعد ربى حقا (٩٨) وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ... (٩٩) » .

تمهيد بين يدى القصة

اتباعا فى طريقتنا فى تناول قصص سورة الكهف ، بتقديم تمهيد بين يدى كل قصة ، نذكر هنا عدة أمور تمهيدية بين يدى قصة ذى القرنين ، حتى اذا ما دخلنا على تفسير آيات القصة ، واستخراج العبر منها ، كنا قد أحطنا علما بما ينبغى معرفته ، وبما يساعدنا فى هذا التفسير ، وفى استنباط تلك العبر .

ويقتصر حديثنا هنا على خمسة أمور :

أولا : من ذو القرنين ؟

ثانيا : متى كان ؟

ثالثا : لم سمى بهذا الاسم ؟

رابعا : أمور تتعلق بذى القرنين ، مع يأجوج ومأجوج ، وهى :

١ - ما السدان اللذان ردم بينهما ذو القرنين ردما ؟ وأين هما ؟

٢ - من هم هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا ؟ وأين بلادهم ؟

٣ - من يأجوج ومأجوج ، اللذين استغاث منهم هؤلاء القوم ؟

خامسا : ما مناسبة آيات القصة لما قبلها ؟

فلنبدأ الحديث عن هذه الأمور سائلين المولى عز وجل أن يؤتينا من لدنه رحمة وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، آمين .

أولا : من ذو القرنين ؟

اختلف العلماء فى تعيين ذى القرنين ، اختلافا بينا ، وتعددت أقوالهم فى ذلك تعددا ظاهرا ، بحيث لا يمكن الجمع بينها ، ونحن

فى هذا المقام نورد تلك الأقوال جملة ، ثم نتبعها بتفصيل كل قول على حدة ، بذكر وجهة نظر قائليه ، وأدلتهم ، ثم مناقشتهم فى رأيهم هذا ، وفى أدلتهم التى استندوا اليها ، ثم نأتى فى النهاية بأرجح الأقوال ، فى ذلك الموضوع ٠

أما اجمال هذه الأقوال ، فانها تنحصر فيما يأتى :

١ ـ ذهب البعض الى أن ذا القرنين كان ملكا من ملائكة السماء ٠

٢ ـ وقال آخرون : بل كان نبيا من الأنبياء ٠

٣ ـ وقال فريق ثالث : بل كان ملكا معينا من ملوك الأرض ٠

وأصحاب هذا الفريق الثالث اختلفوا فيما بينهم فيمن يكون هذا الملك ؟

(أ) فقال بعضهم : انه كان ملكا من ملوك الفرس ٠

(ب) وقال آخرون :بل هو ملك من ملوك اليمن ٠

(جـ) وقال آخرون : بل هل هو الاسكندر الشهير ، صاحب الفتوحات العظيمة ، والذى بنى الاسكندرية ٠

٤ ـ وذهب فريق رابع : الى أنه كان ملكا صالحا ، عادلا ، ولكنه غير معروف الآن ٠

هذه هى الأقوال التى قيلت فيمن يكون هذا الملك ، على جهة الاجمال ، فاذا ما جئنا الى تفصيل تلك الأقوال ، فاننا نقول :

١ ـ ان الذين ذهبوا الى أن ذا القرنين ملك من ملائكة السماء ، استدلوا بما يروى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رجلا يقول : يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا ، ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء ، حتى تسميتم بأسماء الملائكة ٠

ونقول : ان هذا الرأى رأى باطل ، والقول به قول كاسد ، فاسد ، اذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ، ولم يعرف عن ملك من

ملائكة الله مثل هذا ، وهذه الرواية وأمثالها ، لا تصح عن عمر رضى الله عنه ، ولهذا يقول الامام الآلوسى - معقبا على هذا الرأى - :

« وهذا قول غريب ، بل لا يكاد يصح ، والخبر على فرض صحته ليس نصا فى ذلك ، اذ يحتمل - ولو على بعد - أن يكون المراد أن هذا الاسم من أسماء الملائكة عليهم السلام ، فلا تسموا به أنتم ، وان تسمى به بعض من قبلكم من الناس »(١) .

٢ - **أما القول الثانى** : الذى ينص أتباعه على أن ذا القرنين كان نبيا ، فيحتج أصحابه بأدلة ثلاثة : مستنبطة من ألفاظ القصة ذاتها ، وقد ذكرها الفخر الرازى فى تفسيره ، موضحا وجه الاستدلال ، وعقب ذلك ، وفى تفسيره لقوله تعالى : **(انا مكنا له فى الأرض)** رجح القول بنبوة ذى القرنين .

وها أنذا أذكر هذه الأوجه ، معقبا عليها بما أراه صحيحا من وجهة نظرى .

الوجه الأول : مستنبط فى قوله تعالى : **(انا مكنا له فى الأرض)** ، حيث قالوا : والأولى حمله على التمكين فى الدين ، والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة .

وفى تفسير هذه الآية يقول الفخر الرازى : « فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ، ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك ، من حيث انه ملك مشارق الأرض ومغاربها ، والأول أولى ، لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك ، وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولى »(٢) .

---

(١) روح المعانى : ٢٤/١٦ .
(٢) مفاتيح الغيب : ١٦٥/١٢ .

أقول : هذا الاستنباط الذى استنبطه بعض هؤلاء العلماء ، وأيدهم فيه الفخر الرازى عليه مجميعا رضوان الله تعالى ، استنباط غير دقيق ، وبالتالى فلا حجة لهم به ، ذلك أن التمكين العظيم لا يستلزم النبوة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** »(٣) ، فهل يعنى ذلك نبوة كل خليفة يكون بيده أمر المؤمنين ؟ وهل كان الخلفاء الراشدون أنبياء ، مع أن الله قد مكن لهم تمكينا عظيما ؟

الوجه الثانى : استنبطوه من قوله تعالى : (**وآتيناه من كل شىء سببا**) ، حيث قالوا : من جملة الأشياء النبوة ، فمقتضى العموم فى قوله : **وآتيناه من كل شىء سببا**) أنه تعالى آتاه فى النبوة سببا .

أقول : هذه الآية يقصد بها المبالغة فى تعظيم وتكثير ما امتن الله به على هذا العبد الصالح ، لا أن الله تعالى آتاه كل شىء ، فهو وان كان فى ظاهره يفيد العموم ، الا أنه فى الحقيقة مخصص ، وهذا أسلوب جرى عليه عرف الناس ، وورد استعماله في القرآن الكريم ، انظر الى قوله تعالى فى ملكة سبأ : « **وأوتيت من كل شىء** »(٤) ، هل يستطيع أحد أن يقول أن هذه الملكة أوتيت ـ فيما أوتيت ـ النبوة ؟ ذلك ما لا يقوله هؤلاء ولا غيرهم ، اذ كيف يعطى الله النبوة لرجل كافر ، فضلا عن اعطائها لامرأة كافرة ، والله يقول : « **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** »(٥) .

الوجه الثالث : استنبطوه من قوله تعالى : (**قلنا يا ذا القرنين**

---

(٣) سورة النور آية : ٥٥ .
(٤) سورة النمل آية : ٢٣ .
(٥) يوسف : ١٠٩ ، والنحل : ٤٣ .

إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) حيث قالوا : والذى يتكلم الله معه لابد وأن يكون نبيا .

أقول : لا يلزم من هذه الصيغة (قلنا) ، وأمثالها أن يكون الخطاب من الله تعالى مباشرة مع من قيل له هذا الكلام ، ولكن يحمل على وجه آخر ، كأن يكون الخطاب اليه بواسطة نبى معاصر له ، وانظر فى ذلك الى خطاب الله لبنى اسرائيل فى مواضع عدة ، فمثلا يقول عنهم : « **وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت** »(٦) ، « **وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية** » (٧) ، و « **وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض** »(٨) .

فهل هذا يعنى أن الله تعالى وجه خطابه مباشرة بدون واسطة مع كل فرد من أفراد بنى اسرائيل ؟

ذلك ما لا يقوله أصحاب هذا القول أنفسهم ، بل ان العرف الجارى بين الناس يشهد بذلك ، فانى قد أقول : قلت لفلان اعمل كذا ، ولا تعمل كذا ، عن طريق ارسال رسول اليه ، ولكنى حينما أخبر بذلك ، لا أذكر هذا الواسطة .

مع أن الفخر الرازى الذى رجح تمكينه العظيم بسبب النبوة ، رجح قبل ذلك بقليل جدا أن ذا القرنين هو الاسكندر اليونانى ، بل أوجب القول بقبول ذلك ، حيث يقول رحمه الله :

« والقول الأول - أى كون ذى القرنين هو الاسكندر اليونانى - أظهر ، لأجل الدليل الذى ذكرناه ، وهو أن مثل هذا الملك العظيم يجب أنيكون معلوم الحال عند أهل الدنيا ، والذى هو معلوم الحال

---

(٦) سورة النساء آية : ١٥٤ .
(٧) سورة البقرة آية : ٥٨ .
(٨) سورة الاسراء آية : ١٠٤ .

بهذا الملك العظيم هو الاسكندر ، فوجب أن يكون المراد بذى القرنين هو هو »(٩) ٠

فكلامه متناقض ، لا يتوافق بعضه مع بعض ٠٠٠

واذا ثبت ضعف هذه الأدلة التى ذكرها من قال بنبوة ذى القرنين ، ولم يثبت من النصوص الشرعية ما يوجب القول بنبوته ، فاننا لا نستطيع الجزم ولا الظن بصحة هذا الرأى ٠

٣ ـ أما الفريق الثالث ، والذى ذهب أصحابه الى أن ذا القرنين كان ملكا معينا ، ولكنهم اختلفوا فى تحديده ، فتفصيل الكلام فيه على النحو التالى :

(أ) ذهب بعضهم الى أنه كان ملكا من ملوك الفرس ، وهو : (فريدون ابن اثفيان ،) خامس ملوك الفرس ، الفيشدادية ، وكان ملكا صالحا ، مطيعا لله تعالى ، عادلا ، رحيما ، وتذكر كتب التاريخ عنه أنه ملك الأرض ، وقسمها بين بنيه الثلاثة ٠

أقول : ان (فريدون) هذا لم يؤثر عنه أنه طاف الأرض ، ولم تذكر كتب التاريخ سفرا له ، غربا أو شرقا ، بل المأثور أن الذى كان يتولى أمر فتوحاته أحد أتباعه ، المسمى بـ (كاوه الأصفهانى الحداد) أما ذو القرنين المذكور فى القرآن ، فقد باشر السفر والفتوحات بنفسه ، وقام بنفسه ببناء السد ، الذى حال بين يأجوج ومأجوج وافسادهم فى الأرض ٠

يقول العلامة الآلوسى ـ معقبا على هذا الرأى ـ : « ورد بأنه قد أجمع أهل التاريخ أنه لم يسافر ، لا شرقا ولا غربا ، وانما دوخ له البلاد (كاوه الأصفهانى الحداد) الذى مزق الله على يده ملك الضحاك ، وبقى رئيس العساكر ، الى أن مات »(١٠) ٠

---

(٩) مفاتيح الغيب : ١٦٥/٢١ ٠
(١٠) روح المعانى : ٢٥/١٦ ٠

(ب) أمـا من قـال ان ذا القرنين كـان ملـكا من ملوك اليمن ، فقد قال : انـه « أبـو كرب سمى بن عمير بن أفريقيش الحميرى » وهـو الذى افتخـر بـه تبـع اليمـانى ، وقـال عنـه :

قـد كـان ذو القـرنين جـدى مسلما

ملـكا عـلا فى الأرض غيـر مفنـد

بلـغ المغـارب والمشـارق يبتـغى

أسـباب ملـك مـن حـكيم مرشـد

فـرأى مغيب الشـمس عنـد غروبهـا

فى عـين ذى خـلب وثـأط حرمـد

وقـال أصحاب هـذا الـرأى : والدليـل على أن هـذا الـرأى أقـرب الى القبول من غيـره أن الأذواء كـانوا من اليمن ، كذى نواس، وذى يـزن ، وغيرهما ..

وحـدد أصحاب هـذا الـرأى زمـان ذى القـرنين اليمنى هـذا : بأنـه كـان معـاصرا لحياة الخليـل ابراهيـم عليـه السـلام ، وأنـه اجتمـع معـه فى مكـة المكرمة ، وقـد نسـبوا الى أبيـه بنـاء مدينـة أفريقية ، وسميت باسـمه ، حيث كانت لـه غـزوات تجـاه المغـرب ، حتى وصـل (طنحـة) ، واتجـه أيضـا نحـو العـراق والصـين .

أقــول : ان هـذا القـول ـ كالأقـوال السابقة ـ لـم يخـل من نقـد ، وتزييف ، حيث وجـدت فيـه ثغـرات ، هى بمفردها كفيلـة بالحـكم عليـه بالبطـلان .

فاننـا اذا رجعنـا الى تاريخ ملوك اليمن ، وطابقنا هـذا الكـلام عليهـم ، فاننـا لا نجـد فيهـم من يسـمى بهـذا الاسم الذى ذكروه، وهـو (سـمى بن عميـر بن أفريقيش) وانمـا المعـروف ملك يقـال

له (شمر بن أفريقيش) وليس بن (شمر) هذا و (أفريقيش) (عمير) ٠

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المقام أنه كان فى اليمن ملك اسمه (شمر يرعش) ، وسمى بذلك لارتعاش كان فى أعضائه٠

وعلى هذا فقد يقول قائل : لعل التحريف قد أصاب الاسم ، فـ (شمر) قد حرف الى (سمى) و (يرعش) حرف الى (بن عمير) ٠

ولكننا نقول : هذا تكلف ظاهر ، فيه من عدم اليقين ، والضعف ما فيه ٠

ثم ان فى تعيينهم لزمانه بأنه كان فى عصر الخليل ما يبطل هذا القول تماما ، وذلك من خلال تاريخ ذلك الملك نفسه ، والأحداث التى يذكرونها عنه ، حيث ينص تاريخه أنه ملك بعد سليمان عليه السلام ، وشتان مابين زمان ابراهيم ، وزمان سليمان عليهما السلام ٠

وللعلامة الآلوسى عليه رحمة الله تعقيب طيب على هذا الرأى، يحسن بنا فى هذا المقام أن نورده ، يقول رحمه الله : « وأورد على هذا القول فى ذى القرنين أنه لم يوجد فى كتب التواريخ المعتبرة (سمى بن عمير بن أفريقيش) فى عداد ملوك اليمن ، والمذكور انما هو (شمر - بصيغة فعل الماضى ، من التشمير - بن أفريقيش) ولم يذكروا بينه وبين (أفريقيش) عميرا ، وقد ذكر بعضهم فيه أنه ذو القرنين ، وقالوا : انه يقال له (شمر يرعش) لارتعاش كان فيه ، فلعل (سمى) محرف عن (شمر) و (بن عمير) محرف من (يرعش) ، الى أن قال الآلوسى : « ثم ان هذا لم يكن بأبى كرب ، وانما المكنى به على ما رأيناه فى

بعض التواريخ « أسعد بن كليكرب » ويقال له (تبع الأوسط) ، ويذكر أنه آمن بنبينا ﷺ قبل مبعثه . الى أن يقول :

« ولا يخفى أن كلا هذين الشخصين لا يصح أن يكون المراد بذي القرنين ، الذى ذكر أنه لقى ابراهيم عليه السلام ، أما الأول فلأنهم ذكروا أنه ملك بعد (ياسر ينعم بن عمرو) ، وملك ياسر بعد (بلقيس) زوجة سليمان عليه السلام ، وكان عمها ، فكيف يتصور أن يكون هذا ذاك ، مع بعد زمان مابين ابراهيم وسليمان عليهما السلام .

وأما الثانى : فلأنه بعد هذا بكثير ، مع أنه لم يطلق عليه أحد ذا القرنين ، ولا نسب اليه غزوا ، فى مشارق الأرض ومغاربها .

ورأيت فى بعض الكتب أن فى زمن (منوجهر بن ايرج بن أفريدون) بعث موسى عليه السلام ، وكان ملك اليمن فى زمانه (شمر) أبا الملوك ، وكان فى طاعته .

وعليه أيضا لا يمكن أن يكون (شمر) هذا هو ذا القرنين السابق ، وهو ظاهر »(١١) .

وبهذا يتضح أن من قال ان ذا القرنين هو أحد ملوك اليمن لم يصب فى قوله .

(ج) أما من قال ان ذا القرنين هو الاسكندر : فقد قال بعضهم انه الاسكندر اليونانى بن فيليوس ، وقيل قليص ، وقيل فيليس ، الذى غلب دارا الأصغر ، ملك الفرس ، واستولى على مملكة الفرس .

---

(١١) روح المعانى : ٣٨/١٦ .

فبعد أن مات أبوه وحد ملوك الروم بعد أن كانوا متفرقين متنافرين ، ثم قهر ملوك المغرب ، وواصل زحفه وانتصاراته حتى وصل البحر الأخضر ، ثم توجه الى مصر ، وبنى الاسكندرية ، وأطلق عليها اسمه ، ثم غزا الشام ، ودخل بيت المقدس ، وقهر القبط والبربر والعراقيين ، ثم قصد مملكة الفرس ، وهزم ملكها دارا بن دارا أكثر من مرة ، الى أن قتل دارا على يد قائد حرسه ، فاستولى الاسكندر على أثر ذلك على مملكة الفرس ، ثم توجه الى الهند والصين ، وغيرها من الأقطار البعيدة ، ثم عاد الى العراق ، الى أن كانت نهايته بـ (شهر زور) حيث مرض بها ، وتوفى فيها .

وقد أخذ بهذا الرأى الفخر الرازى ، وأبو السعود ، والآلوسى وجمهور المسلمين . واستدلوا لصحة قولهم هذا بما ذكره الفخر الرازى بقوله :

« ان القرآن دل على أن الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه الى أقصى المغرب ، بدليل قوله (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) ، وأيضا بلغ ملكه أقصى المشرق ، بدليل قوله (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) ، وأيضا بلغ ملكه أقصى الشمال ، بدليل ان يأجوج ومأجوج قوم من الترك ، يسكنون فى أقصى الشمال .

وبدليل أن السد المذكور فى القرآن يقال فى كتب التواريخ انه مبنى فى أقصى الشمال .

فهذا الانسان المسمى بذى القرنين فى القرآن ، قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب ، والمشرق ، والشمال ، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض ، ومثل هذا الملك لاشك أنه على خلاف العادات ، وماكان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الدهر ، وأن لا يبقى مخفيا مستترا .

والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه الى هذا الحد ليس الا الاسكندر ، الى أن يقول الفخر الرازى :

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض بالكلية ، أو ما يقرب منها ، وثبت بعلم التواريخ أن الذى هذا شأنه ماكان الا الاسكندر وجب القطع بأن المراد بذى القرنين هو الاسكندر بن فيلبوس اليونانى »(١٢) .

هذا هو قول من قال ان ذا القرنين هو الاسكندر اليونانى ، بانى الاسكندرية ، وصاحب الفتوحات الكثيرة .

ولكن بنظرة متأنية نستطيع رد هذا القول بكل وضوح ، رغم كثرة عدد القائلين به ، وجلالة قدرهم ، وبلوغهم فى العلم مبلغا عظيما ، ويتلخص ردنا على هذا الرأى فى نقطتين :

١ - **النقطة الأولى** : يذكرها الآلوسى نفسه - وهو الذى أخذ بهذا الرأى - بقوله : « واعترض على هذا الرأى بأن الاسكندر المذكور ، لم يتحقق له سفر نحو المغرب ، فى كتب التواريخ المعتبرة ، وقد نبه على ذلك كاتب جلبى عليه الرحمة »(١٣) .

٢ - النقطة الثانية : وهى الأهم ، والتى تمثل السيف القاطع ، والقاضى على هذا الرأى : أن الاسكندر اليونانى هذا كان كافرا ، وكان تلميذا لأرسطو الفيلسوف الشهير ، فى حين أن ذا القرنين الذى ذكره القرآن كان رجلا مسلما ، مؤمنا بالله واليوم الآخر .

وقد تنبه الى ذلك الفخر الرازى نفسه ، ونبه عليه ، رغم

---

(١٢) مفاتيح الغيب : ١٦٣/٢١ .

(١٣) روح المعاني : ٢٦/١٦ .

تقويته للقول بهذا الرأى ، فبعد أن ذكر الأدلة السابقة ، التى تبدو فى نظره معضدة لرأيه هذا تشكك فى هذا القول ، وقال :

« الا أن فيه اشكالا قويا ، وهو أنه كان تلميذ أرسطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاليس حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل اليه ، والله أعلم »(١٤) .

ويقول ابن كثير : « أما الاسكندر اليونانى المقدوني فكان مشركا ، وكان وزيره فيلسوفا ، فأين هذا من هذا ؟ لايستويان ولا يشتبهان الا على غبى ، لا يعرف حقائق الأمور »(١٥) .

وللطاهر بن عاشور صاحب تفسير التحرير والتنوير ، كلمة طيبة فى هذا المقام ، فبعد أن ذكر تسع صفات لذى القرنين ، كلها مأخوذة من ألفاظ القصة قال :

« وأنت اذا تدبرت جميع هذه الأحوال نفيت أن يكون ذو القرنين اسكندر المقدونى ، لأنه لم يكن ملكا صالحا ، بل كان وثنيا ، فلم يكن أهلا لتلقى الوحى من الله(١٦) ، وان كانت له كمالات على الجملة .

وأيضا : فلا يعرف فى تاريخه أنه أقام سدا بين بلدين .

وأحسب أن لتركيب القصة المذكورة فى هذه السورة ، على اسم اسكندر المقدونى أثرا فى اشتهار نسبة السد اليه ، وذلك من أوهام المؤرخين فى الاسلام .

---

(١٤) مفاتيح الغيب : ١٦٥/٢١ .
(١٥) البداية والنهاية : ١٠٥/٢ ، ١٠٦ .
(١٦) سبق أن ضعفنا قول من قال بنبوة ذي القرنين ، فليعلم .

ولا يعرف أن مملكة اسكندر كانت تبلغ فى الغرب الى عين حمئة ، وفى الشرق الى قوم مجهولين عراة ، أو عديمى المساكن ، ولا أن أمته كانت تلقبه بذى القرنين ، وانما انتحل هذا اللقب له لما توهموا أنه المعنى بذى القرنين فى هذه الآية :

فمنحه هذا اللقب من مخترعات مؤرخي المسلمين »(١٧) .

ويرجع الأستاذ أبو الحسن الندوى خطأ من قال ان ذا القرنين هو الاسكندر المقدونى بانى الاسكندرية ، وصاحب هذه الفتوحات الى الجهل بتاريخ الاسكندر نفسه .

يقول أكرمه الله : « اختلف المفسرون فى شخصية هذا الرجل ، والقول الشائع المشهور أنه الاسكندر المقدونى ، وهو القول الذى انتصر له الامام الرازى ، وذهب اليه عامة علماء الاسلام ولكنه قول لا وجه له ، لأن الاسكندر المقدونى لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن فى وصف ذي القرنين ، من اتصافه بالايمان بالله وخشيته ، والعدل والرحمة بالمفتوحين ، وبناء السد العظيم .

وأرجح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الاسكندر ، وسيرته فى الحروب »(١٨) .

أما ما ذكره الآلوسى من أنه لا يلزم من كون الاسكندر تلميذا لأرسطو أن يكون على مذهبه ، محاولا بذلك أن يثبت اسلام الاسكندر هذا فدونه بلوغ سدرة المنتهى .

ورغم أنه قال باحتمال اسلامه الا أنه قال :

---

(١٧) التحرير والتنوير : ٢٠/١٦ ، ٢١ .
(١٨) تأملات في سورة الكهف للأستاذ أبو الحسن الندوى : ٩٧ .

« ولا يخفى أنه احتمال بعيد ، والمشهور أنه كان قائلا بما يقوله الحكماء »(١٩) .

وان تعجب فعجب قول امامنا الآلوسى عليه رحمة الله بعد هذا القول السابق :

« وكأنى بك بعد الاطلاع على الأقوال ، ومالها وما عليها تختار أنه الاسكندر بن فليقوس ، غالب دارا ، وتدعى أنه يقال له اليونانى كما يقال له الرومى ، وأنه كان مؤمنا بالله تعالى، لم يرتكب مكفرا ، من عقد ، أو قول ، أو فعل ، وتقول ان تلمذته على أرسطو لا تمنع من ذلك»(٢٠) .

هذا فيما يتعلق بمن قال ان ذا القرنين هو الاسكندر اليونانى .

* وقد ذهب آخرون الى القول بأن ذا القرنين هو الاسكندر الرومى ، وهو متقدم على اليونانى بكثير ، ويقال له ذو القرنين الأكبر ، ولا دليل يشهد لصحة هذا القول .

* وذهب فريق ثالث الى أن : الاسكندر اليونانى والاسكندر الرومى كلاهما يطلقان على غالب دار الأصغر ، وأنه لا يوجد الا اسكندر واحد ، هو هذا الذى غلب دارا واستولى على ملك فارس .

* بينما يرى ابن كثير أن المسمى بذى القرنين شخصان :

١ - أحدهما هو المراد فى سورة الكهف ، وكان ملكا صالحا ، رضى الله عمله ، وأثنى عليه فى كتابه ، وكان منصورا ،

---

(٢٠) روح المعانى : ٢٩/١٦ .

وكان الخضر وزيره ، وأنه أسلم على يدى ابراهيم الخليل ، وطاف معه بالكعبة المكرمة ، هو واسماعيل عليهما السلام ٠

٢ - أما الثانى فهو الاسكندر بن فيلبس بن مصريم الى أن يصل نسبه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ٠

وهو المقدونى اليونانى المصرى بانى اسكندرية ، الذى يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخرا عن الأول بدهر طويل ، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان أرطاطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذى قتل دارا بن دارا ، وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم ٠

ثم يقول ابن كثير : « وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن هو الذى كان أرطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير ، وفساد عريض طويل كثير ، فان الأول كان عبدا مؤمنا صالحا ، وملكا عادلا وأما الثانى فكان مشركا ، وكان وزيره فيلسوفا ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفى سنة ، فأين هذا من هذا ؟ لا يستويان، ولا يشتبهان الا على غبى لا يعرف حقائق الأمور »(٢١) ٠

هكذا يذهب ابن كثير الى أن المسمى بذى القرنين شخصان ، ويضعف قول من يذهب الى المراد به فى القرآن هو الاسكندر اليونانى المقدونى بانى الاسكندرية ، حيث كان كافرا ، أما ذو القرنين المذكور فى القرآن ، فقد كان مسلما صالحا ، وملكا عادلا رحيما ، ويذهب الى القول بأن ذا القرنين هذا كان فى زمان الخليل وطاف معه بالكعبة هو واسماعيل ٠

واذا كنا قد رددنا كل الأقوال السابقة فاننا نستطيع أيضا

---

(٢١) البداية والنهاية : ١٠٣/٢ - ١٠٦ ٠

أن نرد القول الذى ذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - أيضا ٠

حيث قد حدد زمن ذى القرنين بأنه زمن الخليل ابراهيم عليه السلام ، كما يذكر ابن كثير أن الخضر كان وزير ذى القرنين ، ومعلوم أن الخضر كان معاصرا لموسى ، وموسى بينه وبين الخليل حوالى سبعة أجيال ، فهو كما قال ابن كثير نفسه (موسى بن عمران ابن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام)(٢٢) ٠

فهل عاصر ذو القرنين كلا من ابراهيم وموسى عليهما السلام ؟ لقد وضح الآلوسى فى تفسيره ضعف أى قول ينص على أن ذا القرنين كان فى زمن ابراهيم وأورد عدة استشكالات على من يقول بذلك ، مما يجعلنا نستبعد أى قول يتجه نحو هذا الاتجاه ، فليرجع الى تفسيره ٠

والذى جعل ابن كثير يقول بأن ذا القرنين كان فى زمن الخليل استناده لرواية منسوبة الى ابن عباس ، والله أعلم بصحة هذه الرواية ، وغالب الظن أنها لم تصح عن ابن عباس ، وان صحت فهى من الأمور التى فيها مجال للرأى والاجتهاد ، وليست مما يتوقف على النقل من القرآن أو السنة ، فهى أمور تتعلق بالتاريخ ، والأمكنة والأعصار ، وتلك الأمور يعتريها من التشويه والنسيان ، والزيادة والنقصان ، مالا يخفى على أحد ، مما ينفى الثقة التامة عنها ، ان كان مصدرها الوحيد هو ذلك التاريخ البعيد المجهول ٠

ولقد صدق الآلوسى ، وهو يتحدث عن ذى القرنين ، وعن

---

(٢٢) البداية والنهاية : ١/٢٣٧ ٠

الأزمنة الغابرة ، حيث يقول بأسلوب مشكك : « وتواريخ هاتيك الأعصار قد أصابها اعصار ، ولم يبق ما يعول عليه ، ويرجع فى حل المشكلات اليه »(٢٣) ٠

وعلى ذلك فكل من ذكر أن ذا القرنين هو الاسكندر ، سواء أكان اليونانى المقدونى بانى الاسكندرية ، أم غيره فقوله ضعيف لا يلتفت اليه ٠

٤ - والى هنا نكون قد وصلنا الى القول الرابع ، الذى ينص أتباعه على أن ذا القرنين هذا لم يكن ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ولكنه كان عبدا صالحا ، وملكا عادلا ، الا أننا لم نعرف من هو على جهة التحديد واليقين ، لعدم الأدلة اليقينية التى تجعلنا نقطع بمن يكون هو ٠

ورغم أن الآلوسى اختار أن ذا القرنين هو الاسكندر اليونانى ، الا أنه قال معلقا على كل الأقوال التى قيلت فى هذا الموضوع ٠

« وبالجملة : لا يكاد يسلم فى أمر ذى القرنين شىء من الأقوال عن قيل وقال »(٢٤) ٠

وعلى ذلك : وبناء على كل الاعتراضات التى وجهت لكل قول حدد من هو ذو القرنين ؟ فانى أميل الى ذلك الرأى الرابع ، والذى ينص على أن ذا القرنين عبد صالح ، وملك عادل ، مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليس هو الاسكندر اليونانى أو الرومى ، أو غيره ، وذلك لثلاثة أسباب :

١ - عدم دليل قاطع صحيح ، من القرآن أو السنة ، فى تحديد هذا العبد ٠

---

(٢٣) روح المعانى : ٢٧/١٦ ٠

(٢٤) روح المعانى : ٢٩/١٦ ٠

٢ - أن تدوين التاريخ أمر حديث ، والقرآن حينما يذكر أحوال السابقين ، يذكر أحوالا وأخبارا ، لا يعرف التاريخ الحديث عنها شيئا .

٣ - ولو عرف التاريخ عنها شيئا فان هناك عوامل خاصة ، تجعل التاريخ محرفا ، اما عن عمد ، واما عن قصور .

وبالتالى فاننا لا نجعل القرآن الكريم أسير هذا التاريخ الجاهل ، أو المحرف ، أو القاصر .

وللسيد قطب - رحمه الله وطيب ثراه - كلمة طيبة فى شأن ذى القرنين هذا ، يحسن بنا أن نختتم الكلام عن هذه النقطة بها ..

يقول عليه الرحمة والرضوان : « أن النص لا يذكر شيئا عن شخصية ذى القرنين ، ولا عن زمانه أو مكانه ، وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن ، فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود ، انما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة ، والعبرة تتحقق بدون حاجة الى تحديد الزمان والمكان ، فى أغلب الأحيان .

والتاريخ المدون يعرف ملكا اسمه الاسكندر ذو القرنين ، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن ، فالاسكندر الاغريقى كان وثنيا ، وهذا الذى يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله ، موحد ، معتقد بالبعث والآخرة » .

الى أن يقول رحمه الله : « لا يمكن البحث فى التاريخ المدون عن ذى القرنين ، الذى يقص القرآن طرفا من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد فى القرآن ، كقصص قوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح وغيرهم ، فالتاريخ مولود حديث العهد جدا

بالقياس الى عمر البشرية ، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة ، لا يعرف عنها شيئا ، فليس هو الذى يستفتى فيها .

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات ، لكانت مرجعا يعتمد عليه فى شىء من تلك الأحداث ، ولكن التوراة أحيطت بالأساطير ، التى لاشك فى كونها أساطير ، وشحنت كذلك بالروايات التى لاشك فى أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله ، فلم تعد التوراة مصدرا مستيقنا لما ورد فيها من القصص التاريخى .

واذاً : فلم يبق الا القرآن ، الذى حفظ من التحريف والتبديل هو المصدر الوحيد ، لما ورد فيه من القصص التاريخى .

ومن البدهى أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم الى التاريخ لسببين واضحين :

أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى فى تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئا ، والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التى ليس لها لدى التاريخ علم عنها .

وثانيهما :أن التاريخ ـ وان وعى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة ، يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر ، من القصور والخطأ والتحريف ، ونحن نشهد فى زماننا هذا ـ الذى تيسرت فيه أسباب الاتصال ، ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد ، أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر اليه من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة ، ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك فى التمحيص والتدقيق !

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التى ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة ، التى تقرر أن القرآن هو القول الفصل ، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمى على السواء ، انما هو مراء !!! »(٢٥) .

ويؤيد الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه « تأملات فى سورة الكهف » الأستاذ سيد قطب فى كل ما كتبه فيما يتعلق بشخصية ذى القرنين ، حيث يقول بالحرف الواحد :

« نحن نوافق على ما كتبه الأستاذ الشهيد سيد قطب فى هذا المقام ، ويحسن بنا أن ننقله حرفيا ، قال رحمه الله : « ان النص لا يذكر شيئا عن شخصية ذى القرنين ... الخ » .

ثم نقل الأستاذ أبو الحسن الندوى عن السيد قطب النص الذى نقلناه الآن بالكامل »(٢٦) .

والآن نستطيع أن نقول : ان كل ما ذكره المفسرون فى تحديد ذى القرنين لا يخلو ـ كما قال الآلوسى(٢٧) ـ عن قيل وقال ، وعلى ذلك : فيجب السكوت عما سكت عنه القرآن ، ويكفينا أن نعلم أنه كان عبدا صالحا وملكا عادلا رحيما ، أما ما يتعلق بمن يكون ذلك العبد الصالح ؟ فان ذلك من الأمور التى لا يهتم بها ، ولا بمثلها ، لعدم توقف العبرة على ذلك .

---

(٢٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ـ نعمه الله ـ :٤/٢٢٨٩،٢٢٩٠
(٢٦) تأملات فى سورة الكهف : ٩٩ ـ ١٠٢ .
(٢٧) فى روح المعانى : ١٦/٢٩ .

ثانيا : متى كان ذو القرنين ؟

والآن اتضح لنا بكل جلاء أن زمان ذى القرنين مجهول ، لا يعلمه الا الله ، أما ما ذكره البعض من أنه كان فى زمن الخليل كما تقدم ، أو أنه كان من ولد يافث بن نوح ، أو كان بعد ثمود ، أو فى الفترة بين عيسى و محمد ﷺ ، كما نقله أبو حيان وابن الجوزى فى تفسيريهما (٢٨) أو بعد موسى كما نقله القرطبى عن جماعة (٢٩) .

فكل ذلك قول بغير علم ، واتباع للظن ، وان الظن لا يغنى عن الحق شيئا .

ثالثا : لم سمى ذو القرنين بهذا الاسم ؟

اختلفت اجابات المفسرين فى الاجابة عن هذا السؤال ؟ وقد رأينا منها أقوالا قد تكون صحيحة ، وأخرى لا يقبلها عقل ، ولا يقرها شرع ، ونقتصر هنا على أشهر الأقوال .

١ - قيل لأنه طاف قرنى الدنيا ، أى بلغ مشرقها ومغربها .

٢ - وقيل كان له ضفيرتان ، والعرب تسميهما قرنين .

٣ - وقيل كان لتاجه قرنان .

٤ - وقيل كانت صفحتا رأسه من نحاس .

٥ - وقيل كان على رأسه ما يشبه القرنين .

٦ - وقيل لأنه ملك الروم وفارس ، أو الروم والترك .

٧ - وقيل لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس .

---

(٢٨) أنظر البحر المحيط : ١٥٨/٦ ، وزاد المسير : ١٨٤/٥ .
(٢٩) أنظر الجامع لأحكام القرآن : ٤٧/١١ .

٨ - وقيل : يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشا ، لأنه ينطح أقرانه ... قاله الزمخشرى .

أقول : لا مانع أن يكون هذا الملك قد سمى بذى القرنين لأكثر من سبب ، من هذه الأسباب ، ولكن العمدة فى ذلك - فى نظرى - قول من قال : انه سمى بذلك لأنه بلغ قرنى الدنيا ، أى شرقها وغربها ، لأن القرآن قد نص على بلوغ سلطانه مغرب الشمس ومشرقها .

ثم لا مانع أن يكون ذو القرنين قد لبس على أثر ذلك تاجا ، له قرنان ، رمزا لعموم سلطانه على قرنى الدنيا ، كما يفعل ملوك الامبراطوريات الحديثة ، حيث يتخذون على ملابسهم وتيجانهم رموزا وشعارات ، ترمز الى حدود ممالكهم .

رابعا : أمور تتعلق بذى القرنين مع يأجوج ومأجوج

جاء فى هذه القصة أن ذا القرنين واصل فتوحاته حتى اذا (بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) .

وهنا تظهر عدة أسئلة :

١ - ما هذان السدان ؟ وأين هما ؟

٢ - من هم هؤلاء القوم ، الذين لا يكادون يفقهون قولا ؟ وأين بلادهم ؟

٣ - من يأجوج ومأجوج ، الذين استغاث منهم هؤلاء القوم ؟

وللاجابة عن ذلك نقول :

١ - أما السدان

فقيل هما جبلان ، وهذا وارد فى اللغة ، حيث يطلق اسم السد على الجبل ، لأنه سد فجا من الأرض .

أين هما الآن ؟

(أ) قال بعض العلماء : انهما فى منقطع أرض الترك ، مما يلى المشرق .

(ب) وقال بعضهم : هما جبلان بين أرمينية وأذربيجان .

(جـ) وقال آخرون : هما بموضع من الأرض ، لا نعلمه .

وأرى أن الأخذ بالرأى الأخير ، أسلم وأولى من غيره ، حيث لم يرد نص صحيح صريح يحدد لنا ما هذان السدان ؟ ولا أين هما .

٢ - أما من هم هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا ؟

وأين مكانهم ؟

فقيل : هم من الترك ، وقيل : هم قوم من الجان ، وهذا الرأى الثانى - كما قال الآلوسى(٣٠) - باطل ، لا بعيد .

والصحيح أن ذلك أمر مجهول ، لا يعلمه الا الله ، وما قيل فى أمرهم فهو قول بلا دليل .

٣ - أما من يأجوج ومأجوج ؟

فهم قوم من البشر ورد ذكرهم فى القرآن والسنة .

---

(٣٠) فى تفسيره : ٣٧/١٦ .

أما القرآن ، فقد ورد ذكرهم فيه في موضعين :

الموضع الأول : فى قصة ذى القرنين هذه حيث بينت الآيات أنهم قوم مفسدون فى الأرض .

الموضع الثانى : فى سورة الأنبياء ، فى قوله تعالى « **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون** » .

أما السنة فقد ورد ذكرهم فيها فى أحاديث كثيرة ، وقد بينت هذه الأحاديث أنهم بشر من نسل آدم عليه السلام ، وأنهم يمتازون بالأعداد الهائلة التى لا تحصى ، وأنهم يحاولون يوميا جاهدين نقب هذا الردم ، الذى ردمه ذو القرنين بين السدين .

ومن هذه الأحاديث :

● ما رواه البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم ، فيقول لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت : ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار ، قال يارب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحمل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، فقال النبى ﷺ : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، وانى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة ، فكبرنا »(٣١) .

---

(٣١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الحج ، ومسلم فى كتاب الايمان ، باب (٩٦) .

- ومن هذه الأحاديث : ما روى عن زينب بنت جحش رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ دخل عليها فزعا يقول : « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق باصبعه ، الابهام والتى تليها ، فقالت زينب بنت جحش : فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، اذا كثر الخبث »(٣٢) .

- ومن هذه الأحاديث أيضا : ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « ان يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم ، حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا ، فسنحفره غدا ، فيعيده الله أشد ماكان ، حتى اذا بلغت مدتهم : وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ، ان شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون اليه ، وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون عاى الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم الى السماء ، فترجع عليها الدم الذى اجفظ ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله نغفا فى أقفائهم ، فيقتلهم بها(٣٣) .

هذه بعض النصوص الشرعية الخاصة بيأجوج ومأجوج ، وهى :

---

(٣٢) أخرجه البخارى : فى كتاب الانبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج ، ومسلم فى كتاب الفتن (١) .

(٣٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ، باب (٣٣) ، والترمذى فى تفسير سورة الكهف ، وقال فيه : حديث حسن غريب ، وفى الزوائد : واسناده صحيح ، ورجالة ثقات ، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

- كما هو ظاهر - لم تحدد من أى البلاد هما ؟ ولذلك فقد وجدنا العلماء يختلفون اختلافا واضحا :

(أ) فمنهم من قال : انهما من الترك •

(ب) ومنهم من قال : ان يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجيل والديلم •

(حـ) وبعض العلماء - كالسيد قطب عليه رحمة الله - يرى أنه قد يراد بهما المغول والتتار ، حيث اجتاحوا الممالك ، ودمروها تدميرا ، ومن هذه الممالك (مملكة العرب) حيث دمروا الخلافة العباسية على يد هولاكو ، فى خلافة المستعصم ، آخر ملوك العباسيين

ورغم أن السيد قطب قد رأى احتمال ذلك الا أنه قال : بعد ذلك « وكل ما نقوله ترجيح لا يقين » (٣٤) •

(د) وللعلامة الآلوسى رأى خاص فى هذا الموضوع ، حيث يجيز احتمال كون بلاد يأجوج ومأجوج فى مكان ، لا نعلمه نحن الى الآن•

يقول رحمه الله : « وقيل هما - أى السدان - بموضع من الأرض لا نعلمه ، وكم فيها من أرض مجهولة ، ولعله قد حال بيننا وبين ذلك الموضع مياه عظيمة ، ودعوى استقراء سائر البرارى والبحار غير مسلمة ، ويجوز العقل أن يكون فى البحر أرض نحو أمريكا لم يظفر بها الى الآن ، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود •

وبعد اخبار الصادق بوجود هذين السدين ، وما يتبعهما يلزمنا الايمان بذلك كسائر ما أخبر به من الممكنات ، والالتفات الى كلام المنكرين ناشىء من قلة الدين (٣٥) •

---

(٣٤) ظلال القرآن : ٢٢٩٤/٤ •
(٣٥) روح المعاني : ٣٧/١٦ •

أقول : كل ما قاله علماؤنا الأفاضل فى هذا الأمر ، مبنى على الظن ، لا على اليقين ، والذى أميل اليه فى ذلك هو التوقف ، فقد كان خبرهما مع ذى القرنين فى عصر من الأعصار ، التى أصابها الاعصار ، ولم يبق منها شىء يوثق فى صحته ، الا القرآن والسنة ، ولا شىء فيهما يدلنا على تلك البلدة التى كان منها يأجوج ومأجوج ، ولا على زمانهما .

ولذلك يقول السيد قطب زاده الله نعيما فى جناته : « وبعد : فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم ؟ وماذا سيكون ؟

كل هذه أسئلة تصعب الاجابة عليها ، على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم الا ما ورد فى القرآن ، وفى بعض الأثر الصحيح »(٣٦) .

أما ما ذكره البعض من احتمال كونهم المغول والتتار ، حيث نقبوا ذلك الردم الذى بناه ذو القرنين ، واجتاحوا الممالك ، ومنها مملكة العرب ، فذلك قول مردود ، لأن فتح هذا الردم لن يكون الا فى آخر الزمان ، حينما ينزل عيسى عليه السلام من السماء ، ويقاتل المسيح الدجال ، وذلك واضح تمام الوضوح فى أحاديث البخارى ومسلم ، الخاصة بقتل المسيح الدجال ، فليرجع اليها من شاء .

وعلى أى حال فان تعيين يأجوج ومأجوج ، من أى الأقوام ومن أى البلاد كانوا لا تتوقف عليها العبر المستفاد من هذه القصة ، لا دينا ولا دنيا ، والا لذكرها القرآن ، أو وضحتها السنة ، وما جاء فى شأنها فى القرآن والسنة كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد .

---

(٣٦) ظلال القرآن : ٢٢٩٣/٤ .

تنبيـه : مـا ورد من روايات تنص على أن يأجـوج ومأجـوج خلقـوا من آدم فقـط ، دون حـواء ، حيث خـرج منى من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فهو من الاسرائيليات ، المضروب بها عـرض الحـائط ، وكذلك مـا ورد فى أجسـادهم ، حيث تبالغ بعض الروايات فى الضخامة ، بينمـا تبـالغ أخرى فى الصغر ، فكل ذلك ممـا لا دليل عليـه ، وكله منقـول عن أهل الكتاب ، الذين غيروا وحرفوا ، وزادوا ونقصـوا .

خامسا : مناسبة آيات القصـة لمـا قبلهـا

ترتبط آيات هذه القصـة بآيات السـورة ارتباطا وثيقـا ، بأكثر من وجـه :

١ - فهى أولا : اجابة عن سؤال من الأسئلة الثلاثة ، التى سئلها رسول الله ﷺ ونزلت سـورة الكهف بسببها ، حيث أتت قريش من اليهود بهذه الأسئلة تختبر بها نبوته ، فسـألوه عن فتيـة ذهبوا فى الدهر الأول ، وكان أمـرهم عجبـا ، وعن رجـل طواف ، بلغ سلطانه الدنيـا كلهـا ، وعن الـروح .

٢ - وهى ثانيـا : تشـترك مع آيات السـورة فى أغراضها العـامة ، وهى :

(أ) تصحيح العقيـدة .

(ب) وضع أسـاس سليم للنظر المستقيم .

(حـ) تصحيح القيم التى بها يوزن النـاس .

ومساهمة القصـة فى الغـرض الأول والثالث تبدو بشكل واضـح للغـاية .

فاذا كنا نجـد فى آيات السـورة كلهـا حديثا عن العقيدة ، فإننا نلاحظ ذلك هنـا .

حيث نجد هنا حديث عن الكفر والايمان ، فعن الكفر نقرأ : (أما من ظلم) أى كفر ، وعن الايمان نقرأ (وأما من آمن) .

ونجد هنا حديث عن البعث يوم القيامة ، وما يتبعه من نار يعذب فيهب الكافر ، وجنة ينعم فيها المؤمن ، نقرأ فى شأن الكافر والنار (ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا) ، وفى شأن المؤمن والجنة (فله جزاء الحسنى) .

وفى مجال تصحيح القيم التى بها يوزن الناس : نجد هذه القصة تبرز لنا هذه الناحية بجلاء تام .

فذو القرنين حينما خيره ربه عز وجل بين تعذيب أهل المغرب ، والاحسان اليهم ، اختار دعوتهم الى الاسلام أولا ، فمن رفض نور ربه قتله ، ولو كان صاحب مكانة دنيوية رفيعة ، أو كان ذا مال وبنين ، ومن قبل هذا النور عصم دمه ، وقلى منه أحسن الجزاء والثناء ، ولو كان فقيرا معدما ، لا يأبه الناس لشأنه ، ولا يقيمون وزنا لقدره .

نقرأ ذلك المعنى فى قوله تعالى : (**قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا**) .

٣ - والقصة الثالثة : ترتبط بما قبلها ارتباطا وثيقا فى وجوب التواضع لله رب العالمين .

فلئن كان زعماء قريش وأغنياؤها ، طلبوا الى الرسول ﷺ أن يطرد فقراء المسلمين من مجلسه حتى يجلسوا معهم ، كما تنص الآية (٢٨) ، ولئن كان صاحب الجنتين تعزز على صاحبه ، وفاخر ،

وكاثر وقال له (**أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا**) ، ولئن كان ابليس تكبر ، وأبى أن يسجد لآدم - كما تنص الآية (٥٠) من هذه السورة ، لئن كان كل هؤلاء تكبروا ، ولئن كان موسى قبل هذه القصة تواضع مع الخضر وذهب ليتعلم منه ، فان هذا الملك الصالح - ذا القرنين - رغم هذا السلطان الذى كان له على كل الدنيا ، لم يتكبر على الله أو على خلقه ، ولكنه تواضع كما تواضع موسى ، وقال : (**ما مكنى فيه ربى خير**) ، وقال أيضا : (**هذا رحمة من ربى**) .

وهكذا ترتبط هذه القصة بآيات السورة ارتباطا وثيقا ، محكما غاية الاحكام ، بما يبدو للمتدبر كأنها عقد ثمين ، ترتبط حباته فيما بينها أشد ما يكون الترابط ، وتبدو للناظر متناسقة متماسكة ، أجمل ما يكون التناسق ، وأحكم ما يكون التماسك ، فسبحان من أحكمها ، وسبحان من أنزلها !!

* * *

التفســــير التحليـــــلى

لقصـــة ذى القـــــرنين

المشهد الأول

تمكين الله لذى القرنين
واستخدامه تلك النعمة فى نشر العدل
شرقا وغربا

يتكون هذا المشهد ـ كما قلنا في مقدمة هذه القصة ـ من ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : وهو خاص بالسؤال عن ذى القرنين ، وببيان تمكين الله له .

الجزء الثانى : وهو خاص باجتهاده ، وفتوحاته ، حتى وصوله الى مغرب الشمس .

الجزء الثالث : وهو خاص بجهاده وفتوحاته ، حتى وصوله الى مطلع الشمس .

أما
الجزء الأول
وهو
السؤال عن ذى القرنين ، والتمكين له

ففيه يقول تعالى : « ويسالونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا (٨٣) انا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا (٨٤) » .

فاذا ما جئنا الى :

معانى المفردات وأسرار التراكيب

قلنا : الواو فى (ويسألونك) للعطف ، حيث عطفت قصة ذى القرنين على قصة موسى والخضر ٠

والسؤال عن الشىء : الاستخبار عنه ، وقد كثر السؤال فى كتاب الله تعالى ، وفى سنة رسوله ﷺ ، وهو فيهما - كما قال ابن الأثير - نوعان :

« **أحدهما** : ما كان على وجه التبيين والتعلم ، مما تمس الحاجة اليه ، فهو مباح ، أو مندوب ، أو مأمور به ٠

والآخر : ما كان على طريق التكلف والتعنت ، فهو مكروه ، ومنهى عنه ، فكل ما كان من هذا الوجه ، ووقع السكوت عن جوابه ، فانما هو ردع وزجر للسائل ، وان وقع الجواب عنه فهو عقوبة وتغليظ » (١) ٠

والسائلون عن ذى القرنين : هم مشركو مكة ، الذين أتوا من اليهود بثلاث أسئلة ، يختبرون بها صدق نبوة محمد ﷺ ، وكانت سببا فى نزول هذه السورة ، كما بيننا فى مقدمة هذا الكتاب ، وقيل هم اليهود ٠

والتعبير بصيغة المضارع فى الفعل (يسألونك) مع أن السؤال كان قبل نزول سورة الكهف :

١ - للدلالة على أنهم استمروا فى سؤالهم هذا ، وما سكتوا حتى نزل جبريل عليه السلام بسورة الكهف ٠

٢ - وأيضا لاستحضار الصورة الماضية التى وقعت منهم ، فى ذهن السامع لآيات هذ هالقصة ، لشمولها على نوع من العجب ٠

---

(١) لسان العرب : (سأل) ٠

فقد كانت أمامهم عشرات الأدلة والبراهين ، التى لاحظوها ، وشاهدوها منه ﷺ ، وكلها تنطق بصدق نبوته ، وحقية رسالته ، ومع ذلك لم يكتفوا بها ، بل سألوه بهذه الأسئلة على وجه التحدى والاختبار .

و (ذى) فى (ذى القرنين) بمعنى صاحب ، أى صاحب القرنين، وقد مضى فى التمهيد لهذه القصة سبب هذه التسمية ، واختلاف العلماء فيها ، وبيان الرأى الذى اليه ملنا ، ووجه ترجيحنا له ، فلا داعى للاعادة .

والكلام فى قوله : **(ويسألونك عن ذى القرنين)** جار على الحذف، والتقدير : ويسألونك عن شأن ذى القرنين ، لأن السؤال لم يكن عن ذات ذى القرنين وانما كان عن شأنه .

ثم أمر الله نبيه عليه السلام بقوله : **(قل سأتلو عليكم منه ذكرا)** .

وفى ابتداء القصة بتلك الآية الأولى من هذا الجزء ، والتى جاء فيها : **(قل سأتلوا عليكم منه ذكرا)** :

١ ـ ادخال السرور على قلبه ﷺ من أول وهلة ، حيث أبطأ عليه الوحى فترة من الوقت ، كثر فيها اللغط من الكفار ، حتى عم أرجاء مكة ، متشككين فى صدق النبوة ، بعد أن قال لهم غدا سأخبركم ولم يستثن .

٢ ـ وبرهان واضح ، ودليل قاطع على صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة .

٣ ـ وزيادة في تنبيه السائل والسامع لحسن الانصات والتدبر فيما يتلى بعد هذه الآية الأولى ، من شأن ذى القرنين .

وفى اثبات الفعل (قل) فى هذه العبارة ، وفى كل جملة أمرية دليل واضح على مدى أمانة الرسول ﷺ فى تبليغ الناس كل ما ينزل عليه من السماء ، وأنه ليس من حقه أن يتصرف فيه بزيادة حرف أو نقصانه ، والا لحذف الرسول ﷺ فعل الأمر هذا ، من هذه الجملة ومثيلاتها .

والسين فى قوله (سأتلو) ليست للدلالة على أن هذه التلاوة ستكون فى المستقبل ، كما ذهب الى ذلك البعض ، فان هذه الآية لم تنزل بمفردها ، بل نزلت مع الباقى جملة واحدة .

وانما هذه السين لتحقيق الوعد ، الذى قطعه الرسول ﷺ على نفسه ، حينما سأله الكفار عن هذه الأشياء ، فقال غدا سأخبركم ، واستبطأ الوحى ، وذلك كقوله تعالى : « **سوف أستغفر لكم ربى** »(٢) ، أى بالتأكيد واليقين سيحدث منى ذلك .

والمراد بالتلاوة فى قوله « سأتلو »(٣) :

(أ) ان كان الضمير فى (منه) يعود على ذى القرنين :

تكون التلاوة بمعنى الذكر ، وتكون من فى (منه) للتبعيض ، ويكون فى الكلام حذف .

والتقدير : سأذكر عليكم بعض قصص ذى القرنين .

وجاءت (من) للتبعيض : تنبيها على أن أخباره كثيرة ، ولكن الذى سيتلى عليهم بعضها ، وهو الذى ينفع فى التذكير والوعظ .

وهذا الذكر لما كان خبرا من الله عن طريق القرآن المتلو قيل (سأتلو) بدلا من سأذكر .

---

(٢) سورة يوسف آية : ٩٨ .
(٣) انظر فى ذلك تفسيرى أبى السعود والآلوسى فى تفسير هذه الآية .

(ب) وان كان الضمير فى (منـه) يعود على الله عز وجل :

تكون التلاوة على ظاهرها ، أى بمعنى القـراءة ، وتكون من فى (منـه) ابتدائية ، ولا حذف فى الكلام ٠

والتقـدير : سأتلو فى شـأن ذى القرنين من جهته عز وجل ذكرا ، أى قـرآنا تتذكـرون به وتعتبرون ٠

والخطاب فى قوله (عليكم) للسـائلين ، وهم كفار قريش ، الذين أتوا بهذه الأسئلة من اليهـود ، وقيـل لليهود الذين أرسلوا بها عن طريق كفـار قـريش ٠

وقـوله (منه) حال من قوله (ذكرا) ، ولو تأخر لكان صفة له ٠

وقـوله (ذكـرا) :

(أ) ان كان الضمير فى (منـه) يعود على ذى القرنين ، يكون قوله (سـأتلو) بمعنى سأذكـر ـ كما وضحنـا ـ ويكـون معنى (ذكرا) : نبـأ مذكـورا ، أ ى: سأذكر عليكم من قصص ذى القـرنين نبـأ مذكـور ٠

(ب) وان كان الضمير فى (منـه) يعود على الله عز وجـل : تكون التـلاوة على ظاهرها ، أى بمعنى القراءة ـ كما سبق أيضا ـ ، ويكون معنى (ذكـرا) : قـرآنا ٠

أى سأتلو عليكم فى شـأن ذى القرنين من جهته عز وجل قرآنا ، تتذكـرون به وتتعظون ٠

وجعـل خبـر ذى القـرنين تـلاوة وذكـرا : للاشـارة ـ كما قال ابن عاشور ـ الى أن المهم من أخبـاره ما فيـه تذكير ، وما يصلح لأن يكون تلاوة ، حسب شـأن القـرآن ، فانه يتلى لأجل الذكر ، ولا يسـاق مسـاق القصص(٤) ٠

---

(٤) التحـرير والتنوير : ٢٣/١٦ ٠

ثم بدأ الله تفصيل قصة ذى القرنين بقوله :

(انا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا) .

والتمكين : كون الشىء متمكنا ، أى راسخا ، ولا يزعزع قوته شىء .

قال ابن سيده : « تمكن من الشىء ، واستمكن : ظفر »(٥) ، ومفعول (مكنا) محذوف ، والتقدير : مكنا له سلطانه فى الأرض .

وعلى هذا يكون معنى التمكين لذى القرنين : اعطاء الله اياه الوسائل التى جعلته صاحب سلطان متين الأركان ، عريق الدعائم ، قوى البنيان .

وذلك : بكثرة الجند والأعوان ، وقوة السلاح ، وسلامة التفكير ، وصواب الاجتهاد والرأى ، وشدة الهيبة والوقار ، وقذف الرعب فى قلوب الأعداء ، وغير ذلك من جنود ربك ، التى لا يعلمها الا هو ، بحيث أصبحت قوته قوة خارقة للعادة ، بها ظفر على كل البلاد ، ودان له كل الملوك والعباد .

أما ما قاله بعض المفسرين من أن ذلك التمكين كان بالنبوة ، فلا دليل لهم عليه ، وما استدل به الفخر الرازى على نبوته أبطلناه فى التمهيد لهذه القصة ، فليرجع اليه .

أما ما ذكره بعضهم من أن التمكين كان بتسخير السحاب له ، وحمله عليها ، وبسط النور له ، فكان الليل والنهار عليه سواء ، وتسخير النور والظلام له ، بحيث اذا سرى يهديد النور من أمامه ، وتحوطه الظلمة من ورائه ، فهو من الاسرائيليات المضروب بها عرض الحائط .

---

(٥) لسان العرب (مكن) .

وفى اسناد التمكين فى قوله (مكنا) ، والايتاء فى قوله (وآتيناه) الآتى بعد ذلك الى ضمير العظمة لله تعالى دلالة واضحة على :

١ - عظم هذا التمكين ، وذاك الايتاء ، لأنهما مستمدان من قوة خالق القوى والقدر ، عز وجل .

٢ - وعلى أن التمكين لملك من الملوك بقدره عز و جل ، كما هو بقدرته أيضا ، فهو ليس كما قال من قال : أوتيته على علم عندى ، ولكنه كما قال من قال : « **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير** »(٦) .

ثم بين الله تعالى نعمته ومنته على ذى القرنين فقال :

(وآتيناه من كل شىء سببا)

والسبب فى أصل اللغة : الحبل ، ثم استعير لكل شىء يتوصل به الى غاية ، من علم ، أو قدرة ، أو آلة ، ونحو ذلك ، والجمع أسباب .

والعموم فى قوله (من كل شىء) ليس على ظاهره ، فهو مخصص ، ولذلك قال الزمخشرى :

« أى من أسباب كل شىء أراده ، من أغراضه ، ومقاصده فى ملكه »(٧) .

وبهذا التعبير الذى هو غاية فى الايجاز (**انا مكناله فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا**) يكون المستمع المتدبر ، قد أخذ فكرة تامة عن قوة ذى القرنين ، التى بها قهر الممالك والبلاد ، ودان له الملوك والعباد .

---

(٦) سورة آل عمران

(٧) الكشاف : ٧٤٣/٢ .

وبهذه الآية أيضا ينتهى الجزء الأول من المشهد الأول فى هذه القصة ، ليبدأ

الجزء الثانى

وهو :

فتوحاته حتى مغرب الشمس

وعنه يقول تعالى : « فأتبع سببا (٨٥) حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨) » .

فهذا الجزء من هذا المشهد يصور لنا بدء ذى القرنين فى استخدام هذا التمكين الذى منحه الله اياه ، فى نشر العدل فى جميع أرجاء الدنيا ، حيث ابتدأ بالفتوحات ناحية المغرب ، أى الى أقصى مكان من الأرض التى فى ناحيتها تغرب الشمس .

فالفاء فى (فأتبع) للفصيحة ، أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سببا ، وقوله : (فأتبع) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بتشديد التاء، وكذلك قوله (ثم اتبع) فى الموضعين الآتيين ، ومعناها كما قال صاحب لسان العرب : تبع من قولهم تبعت الشىء ، أى سرت فى أثره ، أما باقى القراء فقد قرأوها بألف القطع ـ لا بألف الوصل ـ وسكون التاء مخففة ، بمعنى لحق وأدرك (٨) .

---

(٨) انظر لسان العرب (تبع) .

قال الآلوسى : « استظهر بعضهم أنهما بمعنى ، ويتعديان لمفعول واحد ، وقيل ان (أتبع) بالقطع يتعدى لاثنين ، والتقدير هنا: فأتبع سببا سببا آخر ، أو فأتبع أمره سببا ، كقوله تعالى : « **وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة** »(٩) .

وقال أبو عبيد : (اتبع) بالوصل فى السير ، و (أتبع) بالقطع معناه اللحاق ، كقوله تعالى « **فأتبعه شهاب ثاقب** »(١٠).
وقال يونس : (أتبع) بالقطع : للمجد المسرع الحثيث الطلب ، و (اتبع) بالوصل : انما يتضمن مجرد الانتقال والاقتفاء(١١) .

وعلى أى حال فالمقصود من القراءتين فى النهاية واحد ، وهو أن ذا القرنين لما أراد فتح البلاد لنشر العدل فيها اتخذ الأسباب والوسائل التى تمكنه من ذلك ، ثم بدأ بالتحرك نحو أقصى مكان من الأرض ، تغرب الشمس من ناحيته .

فالمقصود من مغرب الشمس هنا : منتهى الأرض من ناحية المغرب ، أى عند ساحل المحيط الأطلنطى .

قال الآلوسى : « ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لأنه أقرب اليه، وليس ذلك لكون جهة المغرب أفضل من جهة المشرق ، كما زعمه بعض المغاربة ، فانه ـ كما قال السيوطى ـ : « لا قطع بتفضيل احدى الجهتين على الأخرى ، لتعارض الأدلة »(١٢) .

---

(٩) القصص : ٤٢ .
(١٠) الصافات : ١٠ .
(١١) روح المعانى : ٣١/١٦ .
(١٢) روح المعانى : ٣١/١٦ .

ويبين الله تعالى أن ذا القرنين لما اتخذ الوسائل التى تعينه على فتوحاته ، فتح فعلا البلاد حتى وصل الى نهاية الأرض والعمران من ناحية مغرب الشمس ، وهناك وجد هذه الشمس :

(تغرب من عين حمئة)

والمراد بالعين هنا : اما البحر نفسه ، ولا مانع من هذه التسمية فهو بالنسبة لكون الله وقدرته وعظمته عز وجل لا شىء ، وان كان عظيما فى نظرنا ، وأما أن تكون هذه العين عينا كائنة فى البحر .

والمعنى الظاهر من اللفظ فى هذه الآية ليس مرادا كما هو معلوم لكل من عنده مسكة من عقل ، فالشمس تسبح فى الفضاء فى فلكها ، ولا تسقط على أرض ، أو بحر ، ولكن المراد هنا بحسب الرؤية الظاهرية للعين ، لا كما هو حقيقة الأمر ، ونفس الواقع ، وهذا كما يشاهدها أحدنا ، وهو راكب سفينة ، أو هو سائر فى أرض ملساء ، فلو أن انسانا توسط البحر ،ولم ير ساحلا فى وقت الشروق أو الغروب ، فانه يخيل اليه كأن الشمس تشرق من تحت المياه ، وتغرب فيها ، وكذلك لو سار فى أرض ملساء ، فلو رأى الشمس وقت شروقها أو غروبها لتخيل أنها تشرق من تحت الأرض ، وتغرب فيها ، وهى فى الحقيقة ليست كذلك .

وقوله (حمئة) فيه قراءتان : الأولى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم (حامية) بالألف بعد الحاء ، وبياء بعد الميم ، أى حارة والباقون (حمئة) بدون ألف ، وبهمزة بعد الميم ، ومعنى عين حمئة ، أى فيها حمأة ، بفتح الحاء وسكون الميم، والحمأة والحمأ : الطين الأسود المنتن ، ولا تنافى بين القراءتين ، اذ من الجائز أن تكون تلك العين جامعة للوصفين معا ، أى كان ماؤها حارا ، وفي الوقت نفسه كان فيها طين أسود منتن .

قال الفخر الرازى : « ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية ، وهى أيضا حمئة ، لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء »(١٣) .

وقال أبو حاتم : « وقد يمكن أن تكون حامية مهموزة ، بمعنى ذات حمأة ، فتكون القراءتان بمعنى واحد ، يعنى أنه سهلت الهمزة بابدالها ياء لكسرة ما قبلها »(١٤) .

وقال أبو السعود : « ليس بين القراءتين منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين ، وكون الياء فى الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ما قبلها ، وأما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنه بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا ، فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها ، وقراءته محتملة »(١٥) .

وعند تفسير هذه الآية الكريمة يذكر المفسرون حديثا عن أبى ذر ، ورد فى صحيح البخارى ، حيث يقول رضى الله عنه : « كنت مع النبى ﷺ فى المسجد ، عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذر ، أتدرى أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : فانما تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله تعالى : « **والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم** »

ويقول أبو ذر أيضا بعد هذا الحديث مباشرة : « سألت النبى ﷺ عن قوله تعالى : « **والشمس تجرى لمستقر لها** » قال : مستقرها تحت العرش »(١٦) .

---

(١٣) مفاتيح الغيب : ١٦٧/٢١ .
(١٤) البحر المحيط : ١٥٨/٦ .
(١٥) ارشاد العقل السليم ٢٦٥/٣ .
(١٦) أخرجهما البخاري ، في كتاب التفسير ، **باب سورة يس** .

ولا منافاة بين الآية والحديث ، فذو القرنين لما شاهد الشمس شاهدها وقت الغروب ، تغرب فى عين حمئة ، وكان ذلك كما قلنا: بالنسبة لنظر العين ، لا كما هو الواقع ، أما الحديث فانه ينص على أن الشمس بعد الغروب تسجد تحت العرش ، وهذا السجود سجود يليق بها ، فالعقل لا يمنع أن تأتى الشمس فى محاذاة جزء من العرش كل يوم ، ويحدث منها أو فيها فعل معين يليق بها .

يقول الحافظ ابن حجر معقبا على حديث أبى ذر عنها : « ولا يخالف هذا قوله : (**وجدها تغرب فى عين حمئة**) ، فان المراد بها نهاية مدرك البصر اليها حال الغروب ، وسجودها تحت العرش انما هو بعد الغروب .

وقيل لمستقر لها أى الى منتهى أمرها عند انتهاء الدنيا .

وقال الخطابى : « يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش أنها تستقر تحته استقرارا لا نحيط به نحن ، وليس فى سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق عن دورانها فى سيرها »(١٧) .

وقال الآلوسى : « لا مانع أن تسجد هناك سجودا حقيقيا لائقا بها ، فالمراد من تحت العرش مكان مخصوص مسامت لبعض أجزاء العرش ، والا فهى فى كل وقت تحت العرش وفى جوفه .

وعلى ما ذكر فالمراد بمستقرها : محل انتهاء انحطاطها ، فهى تجرى عند كل قوم لذلك المحل ، ثم تشرع فى الارتفاع » .

الى أن يقول : « وبالجملة : لا يلزم على هذا التأويل خروج الشمس عن فلكها الممثل به ، ولا عن خارج المركز ، وان اختلف قربها وبعدها من العرش بالنسبة الى حركتها فى ذلك الخارج »(١٨) .

---

(١٧) فتح البارى : ٨/٤٠٣ .
(١٨) روح المعانى : ١٦/٣٣ .

وحينما وصل ذو القرنين الى نهاية العمران من ناحية المغرب وجد أناسا يسكنون تلك المنطقة ، وعنهم يقول تعالى :

(ووجد عندها قوما)

والضمير فى (عندها) عائد الى الشمس ، والمراد عند نهاية الأرض التى تغرب الشمس من ناحيتها ، أو عائد الى العين الحمئة ·

وهؤلاء القوم ذهب بعض العلماء الى كفرهم جميعا ، وذهب آخرون الى أنهم كانوا فريقين ، مؤمنون ، وكافرون ·

وأرى أن الأرجح أنهم كانوا جميعا كافرين ، لمجموع سببين :

١ ـ السبب الأول : لقوله تعالى : « **قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا** » فلو كان فيهم مؤمنون ما خيره بين التعذيب والاحسان ، لأن المؤمنين لا يستحقون عذابا ·

٢ ـ السبب الثانى : لقول ذى القرنين : (**أما من ظلم ···**) **الخ** وقوله (**وأما من آمن وعمل صالحا**) فانه يدل على أنهم جميعا كفرة ، وأنه سيدعوهم الى الاسلام ، فمن استمر على ظلمه وهو الشرك ، فسوف يعذبه ، وأما من آمن وعمل بمقتضى الايمان فله جزاء الحسنى ··الخ ·

وهؤلاء القوم خير الله ذا القرنين فى شأنهم ، **حيث قال : (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا)** ·

والتعبير بقوله تعالى (قلنا) لا يستلزم أن يكون ذلك من غير واسطة ، وقد عالجنا هذه النقطة فى الرد على من يقول بنبوة ذى القرنين ، ويستشهد بهذه الصيغة قلنا ، **فليرجع اليه فى نقاط التمهيد لهذه القصة** ·

وعلى ذلك فلا حجة لمن قال انه نبى ، اذ من الجائز وهو الراجح أن يكون ذلك التخيير بلغ ذا القرنين عن طريق نبى من أنبياء الله كان معاصرا له .

والمراد بقوله (**اما أن تعذب**) القتل ، وبقوله (**واما أن تتخذ فيهم حسنا**) تركهم أحياء ودعوتهم الى الاسلام ، وقيل خيره بين القتل والأسر ، وأرى أن هذا قول ضعيف ، فماذا يفعل بأسرهم ذو القرنين ؟

ويرد أبو حيان هذا الرأى بقوله : « وتفصيل ذى القرنين (أما من ظلم) و (أما من آمن) يدفع هذا القول »(١٩) .

والعذاب فى اللغة : العقاب ، مشتق من الاعذاب ، وهو المنع ، يقال أعذبت نفسى عن كذا ، أى منعتها عنه ، وسمى العقاب عذابا لأن العاقل اذا تأمل فيه امتنع عن ارتكاب جنايته .

وقيل هو مشتق من العذوبة ، وهى نقيض الملوحة ، وانما سمى العقاب به - على هذا الاشتقاق - لأنه جزاء ما استعذبه الانسان بطبعه ، أى استطابه . والحسن : ضد القبح ونقيضه .

وقدم تعذيبهم على الاحسان اليهم لأن هذا هو الذي يستحقونه فى لحظتهم لكفرهم بالله عز وجل .

قال الآلوسى : « وفى التعبير بـ (**واما أن تتخذ فيهم حسنا**) دون واما أن تدعوهم مثلا : ايماء الى ترجيح الشق الثانى » ، وهو عدم قتلهم بل الاحسان اليهم بتركهم أحياء ، ودعوتهم الي دينه عز وجل .

---

(١٩) البحر المحيط ٦/١٦٠ .

(٢٠) روح المعاني : ١٦/٣٤ .

وقوله (حسنا) مصدر ، أطلق على الموصوف للمبالغة فى الاحسان اليهم ، كأنه اتخذ فيهم نفس الحسن ، كقولك زيد عدل .

ويجوز أن يكون هناك مضاف محذوف ، والتقدير : واما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن .

ومحل أن مع صلته فى الجملة الأولى (اما أن تعذب) وفى الجملة الثانية (واما أن تتخذ فيهم حسنا) .

١ - اما الرفع على الابتداء ، أى اما تعذيبك واقع .

٢ - واما الرفع على الخبرية ، أى اما أمرك تعذيبك .

٣ - واما النصب على المفعولية ، أى اما تفعل تعذيبك .

وتنطبق هذه الأمثلة على الجملة الثانية تماما (أ ى جملة واما أن تتخذ فيهم حسنا) .

وبعد أن خير الله ذا القرنين بين تعذيب هؤلاء القوم ودعوتهم الى الاسلام اختار ذو القرنين الشق الثانى ، مفضلا جانب الحسن على جانب العذاب ، قال تعالى مخبرا عن حسن منهجه مع هؤلاء القوم ، وطبيعته الخيرة السمحة فى معاملته لهم :

(قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) .

اى اخترت الحسن اليهم ، وسوف أدعوهم الى الاسلام ، فمن استمر على كفره ، فسوف أقتله ، ثم مصيره الى ربه يوم القيامة ، حيث يدخله نار جهنم فيلقى فيها اشد وأذل أنواع العذاب ، أما من قبل دعوتى ودخل فى دين الاسلام ، فان له عند ربه جنة المأوى ، وسيجد منا القول الحسن ، والطيب الجميل ...

والمقول له هذا القول - أى أعنى ما جاء فى قوله (**قال أما من ظلم ٠٠ الخ**) - ذلك النبى الذى بلغ ذا القرنين هذا التخيير ، أو خواص ذلك الملك ٠

والمراد بالظلم فى قوله (**أما من ظلم**) الكفر ، بدليل مقابلته بالايمان فى قوله (**وأما من آمن وعمل صالحا**) ، وبدليل قوله تعالى : « **إن الشرك لظلم عظيم** »(٢١) ٠

وحرف التنفيس فى (**فسوف نعذبه**) يدل على تخلل وقت بين اظهار كفر الكافر وبين تعذيبه ، فذو القرنين لا يعاجله بالقتل على كفره ،بل يدعوه ويعظه ، فان رجع عصم دمه وماله ، والا قتله ٠

والمراد بالتعذيب فى (**نعذبه**) القتل ، وتكلم ذو القرنين بالنون فى (نعذبه ،) على عادة الملوك والعظماء ، حيث يقولون : قلنا ، أمرنا ، فعلنا ، ونحوه ٠

وأسند التعذيب الى نفسه ، لأنه الآمر به لا أنه المباشر له ٠

وقوله (**ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا**) أى فى الآخرة والتعبير بقوله (**إلى ربه**) دون اليك فيه دلالة على أن التخيير السابق لم يكن بطريق الوحى ، وانما كان عن طريق نبى معاصر ، كما يدل على أن مقولته هذه كانت مع ذلك النبى ، أو مع خواصه هو وليست ممع الله عز وجل ٠

وقوله (**عذابا**) مفعول مطلق ، للفعل (**فيعذبه**) ، والمراد بالنكر هنا الشديد الغليظ ٠

---

(٢١) لقمان : ١٣ ٠

ثم يوضح ذو القرنين موقفه ممن يقبل دعوته ، ويفتح قلبه لنور ربه بقوله : (**وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا**) .

أى أن من آمن بدعوة الحق ، وانقاد لمنهج خالقه فانه يكون قد أعتق نفسه من القتل فى الدنيا ، ومن نار الله فى الآخرة ، وسيفوز يوم القيامة بجنة عرضها السموات والأرض ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وسيجد فى الدنيا من ذى القرنين القول الحسن ، والأمر الميسور السهل ، والمعاملة الطيبة .

وقوله (**جزاء**) : الجزاء المكافأة على الشئ ، ويكون ثوابا ، ويكون عقابا .

قال ابن منظور : « سئل أبو العباس عن جزيته وجازيته ، فقال: قال الفراء : لا يكون جزيته الا فى الخير ، وجازيته يكون فى الخير والشر ، قال : وغيره يجيز جزيته فى الخير والشر ، وجازيته فى الشر »(٢٢) .

وقوله (**جزاء**) : قرأه حمزة والكسائى وعاصم بالنصب والتنوين والباقون برفعه ، واضافته الى (الحسنى) .

فعلى القراءة الأولى يكون المراد من الحسنى الجنة ، و (له) خبر مقدم ، (والحسنى) مبتدأ مؤخر ، ونصب (جزاء) على أنه :

١ - مصدر منصوب بفعل مضمر ، أى نجزى بها جزاء ، وجملة نجزى بها جزاء جملة حالية أو اعتراضية ، بين المبتدأ ، والخبر المقدم عليه .

---

(٢٢) لسان العرب (جزا) .

٢ - ويجوز أن يكون (جزاء) منصوبا على التمييز .

٣ - أو على أنه حال ، أي مجزيا بها .

وعلى القراءة الثانية - أى برفع (جزاء) واضافته الى (الحسنى) - يكون قوله (له) خبرا مقدما ، و (جزاء) مبتدءا مؤخرا ، ويكون المعنى : فله جزاء الفعلة الحسنى ، والفعلة الحسنى هى الايمان والعمل الصالح .

وهذا القول (**فله جزاء الحسنى**) هو ما عبر به ذو القرنين عما يكون لمن قبل الاسلام عند ربه ، أما جزاؤه عند ذى القرنين فهو ما عبر عنه بقوله : **وسنقول له من أمرنا يسرا)** .

والمراد بقوله (**من أمرنا**) أى مما نأمر به ، واليسر ضد العسر ، وهذا اللفظ (يسرا) قرأه أبو جعفر بضم السين ، حيث وقع ، والباقون بسكونها .

والمعنى : أننا لا نأمره بما يصعب عليه ويشق ، بل بما سهل عليه ويسر ، من زكاة ، ونحوها ، مما يعود عليه وعلى الناس بالخير والمحبة ، وبما تحمد عقباه فى الدنيا والآخرة .

وعبر بالمصدر (يسرا) للمبالغة ، كقولنا زيد عدل ، أو أن الكلام على حذف مضاف ، والتقدير : ذا يسر .

ولأبى حيان عبارة لطيفة فى ترتيب تلك الجمل التى عبر بها ذو القرنين عما يستحقه كل ممن ظلم نفسه فأعرض عن قبول الاسلام ، ومن قبل هذا الدين الحنيف ، يقول رحمه الله : وما أحسن مجىء هذه الجمل !! لما ذكر ما يستحقه من ظلم بدأ بما هو أقرب لهم ، ومحسوس عندهم ، وهو قوله (**فسوف نعذبه**) ، ثم أخبر بما يلحقه آخرا يوم القيامة ، وهو تعذيب الله اياه العذاب النكر ، ولأن الترتيب الواقع هو كذا .

ولما ذكر ما يستحقه من آمن وعمل صالحا : ذكر جزاء الله له فى الآخرة ، وهو الحسنى ، أى الجنة ، لأن طمع المؤمن فى الآخرة، ورجاءه ، هو الذى حمله على أن آمن ، لأجل جزائه فى الآخرة ، وهو عظيم بالنسبة للاحسان فى الدنيا .

ثم أتبع ذلك باحسانه له فى الدنيا بقوله (**وسنقول له من أمرنا يسرا**) أى لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه ، أى قولا ذا يسر وسهولة ، كما قال تعالى : **قولا ميسورا**) .

ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل ، بل اقتصر على القول ، أدبا مع الله تعالى ، وان كان يعلم أنه يحسن اليه فعلا وقولا (٢٤) .

وبهذه الآية ينتهى هذا الجزء الثانى من المشهد الأول ، والذى بين لنا فتوحات ذى القرنين ، ووصوله الى أقصى المغرب ، واستعماله الرأفة والرحمة مع البلاد المفتوحة ، ليبدأ :

« الجزء الثالث »

وهو :

(فتوحاته حتى مطلع الشمس)

وعنه يقول تعالى : **ثم أتبع سببا (٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا (٩١)** .

أى أن ذا القرنين أراد أن يصل الى أقصى الأرض المعمورة ، من ناحية شروق الشمس ، لينشر العدل فى كل البلاد التى يفتحها ، فاتخذ من الأسباب والوسائل التى تمكنه من ذلك ، حتى وصل

---

(٢٣) الاسراء : ٢٨ .
(٢٤) البحر المحيط : ١٦٠/٦ .

بالفعل الى نهاية الأرض من ناحية المشرق ، وهناك وجد الشمس تطلع على قوم ليس بينهم وبينها ساتر يحجب عنهم شدة حرارتها ٠

ولم يبين القرآن تلك المدة التى سارها ذو القرنين حتى وصل الى نهاية المعمورة شرقا ، وعلى ذلك فما يرويه البعض من أنه مكث فى ذلك السير اثنتى عشرة سنة ، فلا دليل عليه ، بل ربما نقطع بضعفه ، خاصة أن الله تعالى بين لنا أنه مكن لذى القرنين وآتاه من كل شىء سببا ٠

قال الآلوسى مضعفا مثل هذه الرواية : « فان طول المعمورة يقطعه بأقل من هذه المدة بكثير السائر على الاستقامة ، كما لا يخفى على العارف بالمساحة »(٢٥) ٠

وفى تفسير قوله تعالى (**لم نجعل لهم من دونها سترا**) قولان للعلماء :

١ ـ الأول أن هؤلاء القوم لا يوجد عندهم ما يحول بينهم وبين أشعة الشمس ، فلا يوجد فى أراضيهم أبنية ولا أشجار ، ولا جبال ، تقيهم تلك الأشعة ، وحالهم على الضد من سائر أنواع الخلق ، فانهم اذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب عميقة تحت الأرض ، أو غاصوا فى المياه ، فلا يستطيعون وقت طلوع الشمس ممارسة حياتهم فوق ظهر الأرض ، فاذا ما غربت الشمس اشتغلوا بأمور معاشهم ٠

القول الثانى : فى تفسير (**ولم نجعل لهم من دونها سترا**) أنهم يعيشون بلا ثياب ، بل هم حفاة عراة ، كما هو حال معظم من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء ٠

---

(٢٥) روح المعانى : ٣٥/١٦ ٠

ولكن ابن عطية - رحمه الله - له رأى آخر فى المراد بعبارة (**ولم نجعل لهم من دونها سترا**) ، حيث يقول(٢٦) : (والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن غروب الشمس منهم ، وفعلها بقدرة الله فيهم ، ونيلها منهم ، ولو كانت لهم أسراب لكان سترا كثيفا) .

وعلى ذلك فالنكرة فى قوله (**سترا**) للعموم ، حيث وردت بعد النفى .

وقد اختار الآلوسى ذلك حيث عقب على قول ابن عطية بقوله : « وحينئذ فالنكرة على عمومها ، وأنا أختار ذلك ، الى أن يثبت أحد الأخبار السابقة »(٢٧) .

وما يرويه بعض المفسرين عن هؤلاء القوم ، من ضخامة أجسادهم حتى أن أحدهم ينام على احدى أذنيه ، ويلتحف بالأخرى ، وغير ذلك مما لم يرد فى القرآن أو السنة فهو من الاسرائيليات المضروب بها عرض الحائط .

واختلف المفسرون فى معنى قوله (**كذلك**) :

١ - فقيل : كما كان قضاؤه فى أهل المغرب كان قضاؤه فى أهل المشرق ، حيث حكم بقتل من ظلم من أهل المشرق ، وبالاحسان لمن آمن منهم ، كما حكم بذلك قبل فى أهل المغرب .

٢ - وقريب منه ما قيل : ان حال أهل المشرق فى الكفر وحكم ذى القرنين فيهم كحال أهل المغرب ، فى الكفر وحكمه فيهم .

٣ - وقيل ان المعنى : أمر ذى القرنين كذلك ، أى كما وصفناه لك ،

---

(٢٦) كما نقل عنه أبو حيان فى البحر المحيط : ١٦١/٦ .
(٢٧) روح المعانى : ٣٥/١٦ .

من بلوغ المغرب والمشرق ، وفعله بأهلهما ، وفائدة الاخبار بذلك تعظيم شأن ذى القرنين ، وبيان فخامة سلطانه وأمره .

٤ - وقيل ان المعنى : لم نجعل لأهل المطلع من دون الشمس سترا مثل الستر الذى جعلناه لكم من الأبنية والأشجار والجبال ونحو ذلك .

وقوله تعالى (**وقد أحطنا بما لديه خبرا**) وان كان يدل على شمول علمه تعالى بما كان عليه أمر ذى القرنين ، وما كان عنده من جنود وآلات وأسباب الملك وغير ذلك الا أن المقصود تكثير ما كان عنده من هذه الأشياء ، بحيث لا يستطيع أحد أن يحيط بها ، الا عالم الغيب والشهادة ، الله اللطيف الخبير ، الذى أنعم عليه بكل ذلك والذى لا يغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وفى التعبير بالفعل (أحاط) وفى اسناده الى ضمير التعظيم من تصوير عظيم علمه تعالى وما فيه ، من الكمال والشمول مالا يخفى ، ذلك أن الفعل (أحاط) مأخوذ من قولهم أحاط به العدو ، أى التف به من جميع الجهات ، ومتى فعل العدو بعدوه ذلك فقد ملك عليه أمره ، واستولى عليه استيلاء تاما .

وبهذه الآية ينتهى المشهد الأول من مشهدى قصة ذى القرنين ، والذى بين الله فيه مدى تمكينه له فى الأرض ، وكيف أن ذا القرنين استغل ذلك التمكين فى طاعة ربه ، حيث تحرك غربا وشرقا ، فاتحا البلاد ، ناشرا العدل والاسلام بين العباد ، فكان النموذج الكامل والمثل الأعلى للملوك والسلاطين ، حتى نال رضا ربه ، وحسن ثنائه عليه فى قرآنه الخالد ، وماله عند ربه فى الآخرة خير وأبقى ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وليعمل الزعماء والحاكمون .

أمـا المشـهد الثـانى وهـو الخـاص بموقفـه من فسـاد يأجـوج ومأجـوج فذلك مـا سنتعرض له - ان شـاء الله - بالشرح والتحليـل والاستنباط ، بعـد بيـان المعنى العـام واستخراج العـبر من المشـهد الأول .

« المعنى العـام لآيـات المشـهد الأول »

من الآيـة (٨٣) الى الآيـة (٩١)

هـذه هى القصـة الأخيرة من قصص سـورة الكهف ، والتى نزلت ردا على مشركى قريش واليهـود حينما اشتركوا فى توجيـه ثلاث أسئلة لرسـول الله ﷺ يختبرون بهـا صدقه فى ادعـائه النبـوة ، رغم وجود عشرات الأدلة أمـامهم على أنـه صـادق أمين ، فى كل مـا يخبر بـه ، سـواء عن ربـه ، أم عن غيره ، ولكنه الكفر الذى أظلم الحيـاة أمامهم، والحقـد الذى استولى على قلوبهم ، فعاشـوا فى وحـل الشرك ، وانغمسـوا فى أدران الحقـد الدفين ، وحمأة الحسـد البغيض ، ومع ذلك فان الله أراد أن يؤيـد نبيـه ، ويعجز هؤلاء ، لينتقـل نبيـه من من نصر الى نصر ، ويعلو فى أعلى عليين ، وينتقلووا هم من هزيمـة الى هزيمـة ، ولينحـدروا الى أسفل سافلين .

تبـدأ هـذه الآيات بأمر من الله لرسـوله ﷺ بأن يبلغ سـائليه عن هـذا الرجل الطواف الذى بلغ مغرب الأرض ومشرقها بأنه سـيتلو عليهم بعضـا من شـأنه وسيرته ، لتكون عبرة لمن كان له عقـل ، وذكـرى لمن ألقى السمع وهو شـهيد ، وفى ابتـداء القصـة بهـذا الأمر الالهى **(قل سـأتلو عليـكم منـه ذكـرا)** ادخـال للسرور على قلبـه ﷺ من أول وهـلة ، حيث أبطأ عليـهالوحى بالجواب بعـد أن وعـد الكفـار بأن اجابتهم عمـا سالوا سـتكون غـدا ، وبرهان واضـح على صـدقه

ﷺ في ادعائه الرسالة ، وتنبيه للسائل والسامع لحسن الانصات والتدبر ، وأخذ العبر من قصة هذا الملك ٠

ثم تبتدىء الآيات بتفصيل قصة ذى القرنين ٠٠٠ فيبين الله تعالى أنه قد أعطى ذا القرنين هذا من الوسائل ما جعله صاحب سلطان متين ، وملك وطيد ، وقوة شامخة لا تدانيها قوة فى عصره ، حيث طوع له الجند والأعوان ، والسلاح ، وحباه بعقل راجح ، وذكاء فريد ، يهديه الى الفكر السليم ، والرأى القويم ، كما خلع عليه من الهيبة والوقار ما خلع ، وقذف فى قلوب أعدائه من الرعب ما قذف ، حتى ظفر بكل البلاد ، ودان له ملوك الأرض والعباد ، وزيادة على هذا التمكين العظيم ، أعطاه الله تعالى من الأسباب التى يريد أن يصل بها الى ما يريد من أغراضه فى هذه الحياة وفى ملكه ، ما أعطاه ، من علم وقدرة ، وآلة ، ونحو ذلك ، حتى تتم له النعمة الدينية والدنيوية على حد سواء ٠

ثم تبين الآيات أن ذا القرنين قد تصرف فى هذه النعمة ، وبهذا السلطان كما يجب المولى عز وجل ، فتوضح لنا أن ذا القرنين أراد نشر العدل ، ونور الاسلام فى الدنيا ، فبدأ بناحية المغرب ، فأخذ من الأسباب ما يكفل له ذلك ، وبالفعل ظل فاتحا لكل ما يقابله من بلاد ، حتى وصل نهاية المعمورة من ناحية غروب الشمس وهناك رأى الشمس وهى تغرب ، رأى لها منظرا جميلا ، رآها فى وقت الأصيل ٠٠ وكأنها تسقط فى البحر ، وهذا بالطبع على حسب رؤية العين ، لا كما هو الواقع ، وقد تعرضنا بالتفصيل لهذه النقطة فى التفسير التحليلى فلا داعى للاعادة ٠

وتوضح لنا الآيات أن ذا القرنين وجد فى هذا المكان قوما كافرين ، وأن الله خيره فيهم ان شاء قتلهم ، وان شاء أحسن اليهم ،

وذلك بدعوتهم أولا الى الاسلام ، ولكن ذا القرنين الملك الصالح ، كان يملك بين جنبيه قلبا رحيما ، ونفسا شفوقة وطبيعة خيرة سمحة ، فاختار الاحسان اليهم ، ووضح منهجه معهم ، حيث قال : سوف أدعوهم الى الاسلام أولا ، فمن استمر على كفره فليس له مصير فى الدنيا سوى القتل ، وفى الآخرة سوى النار ، حيث يرجع الى ربه فيأمر به الى نار جهنم ، يلقى فيها ما يلقى ، من أشد العذاب وأخزى العقاب ، أما من قبل دعوتى ودخل فى نور الاسلام فان له عند ربه عز وجل جنة عرضها السموات والأرض ، وله منا القول الحسن ، والمعاملة الطيبة .

ثم تبين الآيات أن ذا القرنين لما فتح البلاد ، ونشر العدل بين العباد الى أقصى المغرب ، اتجه بقواته ناحية المشرق ليفعل فعله هذا ، حتى يعم العدل الأرض كلها ، فاتخذ من الأسباب والوسائل التى تمكنه من ذلك ما اتخذ ، حتى وصل بالفعل الى نهاية المعمورة شرقا ، وهناك وجد قوما لم يجعل الله بينهم وبين الشمس سترا ، أى أن الشمس كانت قريبة منهم ، ودرجة حرارتها مرتفعة للغاية ، وقيل انهم كانوا يعيشون فى أسراب تحت الأرض ، وقيل انهم كانوا حفاة عراة كما هو الشأن فى المناطق الاستوائية .

وقد فعل ذو القرنين معهم مثل ما فعل مع أهل المغرب ، حيث وجدهم كافرين ، فدعاهم أولا الى الاسلام ، فمن استمر على كفره قتله ، ومن دخل الاسلام عصم دمه وماله وأحسن اليه .

ثم تنتهى آيات هذا المشهد الذى يصور لنا هذا التمكين الهائل من الله لذى القرنين ، واستخدام هذا التمكين فى نشر العدل غربا وشرقا ، لقوله تعالى (**وقد أحطنا بما لديه خبرا**) ، وهى عبارة بليغة يقصد بها تكثير ما كان عند ذي القرنين من أشياء

تلك الأشياء التي بلغت من الكثرة ، والقوة مالا يحيط بها الا علام الغيوب ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وهكذا ينتهى هذا المشهد الذى يصور لنا نموذجا حيا ، ومثلا أعلى ، لمن يملك مقاليد خلق الله تعالى ، وكيف يفعل بسلطانه وقوته ، حتى لا يفتن فى دينه ودنياه ، بل ينال رضا مولاه ، وينجو من عذابه ويفوز بجنات النعيم ، ليرافق الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

« العبر المستفادة من المشهد الأول »

من الآية (٨٣) الى الآية (٩١)

من خلال آيات هذا المشهد نستطيع أن نخرج بعدة عبر ، نقتصر منها على مايأتى :

أولا : صدق النبى ﷺ فى دعوى النبوة ، اذ قد حدث بغيب ماض سحيق ، لم يعرف الناس عنه الا القليل ، وبصورة غير دقيقة ، تزاد تارة ، وتنقص أخرى ، وتمزج بالأساطير ثالثة ، ولكن الله تعالى الذى أرسل نبيه محمدا ﷺ تكرم عليه بتأييده ضد تقولات المكذبين ، وافتراءات الضالين ، فأخبره بهذا الماضى الذى اندثر ، ولم يعرف قومه عنه شيئا ، حتى يعلم الناس صدقه ، وأنه رسول حق ، خاصة وأنهم يوقنون تماما أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يتتلمذ على يد مدرس ، ولم تكن له صلة بأهل الكتاب ، ولا بأحبارهم ، أو رهبانهم ، فلم يكون التشكك ؟ ولم يكون التكذيب ؟ وصدق الله اذ يقول **« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون »**(٢٨) .

---

(٢٨) العنكبوت : ٤٨ .

والحق أن هؤلاء الضالين يعرفون صدقه ﷺ تماما ، ولكنهم لا يريدون متابعته ، لعمى فى بصيرتهم ، وليحتفظوا بما لديهم من وجاهة بين الناس زائلة ، ومتاع لهم فى الحياة فان ، ومصالح شخصية ، تتحقق لهم من الظلمات التى يرجون لها الدوام ، وصدق الله اذ يقول : « **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** »(٢٩) .

ثانيا : واذا كانت هذه الآيات تعطينا الدليل الحى على صدقه ﷺ ، فانها تعطينا أيضا الدليل الواضح من الله تعالى على طبيعة اليهود ، الذين وصفهم الله بقوله « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود** »(٣٠) ، فهم الذين بعثوا مع قريش بهذه الأسئلة ، ليختبروا بها صدق نبوته ﷺ ، وبعد اجابته عنها ظلوا كما هم ، وكان المفروض أن يكونوا هم أول من يؤمنون به ، لا أول كافر ، ولكنها الطبيعة التى لا تفارقهم ، فكأن هذه الصفة ـ صفة كتمان الحق ـ شىء لازم لذواتهم ، لا تنفك عنهم ، قال تعالى « **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** »(٣١) ، وقال « **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** »(٣٢) .

ثالثا : يعطينا هذا المشهد من قصة ذلك الملك الصالح ، نموذجا حيا لما يكون عليه من جعله الله خليفة له فى هذه الأرض ، فالحاكم لم يعط الحكم لاذلال الشعوب واستعبادهم ، أو لسرقة أموالهم بأساليب متنوعة متعددة ، وان اتخذت أسماء

---

(٢٩) الانعام : ٣٣ .
(٣٠) المائدة : ٨٢ .
(٣١،٣٢) البقرة : ٨٩ ، ١٤٦ .

زائفة ، كلا ، كلا ، فالحكم أمانة عظيمة ، وابتلاء خطير ، جد خطير .

هاهو أبو ذر يقول لرسول الله ﷺ : (ألا تستعملنى ؟) أى ألا تسند الى عملا ، من خلاله أخدم الاسلام والمسلمين ، ومع أن أبا ذر كان صحابيا تقيا ، ومن الذين ألزمهم الله كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، الا أن الرسول ﷺ خاف على أبى ذر ، أن يحدث منه تقصير فى أمر الرعية ، فتكون النتيجة مالا يحمد عقباه فرفض طلبه ، يقول أبو ذر : (فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر ، انك ضعيف ، وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها) (٣٣) .

فعلى كل من أسند اليه أمر من أمور المسلمين ، أيا كان هذا الأمر ، سواء أكانت الامارة جزئية ، أم عامة أن يتخذ من قصة هذا الملك الذى خلد الله ذكره فى القرآن نموذجا حيا صالحا ، يسير عليه ، وليدع النماذج العفنة المستوردة ، من تلك الأنظمة ، التى يسمونها بالديمقراطية ، أو الاشتراكية ، ففى اسلامنا النماذج الصادقة الكاملة .

رابعا : نخرج من قصة هذا الملك بعبرة غاية فى الأهمية ، فى هذه الأيام ، وفى كل الأيام ، ألا وهى حتمية الجهاد وفرضيته على المسلمين ، من أجل ازاحة القوى الظالمة المستبدة ، التى لا تريد لنور الله أن ينتشر ، فذو القرنين جاهد حتى وصل نهاية المعمورة غربا وشرقا ، من أجل اقامة العدل بين الناس ، ومن أجل ادخال الناس فى نور ربهم .

---

(٣٣) أخرجه مسلم في كتاب الامارة ، باب كراهة الامارة بغير ضرورة .

وإذا كان البعض قد فهم الجهاد الاسلامى على أنه جهاد دفاعى ، أى أنه مفروض فى حالة ما اذا تعرضت ديار المسلمين لغزو عدو ، فان فهمه ذلك فهم خاطىء وفهم سقيم قاصر ، زرعه فى قلبه - من حيث لا يشعر - أعداء الله رب العالمين ، فمفهوم الجهاد فى الاسلام بعبارة موجزة بسيطة : أنه يجب على المسلمين وهم يبلغون الناس دين الله فى كل أرجاء الدنيا أن يزيلوا من أمامهم كل قوة غاشية ظالمة ، تحول بين الناس وبين سماعهم لهذا الحق كما نزل غضا من السماء ، لا لبس فيه ولا غموض ولا تشويه ، ثم بعد ذلك يترك المسلمون هذه الشعوب وحريتها ان شاءت دخلت دين الله ، والا فلا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، تماما كما يفعل من يريد سقى أرضه ، فانه لابد أن يزيل الأحجار والأعشاب من القناة التى يسير فيها الماء الى هذه الأرض ، وبعد ذلك ان كانت الأرض صالحة فانها تأتى بالخير ، والا فماذا يفعل مع هذه الأرض السبخة ؟

وعلى أى حال من الأحوال ، وعلى أضعف الايمان ، حسب المفهوم القاصر الخاطىء لمن يعتقد أن الجهاد طبيعته دفاعية فقط ، فان الانسان ليعجب أشد العجب ، بل يخجل ويذوب من خجله ، ومن العار الذى يلاحقه ويلاحق كل المسلمين ، من هذه الدعوات التى نسمعها ليلا ونهارا ، منادية بما يسمى بالحل السلمى ، انى أريد من هؤلاء الذين ينادون بهذا الحل السلمى ، وبخاصة ذلك الصنف من العلماء الذين ساروا فى هذا الموكب أريد منهم وأتحداهم أن يجيئوا ولو بدليل واحد من القرآن أو السنة ، بجواز الحل السلمي فى حال اغتصاب العدو لمساحات شاسعة ،

وبلدان كاملة فى أكثر من قطر اسلامى ويدعى أنها ملك له ، أن هناك اجماعا من كل الفقهاء على أن الجهاد فى مثل هذا الحال فرض عين على المسلمين ، رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ان من ينادى بمثل هذا الحل السلمى فى مثل هذا الحال انسان لا يفهم دينه ، الا فليفهم الجميع دينهم ، والا فستأتى لحظة من أعداء الله لتريهم نتيجة هذا الجهل ، أو التجاهل ، وعاقبة هذه الغفلة أو هذا التغافل ، ومصير حب الدنيا ، وايثارها على ما أعد الله للمجاهدين الأعزاء ، وساعتها لن ينفع الندم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

خامسا : نخرج من هذا المشهد بقاعدة فى غاية الأهمية ، الا وهى من الذى يكرم ؟ ومن الذى يهان ؟ لقد وضح ذو القرنين هذه القاعدة حينما خيره الله تعالى فى شأن من دخل بلادهم فاتحا ، فقال : (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا) وهذا يعنى أن أهل الصلاح والتقوى هم ـ وحدهم ـ أهل التقدير ، والتكريم ، بالقول الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والاحسان اليهم بما يسد حاجتهم ، ويليق بكرامتهم ، ووضعهم بين الناس ، أما أهل الفساد والفسق والفجور فهم أهل للعقاب والاهانة ، بما يردعهم عن غيهم ، وبما يزجر غيرهم ، ممن يفكرون فى أن يكونوا أمثالهم ، هذا هو الميزان الذى يجب على الحاكم أن يزن به أقدار رعيته ، فاذا وزن به صلح أمره ، وأمر مجتمعه ، والا فسد حاله وحال رعيته .

يقـول السـيد قطب رحمـه الله ، معلقـا على منهـج ذى القرنين :

(هـذا هـو دستور الحكم الصـالح ، فالمؤمن الصـالح ينبغى أن يجـد الكرامة والتيسـير والجـزاء الحسـن عند الحـاكم ، والمعتدى الظـالم يجب أن يلقى العـذاب والايـذاء ، وحـين يجـد المحسـن فى الجمـاعة جـزاء احسانه جـزاء حسـنا ، ومكـانا كريمـا ، وعـونا وتيسـيرا ، ويجـد المعتـدى جـزاء افسـاده عقـوبة واهـانة وجفـوة ، عندئذ يجـد النـاس ما يحفزهم الى الصـلاح والانتـاج ، أمـا حـين يضطرب ميـزان الحـكم فـاذا المعتدون المفسـدون مقربون الى الحـاكم، مقدمون فى الدولـة ، واذا العاملون الصالحون منبوذون ، أو محـاربون فعندئذ تتحـول السـلطة فى يـد الحـاكم سـوط عـذاب ، وأداة افسـاد، ويصـير نظـام الجمـاعة الى الفـوضى والفسـاد .)(٣٤) .

وها هـو ذا واقـع المسلمين ، وحالهـم ، حينمـا قـرب حكامهم فى كثيـر من الأقطـار الاسلامية أهـل النفـاق والتملـق ، وأهـل الفسـق ، ومشيعى الفاحشة بين المسلمين ، وأغدقـوا عليهـم الأمـوال الطـائلة ، وجـوائز التقـدير والتكريم ، وأحاطوهم بهـالة اعلاميـة ضـخمة ، كـاذبة ، لترفـع من شـأنهم فى أعـين وقـلوب جماهيـر المسلمين ، فى الوقت الذى يلاقى فيـه أهـل الفضيلة والتقوى ما يلاقون، من تضـيـيق ، ومحـاربة ، واتهـام بتهـم باطـلة زائفـة ، ليعتقـد النـاس فيهم اعتقـادا خاطئـا منفـرا ، أقـول : حينمـا فعـل كثير من حـكام المسلمين هـذا الفعـل أصبح هـذا حـال المسلمين ، فـلا دينـا أصـابوا بـه رضـا الله ، ولا دنيـا ملكـوا بهـا أمرهـم من غـذاء وكسـاء ودواء ، وسـلاح ، ولـن يعـود للمسلمين عزهم التليد ، ومجدهم الفقيـد الا اذا قـرب الحكام أهـل التقوى ، وعاملوا أهل النفاق والفسق والفسـق بمـا هـم لـه أهـل .

---

(٣٤) فى ظلال القرآن : ٢٢٩١/٤ .

« المشــهد الثــانى »

(ذو القـرنين وافسـاد يأجـوج ومأجـوج)

قـال تعـالى : « ثم أتبـع سـببا (٩٢) حتى إذا بلـغ بين السدين وجـد من دونهمـا قومـا لا يكـادون يفقهـون قـولا (٩٣) قـالوا يـاذا القـرنين إن يأجـوج ومأجـوج مفسـدون فى الأرض ، فهـل نجعـل لك خرجـا على أن تجعـل بيننـا وبينهم سـدا (٩٤) قـال ما مكنى فيـه ربى خيـر ، فأعينونى بقـوة أجعـل بينـكم وبينهـم ردمـا (٩٥) آتـونى زبـر الحـديد ، حتى إذا سـاوى بين الصدفين قـال انفخـوا ، حتى إذا جعـله نـارا قـال آتـونى أفـرغ عليـه قطـرا (٩٦) فمـا اسـطاعوا أن يظهـروه وما استطاعوا لـه نقبـا (٩٧) قـال هـذا رحمة من ربى ، فـإذا جـاء وعـد ربى جعلـه دكـاء ، وكـان وعـد ربى حقـا (٩٨) » .

(معـانى المفـردات وأسـرار التراكيـب)

بعـد أن قص الله علينـا ماكـان من جهـاد ذى القرنين ، من أجـل نشـر الاسـلام والعـدل ، وما كـان من فتوحاته التى وصلت أولا الى أقصى الأرض من ناحيـة المغـرب ، ثم وصلت ثانيـا الى أقصاها من ناحيـة المشـرق ، شـرع سبحانه فى حـكاية ماكـان من ذى القـرنين من جهـاد نحـو اتجـاه آخـر غيـر المغـرب والمشـرق .

حيث يبـين المـولى عـز وجـل أن ذا القـرنين أراد الوصـول الى مكـان مـا ، فاتخـذ من الأسـباب والوسائل التى جعلتـه يصـل الى هـذا المكـان ، وهـو ما عبـر الله عنـه بقـوله (بين السـدين) .

وقـد بينـا فى التمهيـد لهـذه القصـة أن المـراد بالسدين هنـا

الجبلان العظيمان ، لأنهما يسدان طرق الأرض ، كما ذكرنا هناك أقوال العلماء فى موضع وتعيين الجبلين حيث قال بعضهم ان ذلك الموضع كان ناحية الشمال ، وحدده بعضهم بأنه فى أرض الترك ، وقال آخرون : ان الجبلين بين أرمينية وأذربيجان ، وذكرنا هناك أيضا أن الأسلم فى ذلك تفويض الأمر لله عز وجل ، وعدم القطع بقول من هذه الأقوال ، وأن الجرى وراء ذلك لا طائل تحته ، والا لذكره الله فى قرآنه ، أو بينته سنة الرسول ﷺ ٠

وقوله (السدين) قرأه حمزة والكسائى بضم السين ، كما قرآ (سدا) بفتح السين ، حيث كان هذا اللفظ ، وقرأه حفص عن عاصم بالفتح فيهما فى كل القرآن ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما فى كل القرآن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (السدين) و (سدا) ههنا بفتح السين فيهما ، وضمها فى يس فى الموضعين(١) ٠

قال الكسائى :

وقد ذهب بعض العلماء الى أن السد : بفتح السين وضمها بمعنى واحد ، ويطلقان على الجبل والحاجز ، وذهب البعض الي أن ماكان من صنعة بنى آدم فهو بفتح السين ، وماكان من صنع الله فهو بضمها ، وأرى أن الرأى الأول هو الأرجح ، حيث قال تعالى « **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا** »(٢)، فقد نسب الله فعل السد الى نفسه ، وقرىء بفتح السين كما قرىء بضمها ، فدل ذلك على أن السد بفتح السين يطلق على

---

(١) مفاتيح الغيب : ١٦٩/٢١ ٠
(٢) يس : ٩ ٠

ماكان من فعل الله كما يطلق على ماكان من فعل العبد ، ولافرق فى نطق اللفظ فيما يكون من فعل الله ، أو من فعل العبد ، ومما يقوى ترجيحنا لذلك قول الامام الآلوسى : (وأنت تعلم أن القراءة بهما ظاهرة فى توافقهما)(٣) .

وقوله (بين) مفعول به للفعل (بلغ) ، لأن هذا المكان مبلوغ ، وهو من الظروف التى تستعمل أسماء وظروفا ، ولذلك قد يجر ، كما فى قوله « هذا فراق بينى وبينك »(٤) ، وقد يرتفع كما فى قراءة « لقد تقطع بينكم »(٥) ، فهو من الظروف المتصرفة مالم يركب مع آخر مثله ، نحو قولهم : همزة بين بين .

وما أن بلغ ذو القرنين (بين السدين) حتى (وجد من دونهما) أى من وراء السدين (قوما لا يكادون يفقهون قولا) .

والمراد بالقوم هنا أمة من الناس ، تشمل الرجال والنساء، والصغار والكبار ، وان كان هذا اللفظ يطلق فى أصل اللغة على الرجال فقط ، كما وضحنا ذلك عند تفسير قوله تعالى : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة » صفحة (٨٩) ، وأيدنا هذا القول بشواهد من القرآن والسنة وأشعار العرب .

وهؤلاء القوم من البشر ، ومن ادعى أنهم من الجان فادعاؤه باطل ، ورأيه كاسد وفاسد .

وقد ذكرنا فى التمهيد لهذه القصة أيضا أن الأرجح بالنسبة لهؤلاء القوم تفويض علمهم الى الله تعالى ، حيث لا دليل صحيح

---

(٣) روح المعانى : ٣٧/١٦ .
(٤) الكهف : ٧٨ .
(٥) الأنعام : ٩٤ .

صريح فى تعيين هؤلاء القوم أو تعيين بلادهم ، أو أى شىء يتعلق بهم ، ولا فائدة فى هذا التعيين ، والا لذكرته النصوص القرآنية أو النبوية ٠

ثم وصف الله هؤلاء القوم بقوله « **لا يكادون يفقهون قولا** » ٠٠

و (كاد) وضعت فى اللغة لمقاربة الشىء فإن عبر بها مجردة أنبأت عن نفى الفعل ، وان كانت مقرونة بالجحد أنبأت عن وقوع الفعل ، والفقه : العلم بالشىء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم ، وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة ـ شرفها الله تعالى ـ وتخصيصا بعلم الفروع منها ٠

وقوله (يفقهون) فيه قراءتان ، القراءة الأولى : بضم الياء وكسر القاف ، وهى قراءة حمزة والكسائى ، ومعناها : لا يمكنهم تفهيم غيرهم لغرابة لغتهم ، وقلة فطنتهم ، والقراءة الثانية قراءة الباقين : بفتح الياء والقاف ، والمعنى : لا يفهمون لغة غيرهم الا بمشقة شديدة ، من اشارة ونحوها ، كما يفهم البكم ٠

قال الفخر الرازى : (فان قيل كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله بقوله « لا يكادون يفقهون قولا » ؟ فالجواب أن نقول : (كاد) فيه قولان :

الأول : أن اثباته نفى ، ونفيه اثبات ، فقوله « **لا يكادون يفقهون قولا** » لا يدل على أنهم لا يفهمون شيئا ، بل يدل على أنهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة ٠

الثانى : أن (كاد) معناه المقاربة ، وعلى هذا القول

فقوله « لا يكادون يفقهون قولا » أي لا يعلمون ، وليس لهم قرب من أن يفقهوا .

وعلى هذا القول فلابد من اضمار ، وهو أن يقال : لا يكادون يفهمونه الا بعد تقريب ومشقة من اشارة ونحوها .

وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الأول فى تفسير (كاد) . »(٦) .

وحينما رأى هؤلاء القوم سلطان ذى القرنين القاهر ، وكثرة جنده ، وأتباعه ، وما لديه من تمكين لم يعهدوا له نظيرا فى الوجود ، وكان هناك قوم يأجوج ومأجوج يغيرون عليهم دائما، ويفسدون عليهم دنياهم وأحوالهم طلب هؤلاء القوم الذين يعيشون خلف هذين الجبلين الى ذى القرنين أن يستخدم قوته وسلطانه فى سد تلك الفجوة الواسعة بين هذين الجبلين ، والتى من خلالها يأتى اليهم قوم يأجوج ومأجوج ، فى مقابل أجر يعطونه له ، قال تعالى:

« قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ » .

وهذا القول منهم اما بواسطة مترجم ، واما أن يكون مباشرة ، على أن يكون فهم ذى القرنين لغتهم وافهامهم ما يريد من جملة الأسباب التى قال الله عنها **« وآتيناه من كل شىء سببا »**

وقد تحدثنا - فى التمهيد لهذه القصة - بشىء من التفصيل عن يأجوج ومأجوج ، وانتهينا الى أن الراجح فى هذا المقام أننا لا نعرف عنهم شيئا غير ما ورد ذكره فى القرآن أو السنة،

---

(٦) مفاتيح الغيب : ١٧٠/٢١ .

وعلى ذلك فنحن لا نعرف عنهم من أى الأقوام كانوا ، ولا أى البلاد كانوا يسكنون ، ولا عن ضخامة أجسادهم ، أو صغرها ، مما يبالغ به بعض الرواة فى ذلك ، وكل ذلك لا صلة له بالعبر التى تؤخذ من هذه القصة ، والا لذكر فى القرآن أو السنة .

ولفظا يأجوج ومأجوج قرأهما عاصم بالهمز ، والآخرون بغير همز .

وقد ذهب بعض العلماء الى أنهما اسمان أعجميان ، وذهب البعض الآخر الى أنهما اسمان عربيان ، وعلى كل فهما ممنوعان من الصرف ، فمن قال انهما أعجميان فللعجمة والعلمية ، ومن قال انهما عربيان فللتأنيث والعلمية ، لأنهما علمان على قبيلتين .

والذين قالوا بعربية هذين الاسمين واشتقاقهما ، ذكروا عدة أوجه لهذا الاشتقاق :

١ - فقيل ان هذين الاسمين مأخوذان من تأجج الملح ، وهو شدة ملوحته ، فسموا بذلك لشدة حركتهم .

٢ - وقيل : (يأجوج) مأخوذ من تأجج النار وتلهبها ، فلسرعتهم فى الحركة سموا بذلك ، ومأجوج من موج البحر .

٣ - وقيل هو مشتق من الأج ، وهو سرعة العدو ، قال تعالى فى شأنهم « **وهم من كل حدب ينسلون** »(٧) .

٤ - وقيل هما مشتقان من الأجة ، بمعنى الاختلاف ، قال تعالى فى شأنهم هنا « **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض** » .

---

(٧) الأنبياء : ٩٦ .

والفساد : نقيض الصلاح ، يقال فسد بفتح سين الماضى وضمها ، يفسد : بضم سين المضارع وكسرها ولا يقال انفسد ، ويقال أفسدته أنا ٠

والتعبير بقولهم (مفسدون) واضح فى أن افسادهم واقع بالفعل ، وليس متوقعا ، وقد ذكر الرواة فى كيفية افسادهم فى الأرض روايات كثيرة ، وأنواعا عظيمة ، مثل قتل الناس ، وأكل لحومهم ، وغير ذلك ، وهذه الروايات وان لم تأت بطريق صحيح فإن لفظ الافساد يحتمل ما ذكروه ، والله أعلم بما كان منهم من فساد وافساد ٠

وبعد أن أخبر هؤلاء القوم ذا القرنين بافساد يأجوج ومأجوج فى الأرض طلبوا اليه أن يقيهم شرهم عن طريق سد هذه الفجوة التى بين الجبلين ، والتى منها يكون افساد يأجوج ومأجوج ، فى مقابل مكافأة له على ذلك ، حيث قالوا :

(فهل لك نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) ، وهذا الطلب منهم جاء بصيغة الاستفهام ، وفى ذلك من حسن الأدب معه ، ومراعاة جلال قدره ما هو واضح وظاهر ، تماما كما قال موسى للخضر : **(هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا)** ٠

والفاء فى (فهل) لتفريع طلبهم على افساد يأجوج ومأجوج ، والاستفهام مستعمل فى العرض ٠

وقوله : (خرجا) فيه قراءتان ، القراءة الأولى : قراءة حمزة والكسائى (خراجا) بفتح الراء ، وبألف بعدها ، والقراءة الثانية بسكون الراء ، وهى قراءة الباقين ٠

وقد ذهب بعض العلماء الى أنهما بمعنى واحد ، كالنول والنوال، وذهب آخرون الى أنهما ليسا بمعنى واحد ، وهؤلاء اختلفوا فى تحديد هذا الفرق فقيل : الخرج ما تبرعت به ، والخراج ما وجب عليك دفعه .

وقيل : الخرج الجزية على كل رأس ، والخراج ما كان على الأرض ، وقيل : الخراج هو الاسم لما كان على الذمة والأرض ، أما الخرج فهو المصدر .

وعلى أى حال فان هؤلاء القوم قد عرضوا على ذى القرنين أن يعطوه جعلا كبيرا فى مقابل هذا الردم الذى سيقوم به .

والتنوين فى (خرجا) للتعظيم والتفخيم أى لتعظيم المكافأة وتفخيمها .

وفى تقديم جعل الخرج له على جعل السد لهم ، اغراء له بقبول هذا العرض ، ومع عظم هذا الجعل الذى عرض على ذى القرنين الا أنه رفضه ، فما هذا الجعل فى ذلك السلطان العظيم ، والتمكين الهائل ، الذى أنعم الله به عليه ، حتى بسط به نفوذه على كل الدنيا ؟ ولذلك فقد آل على نفسه أن ينشر العدل بين العباد ، وأن يمنع كل فساد وافساد ، وأن يحقق الأمن فى كل البلاد .

ان هذا التمكين ، واستخدامه فى هذا الهدف خير له من كل جعل ، ولذلك رد عليهم بقوله (**ما مكنى فيه ربى خير**) أى ما جعلنى الله مكينا فيه ، من كونى ملكا على الدنيا كلها ، وذا سلطان وقوة على جميع البلاد والعباد ، وذا مال ويسار ، ليس لأحد من البشر ، خير مما تريدون اعطاءه لى .

وهذا الرد شبيه برد سليمان عليه السلام حينما رفض هدية ملكة سبأ ، وقال لرسلها « **فما آتانى الله خير مما آتاكم** »(٨) .

---

(٨) سورة النمل آية : ٣٦ .

وهذا الفعل (مكنى) فيه قراءتان ، القراءة الأولى لابن كثير، حيث قرأه بنونين على الاظهار (مكننى) ، والقراءة الثانية قراءة الباقين ، بنون واحدة ، مشددة ، على الادغام .

ورغم أن ذا القرنين رفض هذا العرض منهم ، الا أنه لم يرفض معاونتهم على حمايتهم من شر يأجوج ومأجوج ، ولكنه طلب منهم مساعدته فى ذلك ، حيث قال لهم : **(فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما)** .

والفاء فى (فأعينونى) لتفريع الأمر بالاعانة على رفض خرجهم ، والمراد بالاعانة : المساعدة والمشاركة ، والقوة نقيض الضعف، وجمعها قوى بتنوين الواو ، وضم القاف أو كسرها ، والمراد بها : الصناع والفعلة ، والآلات ، ونحو ذلك مما يحتاجه فى بناء السد .

وقوله (اجعل) جواب الأمر (أعينونى) ، وقدم ذو القرنين الظرف المضاف الى ضمير من يخاطبهم (بينكم) على الظرف المضاف الى ضمير يأجوج ومأجوج ، (وبينهم) حتى يظهر لهم كمال العناية بشأنهم ، كما فعلوا ذلك فى تعبيرهم **(على أن تجعل بيننا وبينهم)** .

وقوله : (ردما) أى حاجزا متينا ، وحائلا حصينا ، يقال ردم يردم - بكسر الدال - ردما ، فالاسم والمصدر سواء ، والجمع ردوم ، بضم الراء ، وذهب بعضهم الى أن الردم والسد فى اللغة بمعنى واحد، وذهب آخرون الى أن الردم أوثق من السد ، وأعظم ، ولعل هذا الرأى هو الأرجح ، لأنهم يقولون ثوب مردم اذا كان عليه رقاع فوق رقاع ، ولذلك عبر به ذو القرنين بدلا من التعبير بالسد ، الذى عبر به هؤلاء القوم ، فهو بهذا يكون قد أسعفهم بأفضل مما كانوا يرجونه ، وهذا هو اللائق بشأن العظماء والملوك .

ثم طلب منهم بعض المعونة بقوله (**آتونى زبر الحديد**) ، والحديد ذلك هو الجوهر المعروف ، مأخوذ من الحد ، بمعنى المنع والفصل بين الشيئين ، ولذلك سميت حدود الشرع حدودا لأنها تفصل بين الحرام والحلال ، ومنها ما لا يقرب كالفواحش المحرمة ، قال تعالى : « **تلك حدود الله فلا تقربوها** »(٩) ، ومنها ما لا يتعدى كالمواريث المعينة ، وتزويج الأربع ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : « **تلك حدود الله فلا تعتدوها** »(١٠) .

وعلى ذلك فالحديد سمى حديدا ، لأنه مشتق من المنع ، لأنه منيع والقطعة منه حديدة ، والجمع حدائد ، وجمع الجمع : حدائدات(١١) .

والقطعة الضخمة من الحديد تسمى : زبرة : بضم الزاى ، وسكون الباء ، وفتح الراء ، والجمع زبر ، بضم الزاى ، وفتح الباء ، وأصل الزبر - بفتح الزاى وسكون الباء - الاجتماع ، يقال زبرت الكتاب ، أى جمعت حروفه .

فقوله (**آتونى زبر الحديد**) معناه أحضروا الى قطع الحديد الضخمة .

قال أبو السعود : « ولعل تخصيص الأمر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة اليها أمس ، اذ هى الركن فى السد ، ووجودها أعز »(١٢) .

وقوله (آتونى) قرأه جميع القراء بمد الألف ، من الايتاء

---

(٩) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

(١٠) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(١١) انظر لسان العرب (حدد) .

(١٢) ارشاد العقل السليم : ٢٦٧/٣ .

بمعنى الاعطاء ، الا حمزة ، فقد قرأه (ائتونى) من الاتيان بمعنى المجيء ، وتقدير الكلام ، ائتونى بزبر الحديد ، الا أن الباء محذوفة ، كما يقال شكرته ، وشكرت له .

وقوله (**حتى اذا ساوى بين الصدفين**) قبله كلام محذوف ، والتقدير فأتوه بها ، فرص بعضها على بعض (**حتى اذا ساوى ..**) الخ .

ومساواة الشيء بالشيء : مماثلته به حتى يصل الى قدره ومبلغه .

والمراد بالصدفين : قيل الجبلان ، وقيل جانبا الجبلين ، وهو ما أميل اليه .

وذهب بعضهم الى أنه لا يقال للواحد صدف حتى يقابله صدف آخر ، وأنه من الأسماء المتضايفة كالزوج ونحوه .

وقال الأصمعى : الصدف : كل شيء مرتفع عظيم ، كالحائط والجبل ، وقال ابن سيده : الصدف جانب الجبل . وقال ابن دريد : يقال لجانبى الجبل اذا تحاذيا : صدفان بضم الصاد والدال ، أو فتحهما ، لتصادفهما ، أى تلاقيهما ، ومحاذاة هذا الجانب للجانب الذى يلاقيه(١٣) . ومنه قولك : صادفت الرجل أى لاقيته .

والنفخ معروف ، وهو اخراج الهواء ، من الفم ، أو من آلة .

فقوله (**حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا**) معناه : أن هؤلاء القوم لما أعطوه قطع الحديد الضخمة ، ووضع بعضها على بعض ، حتى سدت تلك الفجوة الموجودة بين الجبلين ، وكأنها لم تكن ، أمرهم بايقاد النار والنفخ فيها ، بالكيران .

---

(١٣) لسان العرب (صدف) .

وقوله (حتى اذا جعله نارا) قبله كلام محذوف ، والتقدير : فنفخوا حتى اذا ، والضمير فى (جعله) يعود على المنفوخ فيه ، ومعنى (جعله نارا) أى كالنار فى الهيئة والحرارة ، فالكلام من قبيل التشبيه البليغ .

وأسند جعل هذا الفعل المذكور الى ذى القرنين مع أنه من فعل القوم والفعلة لأنه هو العمدة والأصل ، أما هم فانهم بمنزلة الأداة .

وجواب (اذا) قوله (قال أتونى أفرغ عليه قطرا) .

والمفعول الثانى لـ (آتونى) محذوف ، وتقديره قطرا ، وانما حذف لدلالة مفعول أفرغ المذكور عليه .

والافراغ : الصب ، يقال فرغ عليه الماء وأفرغه : صبه ، والقطر : النحاس المذاب ، وهذا قول أكثر العلماء ، وذهب بعضهم الى أنه الرصاص المذاب ، وسمى بذلك لأنه يقطر .

قال الآلوسى معلقا على فعل ذى القرنين ومن معه : « يجوز أن يكون بواسطة آلات غريبة ، أو أعمال ، أوتيها هو ، أو أحد ممن معه ، لا يكاد أحد يعرفها اليوم ، وللحكماء المتقدمين - بل والمتأخرين - أعمال عجيبة يتوصلون اليها بآلات غريبة ، تكاد تخرج عن طور العقل ، وهذا مما لا شبهة فيه ، فليكن ما وقع لذى القرنين من ذلك القبيل »(١٤) .

أقول : كلام امامنا الآلوسي مسلم به ، ومع ذلك فانى أرجح أن ذا القرنين لم يأت بأفعال غريبة فى هذا النفخ ، وفى افراغ القطر ،

---

(١٤) روح المعانى : ١٦/٤١ .

ولكنه اتبع الوسائل المعتادة ، الا أن الله تعالى أيده فى هذا البناء بمدد ربانى ، من عنده ، فكما قال لنار ابراهيم العظمى كونى بردا وسلاما ، قال لهذه النار الضعيفة كونى طوع مراد عبدى ذى القرنين واصنعى له ما أراد ، فكانت طوع أمره ، اكراما لصلاحه وتقواه ، وعدله بين عباد مولاه .

ولعل مما يقوى رأينا هذا قول الفخر الرازى رحمه الله :

« واعلم أن هذا معجز قاهر ، لأن هذه الزبر الكثيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار ، لم يقدر الحيوان على القرب منها ، والنفخ عليها لا يمكن الا مع القرب منها ، فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها »(١٥) .

وبمثل هذا القول قال أبو السعود فى تفسيره :

وعلى أى حال فان ذا القرنين قد فعل ذلك الفعل اما لأنه آتاه الله من كل شىء سببا ، واما لأنه كان ملكا صالحا ، وكان عند ربه مرضيا ، فأعانه الله على ذلك كرامة له وتأييدا ، لمنعه الافساد فى الأرض .

ثم وصف الله عز وجل شدة هذا الردم وصلابته بقوله :

(فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا)

والفاء فى قوله (فما اسطاعوا) فاء الفصيحة ، حيث أفصحت عن كلام محذوف ، والتقدير : آتونى أفرغ عليه قطرا ، فأتوه بالقطر فأفرغه عليه فاختلط بعضه ببعض حتى صار ردما قويا ، وجبلا صلدا ، فأتى يأجوج ومأجوج قاصدين أن يعلوه أو ينقبوه فما استطاعوا .

والمراد بالظهور : العلو ، من قولهم ظهرت البيت ، بمعني علوته ،

---

(١٥) مفاتيح الغيب : ١٧٢/٢١ .

وكذ تعلى ظهـره ، قال ابن شميل : « ظاهر الجبـل أعـلاه ، وظاهرة كل شىء أعـلاه ، استوى أو لم يستو ظاهره ، واذا علوت ظهـره فأنت فـوق ظاهـرته » .

والنقب : الثقب ، فى أى شىء كان ، وشىء نقيب : منقوب (١٦) .

فهذا الردم بلغ من العـلو والملاسة والصـلابة ما لم يستطع يأجوج ومأجـوج أن يصعدوا عليـه ، أو يثقبـوه ، وعلى ذلك فقد وقيت الأمم شـرهم ، حيث لا حيلة الى مجـاوزته الا بأحد هـذين الأمـرين ، اما بالارتقاء فـوقه ، وأما باحداث ثقب نافذ من أحد جانبيـه الى الجانب الآخـر ، وقد حيـل بينهم وبين ما يشتهون ، بهـذا العـلو ، وهـذه الملاسة ، وتلك الصـلابة .

وقـوله : (فما اسطاعوا) أصلهـا فما استطاعوا ، فحذفت تـاء الافتعـال تخفيفا ، لقرب مخرجها من الطـاء .

ولكن لمـاذا حذفت التـاء من قـوله (**فما اسطاعوا أن يظهـروه**) ولم تحذف من قوله (**وما استطاعوا له نقبـا**) ؟ مع أن الفعل واحد ؟

والجواب على ذلك أن استطاعة التسلق على السد أسهل من نقبه ، فلما كان التسلق أسهل نوسب حذف التـاء ، ولمـا كان النقب أشد لم يناسبه حذف هـذه التـاء ، لأن الافتعـال يدل على الصعوبة والشدة ، وهو فى النقب أقـوى وأظهر منـه فى التسلق .

قال ابن كثير : « ولمـا كان الظهور عليـه أسهل من نقبـه قابل كلا بما يناسبه » . وبمثـل هذا التعليل علل الطاهر بن عاشور ، حيث قال : « لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه » (١٧) .

---

(١٦) لسـان العرب : (ظهر ، ونقب) .

(١٧) تفسير ابن كثير : ٥/١٩٣ ، والتحرير والتنوير : ١٦/٣٧ .

وبعد أن صنع ذو القرنين هذا الردم المتين ، والحاجز الحصين ، قال متواضعا لله ولخلقه : (**هذا رحمة من ربى**) .

وهذه الجملة استئنافية بيانية ، فكأن سائلا سأل : ماذا صدر من ذى القرنين بعد هذا العمل العظيم ؟ فقيل له : (**قال هذا رحمة من ربى**) .

والاشارة فى قوله (هذا) عائدة على هذا الردم الحصين ، الذى صنعه ذو القرنين ، وكونه رحمة ظاهر واضح ، حيث سيرحم الخلق أجمعين - لاسيما هؤلاء القوم الذين طلبوا من ذى القرنين بناءه - من شر يأجوج ومأجوج .

ويجوز أن تكون الاشارة راجعة الى تمكين الله ذى القرنين واقداره على هذا البناء ، وكون هذا التمكين رحمة على العباد لأنه السبب فى منع شر هؤلاء عنهم .

وقوله (رحمة) يراد بها نعمة ، أو أن فى الكلام حذفا ، والتقدير أثر رحمة ، وعبر بها هكذا للمبالغة .

و (من) فى قوله (من ربى) ابتدائية ، تفيد أن هذه الرحمة مصدرها ومنبعها الله رب العالمين ، مصدر كل رحمة ، ومنبع كل خير وعطاء .

وهذا القول - أعنى قول ذى القرنين (**هذا رحمة من ربى**) - يفيد أن هذا البناء ليس من قبيل ما اعتاده الخلق ، بل ليس فى استطاعتهم مباشرته ، وفى ذلك يقول أبو السعود عليه رحمة الله : « فيه ايذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة ،

بل هو احسان الهى محض ، وان ظهر بمباشرتى ، والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة »(١٨) .

ثم بين ذو القرنين أن لهذا الردم المتين ، والحاجز الحصين ، أجلا لا ريب فيه ، ساعتها يزول ، وكأنه لم يغن بالأمس ، حيث يقول :

(فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا) .

والوعد هنا بمعنى الموعود ، والمراد به يوم القيامة ، الذى وعد الله الناس بمجيئه ، والمراد بمجيئه هنا ما يجىء من علاماته الكبرى ومقدماته التى تسبقه مباشرة من خروج يأجوج ومأجوج على العالم كله ، وظهور المسيخ الدجال ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ، وغير ذلك .

وقوله (جعله دكاء) جواب (اذا) ، والضمير فى (جعله) يعود على الردم الذى بناه ذو القرنين ، أى هدمه الله ، وجعله مستويا بالأرض .

قال ابن منظور : « الدك : هدم الجبل والحائط ونحوهما » .

وقال الزمخشرى : «أى مدكوكا مبسوطا ، مسوى بالأرض ، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك ، ومنه الجمل الأدك ، أى المنبسط السنام »(١٩) .

وقوله (دكاء) قرىء بقراءتين ، الأولى بألف التأنيث الممدودة ، على أنه وصف لمؤنث مقدر ، والتقدير جعله أرضا دكاء ، أى مستوية ، والقراءة الثانية بتنوين الكاف فى (دكا) وبدون همزة بعد الألف ،

---

(١٨) ارشاد العقل السليم : ٣/٢٦٨ .

(١٩) لسان العرب (دك) ، والكشاف : ٢/٧٤٨ .

على أنه مصدر للفعل دككته ، قال الآلوسى : « وهو بمعنى المفعول ، أى مدكوكا مسوى بالأرض أو على ظاهره ، والوصف به للمبالغة ، والنصب على أنه مفعول ثان لجعل ، وهى بمعنى صير »(٢٠) .

ثم أكد ذو القرنين حتمية يوم القيامة بقوله (**وكان وعد ربى حقا**) .

والمراد بالوعد هنا الوعد المعهود ، وهو وعد الله خلقه بحتمية مجىء يوم يبعث الناس فيه لرب العالمين ، وعبر عن هذا الوعد بـ (كان) التى للماضى لتحقق الوقوع ، ولتأكيد مجيئه ، لأنه وعد من العليم القدير ، تماما كما قال : « **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** »(٢١)

ويجوز أن يكون المراد بالوعد : كل ما وعد الله به خلقه ، ويدخل في ذلك دخولا أوليا وعده بحتمية يوم القيامة .

وفى تكرير ذى القرنين لقوله (ربى) حيث كرر لفظ الربوبية ، وأضافه الى نفسه دليل على ايمان صادق منه ، واعتراف مخلص بنعم الله عليه ، حيث لم يكن كمنقال أوتيته على علم عندى ، وبهذا كان جديرا بأن يذكر فى أعظم كتاب سماوى ، ويكون اسمه وسيرته مخلدين الى يوم القيامة ، يثاب المؤمن على قراءتهما ، ويعيش سعيدا لو سار على منهجه .

وقوله (حقا) خبر كان ، والحق نقيض الباطل ، فهو الثابت الواجب ، يقال حق الأمر ، أي وجب وثبت ، وتحقق عنده الأمر : أى صح .

---

(٢٠) روح المعانى : ١٦/٤٢ .

(٢١) سورة النحل آية : ١ .

فكل ما وعد الله به من وجوب مجىء يوم القيامة وغيره ، ثابت لا يقبل الخلف ، لأن الله عليم بما كان وبما يكون ، وبما لم يكن لو كان كيف يكون ، ولأن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فسبحانه من إله عليم قدير .

وبقول ذو القرنين (**وكان وعد ربى حقا**) تنتهى قصة ذى القرنين فى القرآن الكريم ، حيث لم تذكر الا فى هذا الموضع من سورة الكهف ، لتجىء دليل صدق على نبوة محمد بن عبد الله ، سيدنا وسيد الأولين والآخرين ، ﷺ وبارك فى الأولين والآخرين ، ولتكون قصة هذا الملك الصالح نورا يهتدى به الملوك والرساء وكل من بيده أمر من أمور خلق الله ، حتى يكون هذا الحكم لهم لا عليهم ، هدى الله ولاة أمور المسلمين لما فيه خيرهم وخير عباد الله ، آمين .

المعنى العام للمشهد الثانى

من الآية (٩٢) الى الآية (٩٨)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى فى المشهد السابق ما كان من جهاد ذى القرنين ، من أجل ابادة الظلمات التى عمت وجه الأرض ، بنور الله ، الذى صلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، وكيف أنه حقق العدل حتى نهاية المعمورة غربا وشرقا ، شرع سبحانه وتعالى فى هذه الآيات ليبين لنا سيره فى اتجاه آخر ، حيث ذكر المولى عز وجل أن هذا الملك العادل اتخذ من الأسباب والوسائل ما أن جعله يصل فاتحا الى مكان يقال له بين السدين ، أى بين جبلين عظيمين ، وهناك وفى هذه المنطقة التقى ذو القرنين بأناس من البشر يعيشون خلف هذين الجبلين ، لا يفهمون لغة غيرهم ، ولا يستطيعون افهام غيرهم ، أو التعامل معهم الا بمشقة شديدة ، باشارة ونحوها ، كما يفعل

البكم ، وكان هؤلاء القوم يعيشون فى أمـان وسعادة ، الا أن هذا الأمان وتلك السعادة بددا باغارات قبيلتين عظيمتين كانتا بجوارهم ، وكانتـا تعـرفان بيأجوج ومأجوج ، كان الفسـاد والافسـاد يجريان فى عروقهم كما تجـرى الدماء ، فلم يهنأ لهؤلاء القـوم عيش ، ولم تصف لهم حياة .

وما أن شـاهد هؤلاء القوم ذا القـرنين ، ورأوا ما لديه من سلطان وجند وأتبـاع ، وما أوتيـه من تمكين لم يعهدوا له مثيلا فى الوجود . الا واستصرخوا به واستغاثوا ، وكلموه بأدب جم يليـق بمكانته قائلين : اننا بعد أن كنـا نعيش آمنين مطمئنين ، تبدل حالنـا ، وأصبحنا نعيش خائفـين مستذلين ، مما نلاقيـه من شـر وافسـاد يأجـوج ومأجوج ، وانا نعـرض عليك أيها الملك الصـالح العادل عرضـا ، ان شئت قبلته ، وان أردت رفضته ،اننـا نعـرض عليـك جعـلا كبيرا ، ومكافأة عظيمة ، فى مقـابل أن تستخـدم ما حبـاك الله به ، فى سـد تلك الفجـوة بين الجبلين ، والتى لولاها ما وصـل الينـا قـوم يأجـوج ومأجوج ، ومع هـذا الأدب الجـم ، وذلك العـرض الضخم من هـؤلاء القـوم ، فان ذا القـرنين كان أكثـر منهم أدبا ، وأعـز نفسـا ، فـرد عليهم قائلا : **(ما مكنى فيـه ربى خـير)** أى ما جعلنى فيـه مكينا ، من كونى ملكا على كل الدنيـا ، وما حبـانى به من قـوة وسلطان ، ومال ويسـار ، ليس لأحد فى الكون معشـار معشـاره خير من هذا الجعـل الذى تريدون اعطـاءه اياى .

ومع أنه رفض هـذا العرض منهم الا أنه أراد مشـاركتهم فى هـذا العمـل ، حيث طلب اليهم أن يمـدوه بالصناع والآلات ، ونحـو ذلك مما يحتاجه فى بنـاء السد ، ثم شـرع ذو القـرنين فى بناء ردم هائل وحاجز حصـين ، مؤسس على أفضـل ما يكون الأسـاس ، فطلب منهم أن يمدوه بقطـع الحـديد الضخمة ، فأتوه بها ، فجعـل يرصها رصـا

محكما فى تلك الفجـوة التى بين السدين ، حتى سـد بهذا الحديد تلك الفجـوة ، وأصبحت قطـع الحـديد المرصوصة مسـاوية لأعلى هـذين الجبلين ، وحينئذ أمـر ذو القـرنين بايقـاد النـار تحت تلك القطـع من الحديد ، وأمـرهم بالنفخ فى تلك النـار ، حتى انصهر الحديد ، ثم أمـرهم باحضـار نحـاس مـذاب ، حتى يصـبه على هـذا الحديد المنصهر ، وبالفعـل نفذوا ما أمـرهم به ، فتماسك الحديد المنصهر مع النحاس المذاب ، وأصبحت تلك الفجـوة بين السدين كأن لم تكن ، بل صـارت أصلب من الجبـال الرواسى ، ومن هنـا فقد وقى هؤلاء القـوم شـر يأجوج ومأجوج ، وأصبحت الحيـلة مستحيلة عليهم للوصول الى هؤلاء القوم ، فلن يستطيعوا أن يعلـوا هـذا الردم الحصـين ، ولا أن ينقبـوه .

وبعد أن أتم ذو القـرنين هـذا العمـل العظيم قال لهؤلاء القـوم وغيرهم ، معترفا بنعمـة ربه ، وفضـله عليـه وعليهم ، ان هـذا السد ليس راجعـا الى علم عندى أو الى قـوة فى جسـدى ، أو صـواب فى رأيى ، ولكنه يرجـع الى رحمـة الله تعـالى وفضله على وعليكم ، وعلى ذلك فلابد وأن نقـابل نعمـة الله بشـكره ، وتوحيده واخلاص الدين له .

ثم بين ذو القـرنين لهؤلاء القوم أن هـذا السد سيزال حصنا حصينا يقى النـاس من شـر يأجوج ومأجوج الى ما قبيـل يوم القيـامة ، تبعا لمـا اقتضته حكمته تعـالى ، فاذا جاء هـذا الوقت مكن الله تعالى يأجوج ومأجوج من خـرق هـذا السد ، حتى يسـوى بالأرض ، ويصـير كأن لم يكن ، وتوجد تلك الفجـوة بين الجبلين كما كانت ، ويخرج يأجـوج ومأجوج على العـالم كله ، حيث تقع فتنـة فى الأرض وفسـاد كبير ،

لا عاصم فيها من أمر الله الا من رحم ، هذا ما وعد به الرحمن ، وكان وعده حقا ، لا يتخلف ، ولا يتبدل .

وهكذا ينتهى هذا المشهد الثانى من قصة ذى القرنين ، وتبقى للناس بعد ذلك العبر التى تؤخذ منه ، والتى بها تضاء حياتهم ، وبها يعرف الملوك والرؤساء ومن بيدهم مصالح الناس ، كيف يكون الحكم ، ولماذا تكون السلطة ، هدانا الله لما فيه خير العباد والبلاد .

العبر المستفادة من المشهد الثانى

من الآية (٩٢) الى الآية (٩٨)

من خلال آيات هذا المشهد نستطيع أن نخرج بعدة عبر ، نقتصر منها على ما يأتى :

(أولا)

وجوب نصرة المظلوم، وانقاذه من بين براثن الظالمين فذو القرنين هذا ، حينما علم باعتدا يأجوج ومأجوج على خلق الله تعالى وتهديد أمنهم وافساد حياتهم ، أقدم على هذا العمل العظيم ، ألا وهو بناء هذا الردم الحصين ، حتى يدرأ عن خلق الله شر المفسدين .

وعلى هذا : فيجب الآن - وفورا - على حكام المسلمين وشعوبهم انقاذ اخوانهم المسلمين ، المضطهدين فى أماكن كثيرة ، من بقاع هذه الأرض ، فى فلسطين ع وأفغانستان ، وأفريقية ، وغيرها ، لأن الجهاد الآن فرض عين على الجميع ، حيث يحتل العدو أقطارا كاملة من

بلاد المسلمين ، ولأن الله أوجب علينا اغاثة المستضعفين ، الذين يصرخون ويستغيثون ، فما بالنا اذا كان هؤلاء مسلمين ؟

ولقد هيج القرآن شعور المسلمين فى مثل هذا الحال بقوله:
« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا »(*) .

أى : (وكيف تقعدون عن القتال فى سبيل الله ، واستنقاذ هؤلاء المستضعفين ، من الرجال والنساء والولدان ؟

هؤلاء الذين ترتسم صورهم فى مشهد مثير لحمية المسلم ، وكرامة المؤمن ، ولعاطفة الرحمة الانسانية على الاطلاق ؟

هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة ، لأنهم يعانون المحنة فى عقيدتهم ، والفتنة فى دينهم ، والمحنة فى العقيدة أشد من المحنة فى المال والأرض ، والنفس والعرض ، لأنها محنة فى أخص خصائص الوجود الانسانى ، الذى تتبعه كرامة النفس والعرض ، وحق المال والأرض !

ومشهد المرأة الكسيرة ، والولد الضعيف مشهد مؤثر مثير ، لا يقل عنه مشهد الشيوخ ، الذين لا يملكون أن يدفعوا - وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة - وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة الى الجهاد ، وهو وحده يكفى ، لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات وهو أسلوب عميق الوقع ، بعيد الغور فى مسارب الشعور والاحساس)(**) .

(*) النساء : ٧٥ .
(**) فى ظلال القرآن : ٧٠٨/٢ .

(ثانيـــا)

يشـير قـول ذى القـرنين (ما مكنى فيـه ربى خير) ، وقـولة (هـذا رحمـة من ربى) الى أهميـة الشكر لنعم الله عـز وجـل ، وعـدم الاغترار بها ، بل لابد من نسبتها الى مق أنعم بهـا ، وتسخيرها فى طاعتـه .

فذو القـرنين يعترف بأن مـا هو فيـه من تمكين عظيم انمـا هو من ربه عـز وجـل ، ثم بعـد ذلك استخدم هـذا التمكين فى نشر العدل بين النـاس ، وفى منـع فسـاد المفسدين فى الأرض ، ثم أسـند هـذه النعمـة التى تمت على عبـاد الله لربه ، ولم يسندها لنفسـه ، وانمـا قال : (هـذا رحمـة من ربى) ولم يغتر كما يغتر الآخـرون ، ولم يقل كما قال أحـدهم أوتيتـه على علم عنـدى .

ولازالت الأمـة الاسـلامية مليئـة بالنمـاذج السـيئة ، التى تسرق أعمال الغير فى اصـلاح المجتمـع واسعـاده ، ثم تنسبها الى نفسهـا ، فكم من المرافق والمشروعات تفتح أكثر من مـرة ، فى أكثر من عهـد ، وفى كـلمرة يدعى أحـدهم أنه صـاحب هـذا الانجـاز ، ومـا ادعـوا الا ليحمـدوا بما لم يفعـلوا .

وفى أمثـالهم يقول تعـالى : « لا تحسبن الذين يفرحـون بمـا أتـوا ويحبـون أن يحمـدوا بمـا لم يفعـلوا فلا تحسبنهم بمفـازة من العـذاب ولهم عـذاب أليم »(*) .

وبعـد

فبهـذه العبر نكون قـد انتهينـا من قصـة ذى القـرنين ، ذلك

(*) آل عمران : ١٨٨ .

الملك الصالح ، العادل ، ودعاؤنا من القلب لحكام المسلمين أن يأخذوا من سيرته فى رعيته ، وحكمه المثل الصادق ، والنموذج الحى الخالد ، الذى خلده الله فى أعظم كتاب سماوى، نزل على أعظم رسول بشرى ، حتى صارت قراءة اسمه وسيرته قرآنا ، يثاب القارىء والسامع عليهما .

ألا فليقتد بحكمه كل حاكم ، فيعدل كما عدل ، ويجاهد كما جاهد ، (**ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه**) .

أما من ظلم وتخاذل عن الجهاد ، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة ، فان الله غنى عنه وعن العالمين ، وهو له بالمرصاد ، يرقبه ماذا هو فاعل بحكمه فى خلق الله .

قال تعالى : « **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** »؟**) .

هدى الله ولاة الأمور لما فيه خير هذه الأمة الاسلامية وسعادتها فخيرها خير لهم ، وسعادتها سعادة لهم ، ختم الله لنا ولهم ولكل مسلم بالحسنى ، آمين .

وبهذا

نأتى الى ختام هذا الكتاب ، الخاص بقصص سورة الكهف ، والذى نرجو به رضا الله عز وجل ، وانى اذ أختمه لأبرأ الى الله عز وجل من كل حول وقوة ، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله ، والا فهو من تقصير صاحبه وخطئه وجهله ، ولا نملك الا الدعاء بالعفو عنه ، وبأن يجعل هذا الكتاب خالصا لوجهه الكريم وأن

(**) **يونس : ١٤ .**

ينفعـه به ومن بلـغ ، وأن يجعلـه فى ميزان حسناته وحسنات والديه وأساتذته ، وأن يجعـل خير أعمالنـا خواتيمهـا ، وخير أيامنـا يـوم لقـائه ، وأن يمتعنـا برضوانه ، وأن ينعم علينـا بأعظم نعمة فى الآخرة الا وهى رؤيـة وجهـه الكريم ، انه أكـرم مسئول وأعظم مقصـود . وصلى الله على سـيدنا محمـد وعلى آله وأصحابه وأتبـاعه وسـلم ، عـدد خلق الله ورضـا نفسـه ، وزنة عرشـه ، ومـداد كلماته ، وعـدد معلوماته ، كلما ذكـر الله الذاكرون وغفـل عن ذكره الغافلون .

الفقير الى رحمة ربـه وعطائه

أبو محمـد

دكتور / جمـال مصـطفى

كان الفراغ من تصنيف هـذا الكتاب يوم السبت الموافق
٢٧ رجب ١٤١٢ هـ - أول فبراير ١٩٩٢ م .

المراجـــع

١ - القـرآن الكـريم
٢ - الاتقـان للسـيوطى
٣ - ارشـاد العقـل السليم ، لأبى السعود
٤ - الايمـان والحيـاة ، د/ يوسف القرضاوى
٥ - البحـر المحيـط ، لأبى حيـان الأندلسى
٦ - البرهـــان ، للزركشى
٧ - التحـرير والتنـوير ، لطاهـر بن عاشـور
٨ - تحفـة المـريد على جوهـرة التوحيـد ، للبيجـورى
٩ - التصـوير الفنى فى القـرآن ، للسيد قطب
١٠ - تفسير سـورة الكهف ، للدكتور مسموع أبو طالب
١١ - تفسير سـورة مريم ، للدكتور / محمد على حجازى
١٢ - تفسير القـرآن العظيم ، للحـافظ ابن كثير
١٣ - التيسير فى عـلم التفسـير ، لعمر النسفى :
تحقيق د. جمـال مصطفى .
١٤ - الجـامع لأحـكام القـرآن ، للقرطبى
١٥ - جـامع البيـان ، لابن جرير الطبرى
١٦ - الجـامع الصـحيح ، للبخـارى
١٧ - حرب الخليـج فى ميزان الاسلام ، للدكتور / عبد الحى الفرماوى
١٨ - خـلق المسـلم ، للشيخ محمـد الغزالى
١٩ - روح المعـانى ، للآلوسى
٢٠ - زاد المسـير ، لابن الجـوزى
٢١ - سـنن أبى داود
٢٢ - سـنن البيهـقى

٢٣ ـ سنن الترمذى

٢٤ ـ سنن ابن ماجه

٢٥ ـ سنن النسائى

٢٦ ـ السيرة النبوية ، لابن هشام .

٢٧ ـ شرح ابن عقيل

٢٨ ـ صحيح مسلم

٢٩ ـ عقيدة المسلم ، للشيخ محمد الغزالى

٣٠ ـ فى ظلال القرآن ، للسيد قطب

٣١ ـ الفتح القدير ، للشوكانى .

٣٢ ـ الفتوحات الالهية ، لسليمان الجمل

٣٣ ـ فتح البارى ، لابن حجر

٣٤ ـ فتاوى ابن تيمية

٣٥ ـ الكشاف ، للزمخشرى

٣٦ ـ لسان العرب ، لابن منظور

٣٧ ـ المستدرك على الصحيحين ، للحكام النيسابورى

٣٨ ـ المسند للامام أحمد بن حنبل

٣٩ ـ مجلة منبر الاسلام ، العدد السادس لسنة ١٣٨٩ هـ

٤٠ ـ مختصر منهج القاصدين ، لابن قدامة المقدسى

٤١ ـ مفاتيح الغيب ، للفخر الرازى

٤٢ ـ مفهوم الحرب والسلام فى الاسلام ، د/ محمد راضى جبريل

٤٣ ـ مناهل العرفان ، للزرقانى

٤٤ ـ النكت والعيون ، للماوردى

٤٥ ـ الوابل الصيب ، لابن القيم

فهرس الجزء الثانى

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
معانى المفردات وأسرار التراكيب	٤٧٨
المعنى العـام لآيات المشهد الأول	٤٩٩
العبر المستفادة من المشهد الأول	٥٠٢
صـدق النبى ﷺ فى دعـوى النبـوة	٥٠٢
طبيعـة اليهـود : التكذيب الدائم بكل حق نزل من السماء	٥٠٣
الحكم أمـانة عظيمة ، ومسئولية خطيرة	٥٠٣
فرضـية الجهـاد فى كل وقت ... ... ى	٥٠٤
من الذى يكرم ؟ ومن الذى يهـان ؟	٥٠٦
المشهد الثانى (ذو القرنين وافسـاد يأجوج ومأجوج) ى	٥٠٨
معانى المفردات وأسرار التراكيب	٥٠٨
المعنى العـام للمشهد الثانى	٥٢٥
العبـر المستفـادةم من المشهد الثـانى	٥٢٨
على حكام المسلمين انقاذ اخوانهم المستضعفين فى العـالم	٥٢٨
أهميـة شـكر النعمة ، ونسبة الفضـل لصاحبه	٥٣٠
المـراجـــع	٥٣٣
فهـرس الجزء الثـانى	٥٣٥

تعـريف بالمؤلـف

عمـلا بالتوجيه القـرآنى ، والهـدى النبوى ، فى التعـارف بين المسلمين ،اليك أخى القارىء هذهالسطور ،للتعريف بمؤلف الكتاب •

الاســـم : د/ جمال مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار

البـلدة : مدينـة فايد •• محافظة الاسماعيلية

الســن : ٣٧ سنة (٦ أكتوبر ١٩٥٤ م)

العمـــل : مدرس التفسير وعلوم القرآن ، فى كليـة أصول الدين - جامعـة الأزهـر ، بالقاهرة •

الحالة الاجتماعية : متزوج ، وله ثلاثة أولاد (محمـد ، ومصطفى ، وسيف الاسلام ،) •

المشوار الدراسى : منـذ ولادته نذره والده لخـدمة الاسلام ، فاعتنى به اعتنـاء كاملا ، فحفظ القـرآن الكريم كله ، حفظا جيدا ، قبل الالتحاق بالصف الأول الاعدادى الأزهـرى ، ولازال يحفظـه ، والحمـد لله •

- وفى سنة ١٩٦٨ م وبعـد احتلال اليهود - عليهم اللعنـة - لسيناء بعـام ، وتهجير مواطنى مدن القنـاة ، التحق بمعهد الزقـازيق الأزهـرى ، حيث تتلمـذ على أيدى مجمـوعة من خيرة علمـاء الأزهـر فى جميع العلوم •
- وفى سنة ١٩٧٥ م حصل على الثانوية الأزهرية ، وكان ترتيبه فيها اول على مستوى الجمهورية ، وكـرمته الدولة - وقتـذاك - مع بقيـة أوائل الجمهورية فى الشهادات العـامة ، برحلة الى خمس دول أوروبيـة ، هى : اليـونان ، ويوغوسـلافيا ، والنمسـا ، وايطاليـا ، وفرنسا ، لمدة شهر ونصف •

- وفى سنة ١٩٧٥ م التحق بكلية أصول الدين ، حيث كانت أعظم أمنية له ولوالده ، وأنعم الله عليه فى سنوات الكلية ، كما أنعم عليه من قبل فى الثانوية ، فكان الأول على دفعته كل عام ، وكان الطالب الوحيد الذى حصل كل عام على تقدير ممتاز .
- وفى سنة ١٩٧٩ م حصل على الليسانس ، بتقدير ممتاز ، مع مرتبة الشرف الأولى ، وعلى المركز الأول ، على طلبة الكلية .
- وفى مارس عام ١٩٨٠ م كلف بالعمل معيدا ، بقسم التفسير ، بكلية أصول الدين بالقاهرة .
- وفى سنة ١٩٨٦ م حصل على درجة الماجستير ، فى الدخيل فى التفسير ، بتقدير ممتاز ثم كلف بعد ذلك بالعمل مدرسا مساعدا فى نفس الكلية .
- وفى سنة ١٩٨٩ م حصل على الدكتوراة ، فى تفسير القرآن الكريم مع مرتبة الشرف الأولى ، مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة ، وتداولها مع الجامعات الأخرى .
- وفى سنة ١٩٩٠ م حصل على جائزة المستشار عبد الحليم الجندى ، والتى تعطى - بتوفيق الله تعالى - لمن حصل على المركز الأول من السادة الدكاترة ، على مستوى جميع كليات الجامعة ، لحصوله على أعلى التقديرات ، ابتداء من الدراسات التمهيدية للماجستير ، ومرورا بدرجة الماجستير ، وانتهاء بدرجة الدكتوراة ...

نسأل الله تعالى أن يجعل تلك النعم مسخرة فى خدمة الاسلام ، وأن تكون حجة لصاحبها ، لا عليه ، وأن يعلمنا ما جهلنا ، وأن يجعلنا ممن يعلمون فيعملون ويخلصون ، وأن يختم لنا ولوالدينا ولأساتذتنا بالحسنى آمين .

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩٢ / ٢٦٨٨